فتح البيان في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري

أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"

"١٢٤٨-١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه

خادم العلم

عبدالله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء العاشر



صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

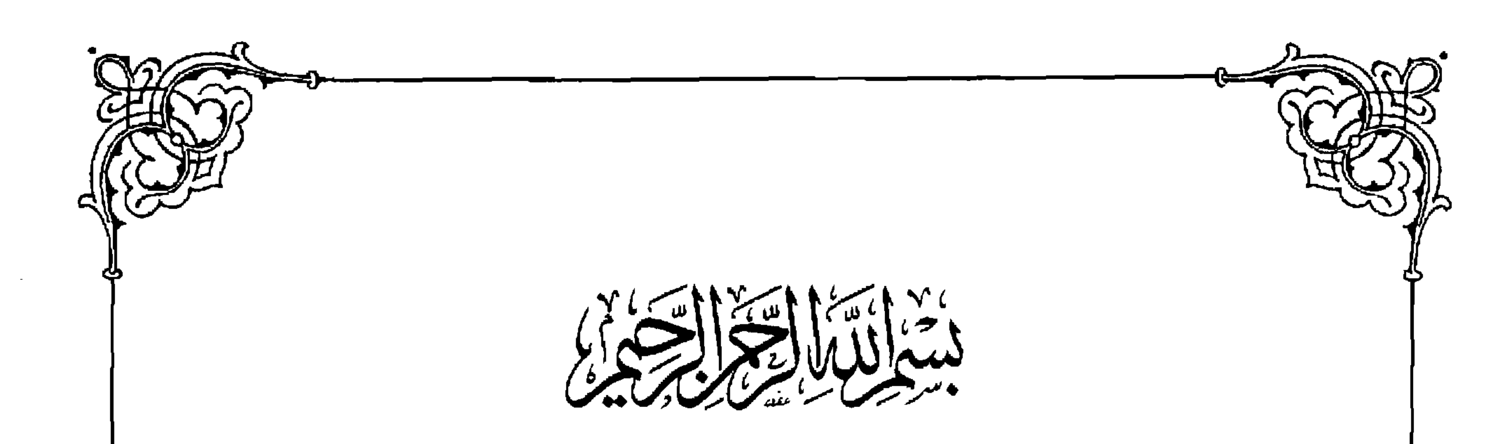
بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE



ويشتمل على :

- سورة النمل .
- سورة القصص .
- سورة العنكبوت .
- سورة الروم .
- سورة لقمان .





سورة النمل

﴿هي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية﴾

قال القرطبي: وهي مكية كلها في قول الجميع، وبه قال ابن عباس. وعن ابن الزبير مثله.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

﴿طسٓ﴾ قد مر الكلام مفصلاً في فواتح السور ، وهذه الحروف إن كانت اسماً للسورة فمحلها الرفع على الابتداء، وما بعدها خبرها، ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف أي اسم هذه السورة طسٓ ، وان كانت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها ، والله اعلم بمراده بذلك .

﴿تلك﴾ إشارة إلى نفس السورة لأنها قد ذكرت إجمالاً بذكر اسمها ﴿آيات القرآن وكتاب مبين﴾ عطف بزيادة صفة على مفهوم المعطوف عليه ، وكان مفيدًا بهذا الاعتبار ، والمراد بالكتاب القرآن نفسه أو اللوح المحفوظ ، أو نفس السورة .

وقد وصف الآيات بالوصفين ، القرآنية الدالة على كونها مقروءة مع الإشارة إلى كونها قرآناً عربياً معجزاً ، والكتابية الدالة على كونها مكتوبة ، مع الإشارة إلى كونها متصفة بصفة الكتب المنزلة ثم ضم إلى الوصفين وصفاً ثالثاً، وهي الإبانة لمعانيه لمن يقرأه : وهو من أبان بمعنى بان ، معناه اتضح إعجازه ، بما اشتمل عليه من البلاغة أو مظهر لما في تضاعيفه من الحكم والأحكام ، وأحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب ؛ أو لسبيل الرشد والغي ، أو فارق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام .

وقدم وصف القرآنية هنا نظرًا الى تقدم حال القرآنية على حال الكتابة ،

وأخره في سورة الحجر فقال: تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ،نظرًا إلى حالته التي قد صار عليها فإنه مكتوب ، والكتابة سبب القراءة ، والله اعلم .

وأما تعريف القرآن هنا وتنكير الكتاب ، وتعريف الكتاب في سورة الحجر وتنكير القرآن ، فلصلاحية كل واحد منهما للتعريف والتنكير ، لأن القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد ﷺ ووصفان له ، لأنه يقرأ ويكتب ، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم ، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف .

﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي : تلك آيات هادية ومبشرة أو هو هدى أو يهدي هدى ويبشر بشرى ، أو هاد من الضلالة ، ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى والبشرى فقال :

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أي الخمس ، ويديمون على شرائطها من الفروض والسنن ، ويأتون بها على وجهها .

﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي : يؤدون ويعطون زكاة أموالهم إذا وجبت عليهم، طيبة بها أنفسهم ،ولما كانت إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة مما يتكرر ويتجدد في أوقاتها ، أتى بهما فعلين ، ولما كان الإيقان بالآخرة أمرًا ثابتًا مطلوبًا دوامه ، أتى به جملة اسمية فقال :

﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ يعلمونها بالاستدلال ، وجعل الخبر مضارعًا للدلالة على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد في كل وقت ، وعدم الانقطاع وكرر الضمير للدلالة على الحصر ، ولما فصل بينه وبين الخبر، أي لا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق ، وأنهم الأوحدون فيه ، ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة فقال :

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي : لا يصدقون بالبعث وهم الكفار .

﴿ زينا لهم أعمالهم ﴾ قيل : المراد أن الله زين لهم أعمالهم السيئة

القبيحة بتركيب الشهوة فيهم ، حتى رأوها حسنة، وقيل : المراد أن الله زين لهم الأعمال الحسنة وذكر لهم ما فيها من خيري الدنيا والآخرة فلم يقبلوا ذلك . قال الزجاج: معنى الآية إنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه بأن جعلناه مشتهى بالطبع محبوبًا للنفس .

﴿فهم يعمهون﴾ أي يترددون فيها متحيرين على الاستمرار ، لا يهتدون الى طريقه ، ولا يقفون على حقيقته ؛ لعدم إداركهم قبحها في الواقع، وقيل: المعنى يتمادون ، قاله أبو العالية وقال قتادة : يلعبون . وعن الحسن : يتحيرون. وقيل : يداومون وينهمكون فيها ، ويستمرون . والمعاني متقاربة .

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي :أشده ، قيل : في الدنيا كالقتل والأسر ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده :

﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي : هم أشد الناس خسرانًا ، وأعظمهم خيبة ، فالمفضل عليه هو أنفسهم من حيث اعتبار اختلاف الزمان والمكان ثم مهد سبحانه مقدمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة، فقال مخاطباً للنبي ﷺ :

﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي :يلقى عليك بشدة فتلقاه ، وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم ، ووجه الجمع بينهما ـ مع أن العلم داخل في الحكمة ـ أن العلم الذي يدخل فيها هو العلم العملي ، وهو الذي يتعلق بكيفية عمل ، والعلم أعم منه ، فكأنه قيل : مصيب في أفعاله ، لا يفعل شيئاً إلا على وفق علمه ، عليم بكل شيء ، سواء كان ذلك العلم مؤديًا الى العمل أم لا .

قيل : إن(لدن) ههنا بمعنى عند ، وفيها لغات كما تقدم في سورة الكهف ، وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه ؛ وقد اشتملت هذه السورة على قصص خمس : **الأولى** هذه ، **وتليها** قصة النملة ، **وتليها** قصة بلقيس ، **وتليها** قصةصالح ، **وتليها** قصة لوط .

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿إذ قال موسى لأهله﴾ قال الزجاج :أي اذكر قصته إذ قال لأهله ،والمراد بأهله امرأته في مسيره من مدين الى مصر ، وكان في ليلة مظلمة باردة مثلجة وقد ضل الطريق ، وأخذ زوجه الطلق ، والحامل له على هذا السفر أن يجتمع بأمه وأخيه بمصر ، ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شعيب ، فكنى عنها بلفظ الأهل الدال على الكثرة للتعظيم ، وقيل :كان معه ولده وخادمه أيضًا ومثله قوله : امكثوا ﴿إني آنست ناراً﴾ أي أبصرتها من بعيد.

﴿سآتيكم منها بخبر﴾ عن حال الطريق ، وكان قد ضلها ، والسين تدل على بعد مسافة النار وتأكيد الوعد . والجمع - إن صح أنه لم يكن معه عليه السلام إلا امرأته لما كنى عنها بالأهل ، او للتعظيم - مبالغة في التسلية .

﴿أو آتيكم بشهاب قبس﴾ بتنوينهما على أن الثاني بدل من الأول أو صفة له لأنه بمعنى مقبوس ، أي بشعلة نار مقبوسة ، أي مأخوذة من أصلها ، وقرىء بالإضافة على أنها للبيان ، فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبس الجامع لمنفعتي الضياء والاصطلاء ، لأن من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن ، كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه من صيغة الترجي والترديد للإيذان بأنه إن لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الأمر وثقة بسنة الله تعالى فإنه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين ، قاله ابو السعود .

والمعنى على القراءتين آتيكم بشعلة نار مأخوذة من أصلها في رأس فتيلة أو عود . قال الزجاج : من نوّن جعل (قبس) من صفة (شهاب) . وقال الفراء : هذه الإضافة كمسجد الجامع ،وصلاة الأولى ،اضاف الشيء الى نفسه لاختلاف اسمائه . وقال النحاس : هي إضافة النوع الى الجنس ، كما تقول ثوب خز وخاتم حديد وهي بمعنى : من . أي : شهاب من قبس .

قال :ويجوز في غير القرآن بشهاب قبسًا ، على أنه مصدر أو بيان أو حال . قال الزجاج :كل أبيض ذي نور فهو شهاب . وقال أبو عبيدة : الشهاب النار ،وقال ثعلب :أصل الشهاب عود ، في أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه ، والشهاب الشعاع المضيء ، وقيل للكوكب : شهاب .

﴿ لعلكم تصطلون﴾ أي : رجاء أن تستدفئوا بها من البرد :أو لكي تستدفئوا بها ، يقال : صلى بالنار واصطلى بها إذا استدفأ بها ، والصلاء النار العظيمة ،واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين ، والقصة واحدة ، دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى ، وجواز النكاح بغير لفظ التزوج .

﴿فلما جاءها﴾ أي النار التي أبصرها ﴿نودي﴾ من جانب الطور ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ (أن) هي المفسرة لما في النداء من معنى القول ،أي قيل له :بورك أو هي المصدرية أي بأن بورك ، أي بارك الله أي ناداه بأنا قدسناك ، وطهرناك ، واخترناك للرسالة . وقيل : هي المخففة من المثقلة ، وتقديره بأنه بورك ، واسمها ضمير الشأن ، وبورك خبرها ، وجاز ذلك من غير عوض ، وإن منعه الزمخشري،أي لم يحتج هنا الى فاصل،لأن قوله بورك دعاء والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة . وقرىء أن بوركت النار .

وحكى الكسائي عن العرب باركك الله وبارك فيك وعليك ولك . وكذلك حكى هذا الفراء .قال ابن جرير : قال بورك من في النار ،ولم يقل بورك على من في النار ، على لغة من يقول : باركك الله ، أي بورك ، وقدس ، وطهر من النار ، وهو موسى ، وليس هو فيها حقيقة ؛ بل في المكان القريب

منها وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيَّ ابراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا : ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ قاله القرطبي .

وقال السدي : كان في النار ملائكة ، والنار هنا هي مجرد النور ، ولكنه ظن موسى أنها نار ، فلما وصل اليها وجدها نوراً ، وعن الحسن ، وسعيد بن جبير : أن المراد بمن في النار هو الله سبحانه أي نوره أو قدرته وسلطانه . وقيل: بورك ما في النار من أمر الله سبحانه الذي جعلها على تلك الصفة .

قال الواحدي : ومذهب المفسرين أن المراد بالنار هنا النور ، وعن ابن عباس قال: يعني تبارك وتعالى نفسه ، كان نور رب العالمين في الشجرة ومن حولها يعني الملائكة ؛ وعنه قال : كان الله في النور ، نودي من النور ومن حولها . قال الملائكة ، وعنه قال : ناداه الله وهو في النور وعنه قرىء بوركت النار ، وفي مصحف أُبي بن كعب . بوركت النار أما النار فيزعمون أنها نور رب العالمين .

وعن ابن عباس ، بورك قال : قدس ، وقيل : المراد ـ (من) غير العقلاء وهو النور والأمكنة التي حولها . واخرج عبد بن حميد ، وابن ماجة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره . ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين﴾ والحديث أصله مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة .

وفي التوراة : جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعير واستعلى من جبال فاران . والمراد بعثة موسى من سيناء ، وبعثة عيسى من ساعير ، وبعثة

محمد ﷺ من فاران ، وهو اسم مكة ، ثم نزه سبحانه نفسه من السوء فقال :

﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ فيه تعجيب لموسى من ذلك هو من جملة ما نودي به ، وإنما وقع التعرض للتنزيه في هذا المقام لدفع ما رُبَّ أن يتوهمه موسى بحسب الطبع البشري ، الجاري على العادة الخلقية أن الكلام الذي يسمعه في ذلك المكان بحرف وصوت حادث ، ككلام الخلق ، أو المتكلم به في مكان أو جهة قاله الحفناوي .

﴿ياموسى إنه﴾ أي الشان ﴿أنا الله العزيز﴾ الغالب القاهر ﴿الحكيم﴾ في أمري وفعلي ،وقيل : إن موسى قال : يارب من الذي ناداني ؟ فأجابه سبحانه بقوله : إنه أنا الله ، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يده من المعجزات فأمره سبحانه بأن يلقي عصاه ليعرف ما أجراه على يده من المعجزات الخارقة ، فيأنس بها فقال :

﴿وألق﴾ عطف على بورك منتظم معه في سالك تفسير النداء أي نودي أن بورك وأن ألق ﴿عصاك فلما رآها تهتز﴾ جملة حالية من هاء (رآها) لأن الرؤية بصرية وقوله ﴿كأنها جان﴾ يجوز ان تكون حالاً ثانية وأن تكون حالاً من ضمير (تهتز) فتكون حالاً متداخلة ، قاله السمين .

قال الزجاج : صارت العصا تتحرك كما يتحرك الجان وهو الحية البيضاء ، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها وإلا فجثتها كانت كبيرة جداً : وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها ، وجمع الجان جنان ، وهي الحية الخفيفة الصغيرةالجسم ،وقال الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة . والفاء فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ، ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كأنه قيل : فألقاها فانقلبت حية تسعى ، فأبصرها .

فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب ﴿ولى مدبراً﴾ من الخوف ﴿ولم يعقب﴾ أي لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر ، يقال : عقب فلان إذا رجع وكل راجع معقب ، وقيل : لم يقف ولم يلتفت ولم

يعطف ، ولم ينظر ، والأول أولى . لأن التعقيب هو الكر بعد الفر ، وإنما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به كما ينبىء عنه قوله :

﴿ياموسى لا تخف﴾ من غيري أي : من الحية وضررها ثقة بي أو لا تخف مطلقاً .

﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي : لا يخاف عندي من أرسلته برسالتي ، من حية وغيرها ، فلا تخف ، أنت عندي . قيل : ونفي الخوف عن المرسلين ليس في جميع الأوقات ، بل في وقت الخطاب لهم ، والإيحاء والإرسال ؛ لأنهم إذ ذاك مستغرقون في مطالعة شؤون الله عز وجل ، لا يخطر ببالهم خوف من شيء وأما في غير هذه الحالة فالمرسلون أخوف الناس منه تعالى . أو المعنى لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه ، ثم استثنى استثناء منقطعاً فقال :

﴿إلا من ظلم﴾ أي لكن من أذنب في ظلم نفسه بالمعصية ﴿ثم بدل حسناً﴾ أي :توبة وندماً أتاه ﴿بعد سوء﴾ أي بعد عمل سوء ﴿فإني غفور رحيم﴾ أقبل التوبة وأغفر له ؛ وقيل:الاستثناء من مقدر ، أي لا يخاف لدي المرسلون ، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم « إلا من ظلم الخ » ، كذا قال الفراء . وقال النحاس : الاستثناء من محذوف محال ، لأنه استثناء من شيء لم يذكر . وعن الفراء أن (إلا) بمعنى الواو .

وقيل:إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف ،والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد ،واختار هذا النحاس ، وقال:علم من عصاه منهم فاستثناه فقال إلا من ظلم ، وان كنت قد غفرت له كآدم ، وداود . وإخوة يوسف ، وموسى لقتله القبطي . ولا مانع من الخوف بعد المغفرة فإن نبينا ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يقول: وددت أني شجرة تعضد .

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥)﴾

﴿وادخل يدك في جيبك﴾ المراد بالجيب هو المعروف ، أي طوق القميص سمي جيباً لأنه يجاب ، أي : يقطع ليدخل فيه الرأس . وفي القصص ﴿أسلك يدك في جيبك﴾ وفي (أدخل) من المبالغة ما لم يكن في (أسلك) ولم يأمره بإدخالها في كمه لأنه كان عليه مدرعة صغيرة من صوف لا كم لها .وقيل : كان لها كم قصير ، عن ابن عباس قال : كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه ، فقال له ادخل يدك في جيبك فأدخلها .

﴿تخرج﴾ خلاف لونها من الأدمة ﴿بيضاء من غير سوء﴾ أي من غير برص أو نحوه من الآفات فهو احتراس .وقيل : في الكلام حذف تقديره : أدخل يدك تدخل ، وأخرجها تخرج ، ولا حاجة الى هذا الحذف ، ولا ملجىء اليه .قال المفسرون : وكانت على موسى مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزرار، فأدخل يده في جيبه وأخرجها ، فإذا هي تبرق كالبرق لها شعاع يغشي البصر .

﴿في تسع آيات﴾ قال أبو البقاء :هو في محل نصب على الحال من فاعل (تخرج) وفيه بعد . وقيل : متعلق بمحذوف أي :اذهب في تسع آيات وقيل : متعلق بقوله : ألق عصاك وأدخل يدك ، في جملة تسع آيات : وقيل : المعنى فيهما آيتان من تسع ، يعني العصا واليد فتكون الآيات إحدى عشرة ، هاتان والفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمس ،

والجدب في بواديهم ، والنقصان في مزارعهم ،قال النحاس :أحسن ماقيل فيه : إن هذه الآية يعني اليد داخلة في تسع آيات ، وكذا قال المهدوي والقشيري .

قال الزجاج والقشيري : تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم أي : خرجت عاشر عشرة فـ (في) بمعنى من ، لقربها منها كما تقول : خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان ، أي منها . وقيل : في بمعنى مع واليد والعصا خارجتان من التسع ، وكذا فعل ابن عطية .

﴿إلى فرعون وقومه﴾ قال الفراء : في الكلام إضمار ، أي : إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه ، وكذا قال الزجاج .

﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ تعليل لما قبله من المقدر ، أي خارجين عن الحدود في الكفر والعدوان .

﴿فلما جاءتهم آياتنا﴾ التي كانت على يد موسى حال كونها ﴿مبصرة﴾ أي مضيئة واضحة اسم فاعل أطلق على المفعول نحو ماء دافق ، أي مدفوق إشعارًا بأنها لفرط إنارتها ووضوحها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر .كقوله : ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ وقرىء مبصرة بفتح الميم والصاد ، أي مكاناً يكثر فيه التبصر ،كمايقال :الولد مجبنة ومبخلة ، والأول أولى . ونسب الإبصار اليها مجازاً لأن بها يبصر . والمعنى إضاءة معنوية في كلها أو حسية أيضاً في بعضها وهو اليد .

فلما جاءتهم آياتنا ﴿قالوا هذا﴾ الذي نشاهده من الخوارق التي أتى بها موسى ﴿سحر مبين﴾ واضح ظاهر سحريته .

﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ أي قد كذبوا بها ولم يقروا حال كـون أنفسهم مستيقنة لها أنها من عند الله فالواو للحال ، يقال : جحد حقه وبحقه بمعنى ، والاستيقان أبلغ من الإيقان .

﴿ظلماً﴾ أي للآيات كقوله تعالى: بما كانوا بآياتنا يظلمون ، ولقد ظلموا

بها أي ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية ، وسموها سحراً .

﴿وعلواً﴾ استكباراً عن الإيمان بها كقوله تعالى: والذين كذبوا بآيـاتنا واستكبروا عنها ؛ وانتصابهما إما على العلة أي الحامل لهم على ذلك الظلم والعلو ، أو على الحالية من فاعل جحدوا،أي جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف ، أي جحـدوا بها جحـودًا ظلمًا وعلوًا .

قال أبو عبيدة : والباء في ﴿وجحدوا بها﴾ زائـدة .وقال الزجـاج : التقدير وجحدوا بها ظلمًا وعلوًا أي وتكبروا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ، وهم يعلمون أنها من عند الله .

﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي تفكر يامحمد في ذلك فإن فيه معتبراً للمعتبرين ، وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم هنا في البحر ، على تلك الصفة الهائلة ، والإحراق ثمة ، وإنما لم يذكر تنبيهاً على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر . ولما فرغ سبحانه من قصة موسى ، شرع في قصة داود وابنه سليمان ، وهذه القصة وما قبلها وما بعدها ، هي كالبيان والتقرير لقوله : ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ فقال :

﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا ﴿داود وسليمان﴾ ابنه ﴿علماً﴾ التنوين إما للنوع أي طائفة من العلم ، أو للتعظيم ، أي علماً كثيراً ، قيل : المراد علم الدين والحكم ،وقيل : علم القضاء والسياسة ، وقيل :علم داود تسبيح الطير ، وعلم سليمان منطق الطير والدواب .

وكان لداود تسعة عشر ولداً ، سليمان واحد منهم ، وعاش داود مائة سنة وبينه وبين موسى[1] خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، وعاش سليمان

(١) ليس في القرآن ولا في السنة دليل على هذا التحديد التاريخي وبالرجوع إلى التواريخ الإسرائيلية لوحظ أنه ينقصه التحقيق ؛ فهو لا يتفق مع أي حساب . المطيعي .

نيفاً وخمسين سنة ، وبينه وبين محمد ﷺ ألف سنة وسبعمائة سنة ذكره في التحبير .

﴿وقالا﴾ أي كل منهما والواو للعطف على محذوف لأن هذا المقام مقام الفاء ، فالتقدير ولقد آتيناهما علماً فعملا به ، وقالا شكراً لله .

﴿الحمد لله﴾ ويؤيده أن الشكر باللسان وإنما يحسن إذا كان مسبوقاً بعمل القلب ، وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية ﴿الذي فضلنا﴾ بالعلم والنبوة وتسخير الطير والجن والإنس والشياطين ﴿على كثير﴾ ممن لم يؤت علماً أو مثل علمنا ، وهذه المقالة على سبيل التحدث والشكر ﴿من عباده المؤمنين﴾ ولم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعاً منهم .

وظاهر النظم أن التسخير كان لكل من داود وسليمان ،ومثله في الخازن ـ ، والخطيب وفي الآية دليل على شرف العلم ، وارتفاع محله ، وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده ، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد ؛ ومنح شرفاً جليلاً ، وما سماهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبيـاء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة،لأنهم القوام بما بعثوا من أجله ، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه، وأن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم .

وما أحسن قول عمر رضي الله عنه : كل الناس أفقه من عمر .

وعن عمر بن عبدالعزيز أنه كتب : إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ، فقد قال الله عز وجل :﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً الى قوله : عباده المؤمنين﴾ وأي نعمة أفضل مما أعطي داود وسليمان ؟

أقول : ليس في الآية ما يدل على ما فهمه رحمه الله ، والذي تدل عليه أنهما حمدا الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم فمن أين تدل على أن حمده أفضل من نعمته .

وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

﴿وورث سليمان داود﴾ أي ورثه العلم والنبوة أو الكتب ، دون باقي أولاده ، قال قتادة والكلبي :كان لداود تسعة عشر ولداً ذكرا ، فورث سليمان من بينهم نبوة ، ولو كان المراد وراثة المال لم يخص سليمان بالذكر ، لأن جميع أولاده في ذلك سواء ، وكذا قال جمهور المفسرين .

فهذه الوراثة هي وراثة مجازية ، كما في قوله ﷺ :العلماء ورثة الأنبياء ، قال قتادة :في الآية ورث نبوته وملكه وعلمه ؛ وأعطى ما أعطي داود وزيد له تسخير الريح ، والجن والشياطين ، وكان أعظم ملكاً منه ، وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبداً من سليمان ، شاكراً لنعم الله تعالى .

﴿وقال﴾ سليمان لبني اسرائيل تحدثا بما أنعم الله به عليه ، وشكر النعمة التي خصه بها ﴿يا أيها الناس علمنا﴾ الضمير فيه وفي أوتينا لكل من داود وسليمان ، قال القرطبي : تفضل الله علينا زيادة على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة ، والخلافة في الأرض أن فهمنا ﴿منطق الطير﴾ أي فهم ما يريده كل طائر إذا صوت ، والمعاني التي في نفوسها ، سمى صوت الطير منطقاً لحصول الفهم منه ، كما يفهم من كلام الناس . وقدم منطق الطير لأنها نعمة خاصة به ، لا يشاركه فيها غيره . قال الفراء : منطق الطير كلام الطير ، فجعل كمنطق الرجل . ومعنى الآية فهمنا ما يقول الطير .

ومقتضى هذا أن كُلًّا منهما كان يعلم أصوات الطير ؛ وما تريده . قال الخطيب : علمنا أي أنا وأبي بأيسر أمر وأسهله . وفي البيضاوي النطق والمنطق في التعارف : كل لفظ يعبر به عما في الضمير ؛ مفرداً كان أو مركباً مفيدًا كان أو غير مفيد . وقد يطلق على كل ما يصوت به على التشبيه أو التبع كقولهم : نطقت الحمامة ، ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد ، فإن الأصوات الحيوانية من حيث إنها تابعة للتخيلات نزلت منزلة العبارات ، سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض ، بحيث يفهمها ما هو من جنسه .

ولعل سليمان مهما سمع صوت حيوان علم بقوته القدسية الغرض الذي صوت لأجله ، والغرض الذي توخاه به انتهى . قال جماعة من المفسرين : إنه علم منطق جميع الحيوانات،وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جنوده ، يسير معه لتظليله من الشمس ، فخص بالذكر لكثرة مداخله . وقال قتادة والشعبي : إنما علم منطق الطير خاصة ، ولا يعترض ذلك بالنملة فإنها من جملة الطير ، وكثيراً ما تخرج لها أجنحة فتطير ، وكذلك كانت هذه النملة التي سمع سليمان كلامها وفهمه .

أخرج أحمد في الزهد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن أبي الصديق[1] الناجي قال : خرج سليمان بن داود يستسقي بالناس ، فمر على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها الى السماء ، وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك ، فإما أن تسقينا ، وإما ان تهلكنا ، فقال سليمان : للناس ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وقد ذكر الخازن والنسفي في تفسيريهما منطق بعض الطيور ، وما تقوله القمري وغيرها ، وكذا القرطبي بلا إسناد صحيح متصل يعتمد عليه ، ويصار

---

(١) أبو الصديق الناجي واسمه بكر بن عمرو ، وقال ابن سعد في الطبقات يتكلمون في أحاديثه يستنكرونها وقال غيره : ثقة تابعي ، قال الذهبي يحتج به في الصحاح والكلام هنا عن قصة دعاء النملة موقوف عليه . المطيعي .

اليه فتركنا ذكره ههنا فإنه لا يأتي بكثير فائدة للمنقحين .

﴿وأوتينا من كل شيء﴾ تدعو اليه الحاجة ، كالعلم والنبوة والحكمة والمال وتسخير الجن ، والإنس ، والطير ، والرياح ، والوحش ، والدواب ، وكل ما بين السماء والأرض . وجاء سليمان بنون العظمة ، والمراد نفسه بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا يخالف ، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه ، عن جعفر[1] بن محمد قال : أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر ، ملك أهل الدنيا كلهم ، وأعطي كل شيء .

وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة ، حتى اذا أراد الله أن يقبضه أوحى اليه أن يستودع علم الله وحكمته أخاه ؛ وولد داود كانوا اربعمائة وثمانين رجلاً ، أنبياء بلا رسالة . قال الذهبي : هذا باطل وقد رويت قصص في عظم ملك سليمان عن القرظي وغيره لا تطيب النفس بذكر شيء منها ، فالامساك عن ذكرها أولى .

﴿إن هذا﴾ أي ما تقدم ذكره من التعليم والإيتاء ﴿لهو الفضل المبين﴾ أي الظاهر الواضح ، الذي لا يخفى على أحد . أو المظهر لفضيلتنا وإنما قال ذلك شكراً لا فخراً .

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير﴾ من الأماكن المختلفة في مسير له ، والحشر : الجمع ، أي : جمع له جنوده من هذه الأجناس . وقد أطال المفسرون في ذكر مقدار جنده ؛ وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول ، ولا تصح من جهة النقل ، ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك واكثر .

﴿فهم يوزعون﴾ أي : لكل طائفة منهم وزعة ترد أولهم على آخرهم

---

(١) يعتبر الشيعة الإمامية والشيعة **الإثنا** عشرية وطائفة الاسماعيلية جعفر بن محمد أحد الأئمة المعصومين ويعدون قوله بمنزلة التنزيل ، ورحم الله جعفراً الصادق وأباه محمداً الباقر ، وأجدادهما الطاهرين لو رأيا كيف اتخذهما بعض الناس أرباباً لالتمسا في يديهما السيوف . المطيعي .

فيقفون على مراتبهم . قيل : كـان في جنوده وزراء وهم النقباء ، ترد أول العسكر على آخره ، لئلا يتقدموا في السير . يقال : وزعه يزعه وزعاً : كفه ، فاتزع أي : انكف وأوزعه بالشيء أغراه به ؛ واستوزعت الله شكره فأوزعني ، اي استلهمته فألهمني ، والوازع في الحرب الموكل بالصفوف ، يزع من تقدم منهم أي يرده ، وجمعه وزعة : وقيل : هو من التوزيع بمعنى التفريق ، يقال : القوم أوزاع ، أي طوائف .

وقال ابن عباس : يوزعون يدفعون . وعنه قال : لكل صف وزعة ، ترد أولاها على أخرها ، لئلا تتقدمها في السير كما يصنع الملوك وفي الآية دليل على اتخاذ الأئمة والحكام وزعة ، يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض ، اذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم . قال الحسن : لا بد للناس من وازع أي سلطان يكفهم .

﴿حتى إذا أتوا﴾ حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام ؛ وتكون غاية لما قبلها والمعنى فهم يوزعون الى حضور هذه الغاية ، وهي إتيانهم ﴿على وادي النمل﴾ أي : فهم يسيرون ممنوعاً بعضهم من مفارقة بعض ، حتى اذا أتوا على مكان فيه نمل كثير ، وعدّى بـ (على) لأنهم كانوا محمولين على الريح ، فهم مستعلون والمعنى أنهم قطعوا الوادي وبلغوا آخره ، قال كعب : وادي النمل بالطائف .

وقال قتادة ومقاتل : هو بالشام ، والنمل حيوان معروف شديد الإحساس والشم ، حتى إنه يشم للشيء من بعيد ، ويدخر قوته ، ومن شدة إدراكه أنه يفلق الحبة فلقتين خوفاً من الإنبات ويفلق حبة الكسبرة أربع فلق ، لأنها اذا فلقت فلقتين نبتت ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي باقيه عدة .

ووقف القراء جميعهم على (واد) بدون ياء اتباعاً للرسم ، حيث لم يحذف لالتقاء الساكنين ، كقوله : الذين جابوا الصخر بالواد ، إلا الكسائي ، فإنه وقف بالياء ، قال : لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل .

﴿قالت نملة﴾[1] ملكة النمل،على وجه النصيحة قولاً مشتملاً على حروف وأصوات ،وكانت عرجاء ذات جناحين ، وهي من الحيوانات التي تدخل الجنة ، قاله سليمان الجمل . قيل : وكانت أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند اليها ، وبه قال أبو حنيفة ، ورد هذا أبو حيان فقال : لحاق التاء في (قالت) لا يدل على أن النملة مؤنثة ، بل يصح أن يقال في المذكر قالت ، لأن نملة وإن كانت بالتاء فإنها مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث ، بتذكير الفعل ولا بتأنيثه ، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى ، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة ، ولا بالتعرض لاسم النملة ، ولا بذكر القصص الموضوعة والأحاديث المكذوبة .

وقرىء النمل والنملة بزنة رجل وسمرة ، وقرىء بضمتين فيهما ، ثم قيل : نمل هذا الوادي صغار ، وهو النمل المعروف ، أو كبار كالبخاتي أو كالذئاب ، والأول هو المشهور والجملة جواب (اذا﴾ كأنها لما رأتهم متوجهين الى الوادي فرت ونبهت سائر النمل منادية لها قائلة :

﴿يا أيها النمل﴾ وقد اشتمل هذا القول منها على أحد عشر نوعاً من البلاغة :

أولها : النداء بـ (يا) .

وثانيها : أنها كنت بأي .

وثالثها : نبهت بها التنبيه .

ورابعها : سمعت بقولها النمل .

وخامسها : أمرت بقولها :.﴿ادخلوا﴾ .

وسادسها : نصت بقولها ﴿مساكنكم﴾ جعل خطاب النمل كخطاب

---

(١) لا نملك إلا أن نقول كما قال المصنف عن مثل هذا الكلام الذي هو « بلا إسناد صحيح متصل يعتمد عليه ويصار إليه » وسيأتي للمصنف مزيد . المطيعي .

العقلاء ، لفهمها لذلك الخطاب . والمساكن هي الأمكنة التي تسكن النمل فيها وقرأ أُبيّ : أدخلن مساكنكن : وقرىء : مسكنكم .

وسابعها : حذرت بقولها ﴿لا يحطمنكم﴾ أي : لا يكسرنكم ، والحطم الكسر . يقال : حطمته حطماً أي كسرته كسراً فانحطم ، وتحطم تكسر ، والتحطيم التكسير ، والحطام ما تكسر من اليبس ، وهذا النهي هو في الظاهر للنمل ، وفي الحقيقة لسليمان ، فهو من باب لا أرينك ههنا ، أو بدل من الأمر ، أو جواب للأمر ، وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد لأنه من ضرورات الشعر .

وقرىء :لا يحطمنكم بضم الياء وفتح الحاء وتشديد الطاء .

وثامنها : خصت بقولها : ﴿سليمان﴾ .

وتاسعها : عمت بقولها ﴿وجنوده﴾ وأرادت جنود سليمان فجاءت بما هو أبلغ .

وعاشرها : أشارت بقولها ﴿وهم﴾ .

وحادي عشرها: عذرت بقولها :

﴿لا يشعرون﴾ أي بحطمكم ، ولا يعلمون بمكانكم . أي لو شعروا لم يفعلوا، قالت ذلك على وجه العذر ، واصفة لهم بالعدل ، كأنها عرفت أن النبي معصوم ، وجنده محفوظ ، فلا يقع منهم حطم هذه الحيوانات ، إلا على سبيل السهو، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء وحفظ أصحابهم، وفيه أن الرافضة الذين ينسبون الظلم وحطم الحقوق الى أصحاب رسول الله ﷺ في أهل بيته وعترته،هم أقل وأضعف رأياً من تلك النملة فإنها اعتقدت في جنود سليمان العدل، وهؤلاء اعتقدوا بأصحابه ﷺ الظلم وشتان بينهما ، وقيل : إن المعنى والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها وهو بعيد جداً .

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿فتبسم﴾ سليمان ابتداء ﴿ضاحكًا﴾ انتهاء ﴿من قولها﴾ وقرىء : ضحكًا ، وعلى الأول حال مؤكدة ، لأنه قد فهم الضحك من التبسم ، وقيل : حال مقدرة ، لأن التبسم أول الضحك ، وقيل : لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبينًا له ، وقيل : إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير ، وعلى الثاني : مصدر منصوب بفعل محذوف .

وكل من التبسم والضحك والقهقهة انفتاح في الفم ،لكن الأول انفتاح بلا صوت أصلاً ، والثاني مع صوت خفيف ،والثالث مع صوت قوي ، وكان ضحك سليمان تعجبًا من قولها وفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل ،أو فرحًا لظهور عدله .

﴿وقال : رب أوزعني﴾ قد تقدم بيان معناه قريباً في قوله : فهم يوزعون ، قال في الكشاف : وحقيقة أوزعني اجعلني أزع شكر نعمتك عندي ، وأكفه وارتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكراً لك ، انتهى . قال الواحدي : أوزعني أي : ألهمني، وبه قال قتادة ، وعن الحسن مثله ، يقال : فلان موزع بكذا ، أي : مولع به .قال القرطبي : وأصله من وزع فكأنه قال : كفني عما يسخطك ،انتهى . وقال الزجاج : معناه امنعني أن أكفر نعمتك ، وهو تفسير باللازم .

﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت﴾ بها ﴿علي﴾ مفعول ثان لأوزعني ،أي : من النبوة والملك والعلم .

﴿وعلى والدي﴾ الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه ، كما أوزعه شكر نعمته عليه ، لأن الإنعام عليهما إنعام عليه ، وذلك يستوجب

الشكر منه لله سبحانه . قال أهل الكتاب : وأمه هي زوجة أوريا بوزن قوتلا ، التي امتحن الله بها داود ، قاله القرطبي ، والله أعلم بصحته ، ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه الى سوابقها ، ولا سيما النعم الدينية فقال :

﴿وأن أعمل صالحاً﴾ في بقية عمري ﴿ترضاه﴾ مني ، ثم دعا أن يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلاً في زمرة الصالحين ، فإن ذلك هو الغاية التي يتعلق بها الطلب فقال : ﴿وأدخلني﴾ الجنة ﴿برحمتك في عبادك الصالحين﴾ من النبيين او صلحاء العباد ، والمعنى أدخلني في جملتهم ، واثبت اسمي في أسمائهم واحشرني في زمرتهم الى دار الصالحين وهي الجنة ،أوفي بمعنى مع ، والصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله ، ولا يفعل معصية ، ولا يهم بها ، وهذه درجة عالية .

اللهم وإني أدعوك بما دعاك به هذا النبي الكريم . فتقبل ذلك مني وتفضل علي به ، فإني وان كنت مقصراً في العمل ، ففضلك الواسع هو سبب الفوز بالخير ، ورحمتك أرجى عندي من عملي ، فهذه الآية منادية بأعلى صوت، وأوضح بيان بأن دخول الجنة التي هي دار المتقين بالتفضل منك لا بالعمل منهم ، كما قال رسولك الصادق المصدوق ، فيما ثبت عنه في الصحيح : « سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل الجنة أحد بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » فاذا لم يكن إلا بفضلك الواسع فترك طلبه منك عجز ، والتفريط في التوسل اليك بالإيصال اليه تضييع .

ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بلقيس وما جرى بينها وبين سليمان وذلك بدلالة الهدهد فقال :

﴿وتفقد الطير﴾ التفقد تطلب ما غاب عنك ، وتعرف أحواله . والطير اسم جنس لكل ما يطير ، والمعنى أنه تطلب ما فقد من الطير ، وتعرف حال ما غاب منها ، وكانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها .

﴿فقال : ما لي﴾ وقرىء بسكون الياء ﴿لا أرى الهدهد ؟﴾ أي ما للهدهد لا أراه ؟ فهذا من الكلام المقلوب الذي تستعمله العرب كثيراً . وقيل : لا حاجة الى ادعاء القلب ، إذ المعنى صحيح بدونه ، بل هو استفهام واستخبار عن المانع له من رؤية الهدهد ، كأنه قال : ما لي لا أراه هل ذلك لساتر يستره عنه ؟ أو لشيء آخر؟

قال الكلبي : ولم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد ، والهدهد معروف .

ثم ظهر له أنه غائب فقال : ﴿أم كان من الغائبين ؟﴾ فلم أره لغيبته ، و (أم) هي المنقطعة التي بمعنى الإضراب ، عن ابن عباس أنه سئل : كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ فقال : إن سليمان نزل منزلاً فلم يدر ما بعد الماء ، وكان الهدهد يدل سليمان على الماء ، فأراد أن يسأله عنه ففقده، قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس رضي الله عنه هذا قيل له : كيف ذلك : والهدهد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب ويضع له الصبي الحباله فيغيبها فيصيده فقال : إذا جاء القضاء ، ونزل القدر ، ذهب اللب ، وعمي البصر ، فلما تحقق الغيبة قال :

﴿لأعذبنه عذاباً شديداً﴾ اختلفوا في هذا العذاب الشديد ما هو؟ فقال ابن عباس ومجاهد وابن جريج : هو أن ينتف ريشه جميعاً وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين ؛ وقال يزيد ابن رومان : هو أن ينتف ريش جناحيه وقيل : يحبسه مع أضداده ، وقيل : أن يمنعه من خدمته وقيل : إلقاءه في الشمس وقيل : التفريق بينه وبين إلفه . وقيل : إلزامه خدمة أقرانه . وقيل : إيداعه في القفص . وقيل : طرحه بين يدي النمل ليأكله ، وفي هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب ، لا على قدر الجسد . وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة ، كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع ، وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة .

وعن الحسن قال : كان اسم هدهد سليمان غبر ، قال الشوكاني : لا

أدري من أين جاء هذا للحسن رحمه الله ، وهكذا ما روي عنه أن اسم النملة حرس ، وأنها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذئب ، وهو رحمه الله أورع الناس عن نقل الكذب ؛ ونحن نعلم أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء . ونعلم انه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان ، أو بأحد من أصحابه فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب .

وقد أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم . فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روي : حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، فليس ذلك مما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك ، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم . وقد كررنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة .

﴿أو لأذبحنه﴾ بقطع حلقومه ﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ هو الحجة البينة في غيبته . قال ابن عباس : السلطان المبين خبر الحق الصدق البين . وعنه قال : كل سلطان في القرآن حجة ، وذكر هذه الآية ثم قال : وأي سلطان كان للهدهد ؟ يعني أن المراد بالسلطان الحجة ، لا السلطان الذي هو الملك ، والحلف في الحقيقة على أحد الأولين بتقدير عدم الثالث ، فكلمة (أو) بين الأولين للتخيير ، وفي الثالث للترديد بينه وبينهما .

قال الزمخشري : فإن قلت : قد حلف على أحد ثلاثة أشياء فحلفه على فعله لا كلام فيه ، ولكن كيف يصح حلفه على فعل الهدهد ؟ ومن أين درى أنه يأتي بسلطان ؟

قلت : لما نظم الثلاثة بأو في الحكم الذي هو الحلف ، آل كلامه الى قولك : ليكونن أحد الأمور ، يعني إن كان الإتيان بسلطان ، لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وان لم يكن ، كان أحدهما ، وليس في هذا ادعاء دراية انتهى . و (أو) الثانية ترجع في المعنى الى أنها بمعنى إلا وهي قيد في كل من الأمرين قبلها ، فكأنه قال : لأعذبنه إلا أن يأتيني أو لأذبحنه إلا أن يأتيني بسلطان مبين .

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فمكث﴾ بفتح الكاف من باب نصر ، وقرىء بضم الكاف من باب قرب قال سيبويه: مكث يمكث مكوثاً كقعد يقعد قعوداً ، أي مكث الهدهد بعد تفقد سليمان إياه زماناً ﴿غير بعيد﴾ وقيل : إن الضمير في مكث لسليمان ، والمعنى بقي سليمان بعد التفقد والتوعد زماناً غير طويل ، والأول أولى .

﴿فقال : أحطت بما لم تحط به﴾ الإحاطة :العلم بالشيء من جميع جهاته، حتى لا يخفى عليه معلوم ، ولعل في الكلام حذفاً ، والتقدير فمكث الهدهد غير بعيد ، فجاء فعوتب على مغيبه ، فقال معتذراً عن ذلك :أحطت بما لم تحط به . قال الفراء : ويقال: أحت بإدغام الطاء في التاء ، والمعنى علمت ما لم تعلمه من الأمر ، وبلغت ما لم تبلغ أنت ولا جنودك . وقال ابن عباس: اطلعت على ما لم تطلع عليه .

وقد ألهم الله الهدهد هذا الكلام ، فكافح سليمان به مع ما أوتي من فضل النبوة ، والعلوم الجمة:إبتلاء له في علمه ، وتنبيهاً على أن أدنى جنده قد أحاط علماً بما لم يحط به ليكون لطفاً به في ترك الإعجاب وإنما أخفى الله على سليمان مكانها ، وكانت المسافة بينهما قريبة لمصلحة رآها ،كما أخفى مكان يوسف على يعقوب . وفيه دليل على بطلان قول الرافضة : إن الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه .

﴿وجئتك من سبأ﴾ قرىء بالصرف على أنه اسم رجل نسب اليه قوم ، وقرىء بفتح الهمزة وترك الصرف على أنه اسم مدينة ، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل ، وقال : سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن . وقيل : هو اسم امرأة سميت بها المدينة .

قال القرطبي : والصحيح أنه اسم رجل كما في كتاب الترمذي ، من حديث فروة بن مسيك المرادي ، قال ابن عطية : وخفي هذا على الزجاج فخبط خبط عشواء .

وزعم الفراء أن الرؤاسي سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال : ما أدري ما هو؟ قال النحاس : وأبو عمر أجل من أن يقول هذا ، قال : والقول في سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل ، فان صرفته فلأنه قد صار اسماً للحي ، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة ، مثل ثمود ، إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف ، انتهى .

وأقول : لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن ، كانت فيها بلقيس ، وهو أيضا اسم رجل من قحطان ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود،ولكنه المراد هنا: ان الهدهد جاء الى سليمان بخبر ما عاينه في مدينة سبأ ، مما وصفه ، وسيأتي في المأثور ما يوضح هذا ويؤيده ،وعن ابن عباس قال :سبأ بأرض اليمن ، يقال لها : مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال والمعنى أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة .

﴿بنبإ يقين﴾ النبأ :هو الخبر الخطير الشأن ؛وهذا من محاسن الكلام ، ويسمى البديع ، وقد حسن وبدع لفظاً ومعنى ههنا ، ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحاً ، وهو كما جاء أصح لما في النبإ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال ، فلما قال الهدهد لسليمان ما قال ، قال له سليمان : وما ذاك ؟ فقال :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ وهي بلقيس بنت شراحيل ، روي ذلك عن الحسن وقتادة وزهير بن محمد ، وعن ابن جريج أنها بنت ذي شرح ، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ ، وكان أبوها ملك أرض اليمن ، ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت على الملك ، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس . والضمير في تملكهم راجع الى سبأ ، على تأويل القوم ، وأهل المدينة ، والجملة هذه كالبيان والتفسير للجملة التي قبلها ، أي : ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء .

قال ابن عباس : اسمها بلقيس بنت ذي شيرة ، وكانت هلباء شعراء ، قيل : كانت من نسل يعرب بن قحطان ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إحدى[1] أبوي بلقيس كان جنياً » ، أخرجه ابن عساكر ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ وابن جرير .

﴿وأوتيت من كل شيء﴾ فيه مبالغة ، والمراد أنها أوتيت من كل شيء من الأشياء التي تحتاجها الملوك ، من الآلة والعدة ، وكان يخدمها النساء ، وهذا عام أريد به الخصوص ، وقيل : المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً من أسباب الدنيا ، والمال والعدة ما يليق بحالها ، فحذف شيئاً لأن الكلام قد دل عليه .

﴿ولها عرش عظيم﴾ أي : سرير كبير ضخم ، وقيل : المراد بالعرش هنا

(١) لم يصح له إسناد، ثم إنه من حيث المعنى لا يقبل بالضرورة ـ إلا في معارض الفروض الفقهية الوهمية ـ أن يكون إنساناً مهجناً بجن أو جنا مهجنا بإنسان وليس هناك ما يثبت هذا إلا ما حكي من أن بني السعلات من العرب أمهم جنية ولم يرد من طريق معتبر إلا ما روي من سبق الشيطان لمن لم يسم عند الوقاع وهذا من قبيل جريان الشيطان من ابن آدم مجرى الدم وليس من قبيل التذري والتناسل . المطيعي .

الملك ، والأول أولى لقول سليمان : أيكم يأتيني بعرشها ؟ ووصفه بالعظم بالنسبة اليها والى أمثالها من ملوك الدنيا ، لأنه كما قيل : كان مضروباً من الذهب والفضة ، طوله ثمانون ذراعاً ، وعرضه أربعون ذراعاً ، وارتفاعه في السماء ثلاثون ذراعاً ، مكللا بالدر والياقوت الأحمر ، والزبرجد الأخضر والزمرد .

وأما وصف عرش الله بالعظيم ، فهو بالنسبة الى جميع المخلوقات من السموات والأرض وما بينهما ، فبينهما بون عظيم ، وفرق بين . قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن ، ذات ملك عظيم ، وسرير كبير ، وكانت كافرة من قوم كفار ، وعن ابن عباس قال: سرير كبير من ذهب ، وقوائمه من جوهر ولؤلؤ ، حسن الصنعة غالي الثمن . عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق .

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه، قيل: كانوا مجوساً ، وقيل : زنادقة ، و (وجدت) بمعنى لقيت وأصبت ؛ فتتعدى لواحد .

﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي يعملونها وهي عبادة الشمس ، وسائر أعمال الكفر ﴿فصدهم عن السبيل﴾ أي صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح ، وهو الإيمان بالله وتوحيده .

﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى ذلك ، ولا يبعد من الهدهد التهدي الى معرفة الله تعالى ، ووجوب السجود له ، وحرمة السجود للشمس إلهاماً من الله له ؛ كما ألهمه وغيره من الطيور ، وسائر الحيوان المعارف اللطيفة ، التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها .

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿ألّا يسجدون لله﴾ قال ابن الأنباري : الوقف على لا يهتدون غير تام عند من شدد (ألّا) لأن المعنى وزين لهم الشيطان أن لا يسجدوا .

وقال النحاس : هي (أن) دخلت عليها (لا) قال الأخفش :أي زين لهم أن لا يسجدوا لله بمعنى لئلا يسجدوا ، فهو على الوجهين مفعول له. وقيل : فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ،و (لا) على هذا زائدة، كقوله : ما منعك أن لا تسجد ، وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة ،لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود ، إما بالتزيين ، أو بالصد ، أو بمنع الاهتداء . وقد رجح كونه علة للصد الزجاج ، ورجح الفراء كونه علة لزين ، قال : زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا .

وقرىء ألا بالتخفيف ، وعلى هذا فهي حرف تنبيه واستفتاح ، وما بعدها حرف نداء ، ألايا اسجدوا ، واسجدوا فعل أمر ، وتقديره ألا يا هؤلاء اسجدوا ، قال الزجاج ، وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود ، دون قراءة التشديد ، ولقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن امر سبأ ، ثم الرجوع بعد ذلك الى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه . وكذا قال النحاس ، وعلى هذه تكون جملة ألا يا اسجدوا معترضة من كلام الهدهد أو من كلام سليمان ، أو من كلام الله سبحانه .

وقرأ ابن مسعود (هلا تسجدوا) بالفوقية . وقرأ أُبيّ (ألا تسجدوا) بالتاء وفيه مناسبة لما قبله ، وهي الرد على من يعبد الشمس وغيرها من دون الله .

﴿الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ يقال : خبأت الشيء أخبأه خبأ ، والخبء ما خبأت ، أي يظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما ، لأنه لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من فيهما ، عالم بجميع المعلومات ، وفي إخراج الخبء دليل على القدرة .

قال الزجاج : جاء في التفسير أن الخبء ههنا بمعنى القطر من السماء ، والنبات من الأرض وقيل: خبء الأرض كنوزها ونباتها ، وقال قتادة : الخبء السر . قال النحاس : أي ما غاب فيهما ، وقرىء الخب بفتح الباء من غير همزة ، وقرىء الخبا بالألف . قال أبو حاتم : وهذا لا يجوز في العربية ورد عليه بأن سيبويه حكى عن العرب ، أن الألف تبدل من الهمز إذا كان قبلها ساكن . وقرىء : من السموات ، قال الفراء : من وفي تتعاقبان . عن ابن عباس قال : يعلم كل خبيئة في السماء والأرض .

﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ قرىء بالتحتية في الفعلين ، وبالفوقية للخطاب ، أما الأولى فلكون الضمائر المتقدمة ضمائر غيبة ، وأما الثانية فلكون القراءة فيها الأمر بالسجود ، والخطاب لهم بذلك ، فهذا من ذلك الخطاب ،

والمعنى أن الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الانساني من الخفي بعلمه له ، كما يخرج ما خفي في السماء والأرض ، وفيه دليل على إثبات العلم ، والإعلان ذكره لتوسيع دائرة العلم للتنبيه على تساويهما بالنسبة الى علمه تعالى ، ثم بعدما وصف الرب سبحانه بما تقدم ، مما يدل على عظيم قدرته ، وجليل سلطانه ، وسعة علمه ، ووجوب توحيده ، وتخصيصه بالعبادة قال :

﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ بالجر نعتاً للعرش ، وبالرفع نعتاً للرب ، وخص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات ، كما ثبت ذلك في المرفوع الى رسول الله ﷺ .

وأما عرش بلقيس فتعظيمه بالإضافة الى عروش أبناء جنسها من الملوك ، وهذا بالنسبة الى جميع الموجودات من السماء والأرض ، وبينهما بون عظيم كما تقدم ، والى هنا كلام الهدهد ، لكنه من قوله : الذي يخرج الى هنا ليس داخلاً تحت قوله : أحطت بما لم تحط به يعني ليس مما علمه الهدهد دون سليمان ، بل سليمان يعلمه أيضاً على وجه أتم وأكمل من علم الهدهد ، وإنما ذكره الهدهد بياناً لما هو عليه معتقده ، واظهارًا لتصلبه في الدين .

فلما فرغ الهدهد من كلامه ﴿قال﴾ له سليمان : ﴿سننظر﴾ فيما أخبرتنا به من هذه القصة ، ونتعرف . والنظر والتأمل والتصفح : فيه ارشاد الى البحث عن الأخبار ، والكشف عن الحقائق ، وعدم قبول خبر المخبرين تقليدًا لهم ، واعتماداً عليهم ، إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه .

﴿أصدقت ؟﴾ فيما قلت ، والهمزة استفهامية .

﴿أم كنت من الكاذبين ؟﴾ أم هي المتصلة ، وهذا القول أبلغ من قوله أم كذبت فيه ، مع أنه أخصر وأشهر لأن المعنى من الذين اتصفوا بالكذب ، وصار خلقاً لهم ، فهو يفيد أنه كاذب لا محالة على أتم وجه ، ومن كان كذلك لا يوثق به .

وقال البيضاوي : التغيير للمبالغة ، والمحافظة على الفواصل . ثم بيَّن سليمان هذا النظر الذي وعد به فقال :

﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم﴾ أي : الى أهل سبأ .قال الزجاج : في ألقه خمسة أوجه قرىء بها ، وخص الهدهد بإرساله بالكتاب لأنـه المخبر

بالقصة ، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلاً للرسالة .

﴿ثم تول﴾ أي : تنح وانصرف ﴿عنهم﴾ وقف قريباً منهم وإنما أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسل الملوك ، والمراد التنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم ، حتى يخبر سليمان بما سمع . وقيل : معنى التولي الرجوع اليه ، والأول أولى لقوله :

﴿فأنظر ماذا يرجعون﴾ أي تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم الى بعض من القول ، وما يتراجعونه بينهم من الكلام . قال ابن عباس : كن قريباً منهم ، فانظر ما الذي يردونه من الجواب ﴿قالت﴾ بلقيس :

﴿يا أيها الملأ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : فذهب الهدهد فألقاه اليهم ، فسمعها تقول يا أيها الملأ ﴿إني ألقي إليّ كتاب كريم﴾والملأ :هم الأشراف ، سموا ملأً لأنهم يملأون العيون ، وفاعل (ألقي) محذوف ، قيل : لجهلها به إن لم تكن شاهدته : وقيل . لاحتقاره إن كانت رأته ، والكريم ، المكرم المعظم .

ووصفت الكتاب بالكريم ،لكونه من عند عظيم في نفسها ،فعظمته إجلالاً لسليمان . وقيل : لاشتماله على كلام حسن . وقيل : لكونه مصدراً بالبسملة . وقيل : لغرابة شأنه . وقيل : لكونه وصل اليها مختوماً بخاتم سليمان ، وكرامة الكتاب ختمه ، كما روى ذلك مرفوعاً[1] .

قال ابن المقفع[2] من كتب إلى أخيه لم يختمه فقد استخف به .

---

(١) نص الحديث هكذا : كرامة الكتاب ختمه . رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس،والقضاعي يربط بين هذا الحديث والآية ، والحديث يدور بين الضعف والوضع ونص على ضعفه الحافظ السيوطي في الجامع الصغير،فإذا عرفت مبلغ تساهل السيوطي في تصحيح الضعيف ورفع الموضوع إلى مرتبة الضعيف استطعت الحكم والله أعلم . المطيعي .

(٢) ابن المقفع في الأدب الكبير . المطيعي .

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب فقالت :﴿انه من﴾ عبد الله ﴿سليمان﴾ ابن داود الى بلقيس ملكة سبأ .

﴿وانه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أي : وإن ما اشتمل عليه الكتاب من الكلام ،وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية ، وفيه إشارة الى سبب وصفها إياه بالكرم . قال ابن عباس : انطلق بالكتاب حتى اذا توسط عرشها ألقى الكتاب اليها فقرىء عليها فاذا فيه . إنه من سليمان الخ . واخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ،عن النبي ﷺ كان يكتب « باسمك اللهم » حتى نزلت هذه الآية فكان يكتب البسملة وبعدها السلام على من اتبع الهدى .

﴿أن لا تعلوا﴾ أي : أما بعد فلا تتكبروا ﴿عليّ﴾ كما تفعله جبابرة الملوك، و (أن) هي المفسرة ، وقيل : مصدرية و (لا) ناهية ،وقيل نافية ،ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب او خبر مبتدأ محذوف: أي هو أن لا تعلوا وقرىء: لا تغلوا بالغين من الغلو وهو تجاوز الحد في الكبر .

﴿وائتوني مسلمين﴾ أي :طائعين منقادين للدين مؤمنين بما جئت به ، قيل : لم يزد سليمان على ما نص الله في كتابه وكذلك الأنبياء كانوا يكتبون جملاً لا يطيلون ولا يكثرون . قيل : طبعه سليمان بالمسك أي جعل عليه قطعة منه كالشمع ، ثم ختمه بخاتمه .

﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري﴾ أي : أشيروا علي وبينوا لي الصواب في هذا الأمر واجيبوني بما يقتضيه الحزم وعبرت عن المشورة بالفتوى ، لكون ذلك حلاً لما أشكل من الأمر عليها ، وفي الكلام حذف ؛ والتقدير: فلما قرأت بلقيس الكتاب ، جمعت أشراف قومها وكانوا ثلثمائة واثني عشر ، لكل واحد منهم أتباع كثيرة وقالت لهم : يا أيها الملأ إني ألقي الي ، يا أيها الملأ أفتوني وكرر (قالت) لمزيد العناية بما قالته لهم ، ثم زادت في التأدب ، واستجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح ، ويشيروا عليها بالصواب ؛ فقالت :

﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ أي : عادتي وشأني معكم ، أني ما كنت مبرمة وقاضية وفاصلة أمراً من الأمور حتى تحضروا عندي وتشيروا عليَّ ؛ فلما قالت لهم ذلك ﴿قالوا﴾ مجيبين لها :

﴿نحن أولو قوة﴾ في العدد والعدة ﴿وأولو بأس شديد﴾ عند الحرب واللقاء ؛ ولنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا ؛ وبلدنا ، ومملكتنا ، يعني أشاروا عليها بالقتال ، ثم فوضوا الأمر اليها لعلمهم بصحة رأيها ، وقوة عقلها فقالوا :

﴿والأمر﴾ موكول ﴿إليك﴾ أي الى رأيك ونظرك ﴿فانظري﴾ أي : تأملي ﴿ماذا تأمرين﴾ إيانا به ، فنحن سامعون لأمرك مطيعون له .

فلما سمعت تفويضهم الأمر اليها لم ترض بالحرب ، بل مالت للصلح ، وبينت السبب في رغبتها فيه و ﴿قالت : إن الملوك اذا دخلوا قرية﴾ من القرى .

﴿أفسدوها﴾ أي : خربوا مبانيها ، وغيروا مغانيها ، وأتلفوا أموالها وفرقوا شمل أهلها . قال ابن عباس : إذا أخذوها عنوة وقهراً خربوها . وعن الزجاج مثله .

﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي أهانوا أشرافها ؛ وحطوا مراتبهم ، فصاروا عند ذلك أذلة ، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتم لهم الملك ، وتستحكم لهم

الوطأة ، وتتقرر لهم في قلوبهم المهابة . والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان اليهم ، ودخوله بلادهم .

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الفعل ﴿يفعلون﴾ أرادت أن هذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير ، لأنها كانت في بيت الملك القديم ؛ فسمعت نحو ذلك ورأت . قال ابن الأنباري : الوقف على قوله أذلة ، وقف تام ، فقال الله عز وجل تحقيقاً وتصديقاً لقولها : وكذلك يفعلون . وقيل : هذه الجملة من تمام كلامها ، فيكون من جملة مقول قولها أكدت به ما قبله ، وعلى الأول مستأنفة لا محل لها من الإعراب .

قال النسفي : واحتج الساعي في الأرض بالفساد بهذه الآية ومن استباح حراماً فقد كفر واذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين انتهى . ثم لما قدمت لهم هذه المقدمة وبينت لهم ما في دخول الملوك الى أرضهم من المفسدة أوضحت لهم وجه الرأي عندها وصرحت لهم بصوابه فقالت :

﴿وإني مرسلة اليهم﴾ أي إني أجرب هذا الرجل بإرسال رسلي اليه ﴿بهدية﴾ مشتملة على نفائس الأموال فإن كان ملكاً أرضيناه بذلك وكفينا أمره وإن كان نبياً لم يرضه ذلك لأن غاية مطلبه ومنتهى أربه هو الدعاء الى الدين فلا ينجينا منه إلا إجابته ومتابعته والتدين بدينه وسلوك طريقته ولهذا قالت :

﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ بالهدية من قبول أو رد ، فعاملة بما يقتضيه ذلك ، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة ، قد ساست الأمور وجربتها وقد طول المفسرون في ذكر هذه الهدية .

قال ابن عباس : ارسلت بِلَبِنَةٍ من ذهب فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب ، فذلك قوله **﴿أتمدونن بمال﴾** الآية . وقال ثابت البناني : أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج . وقال مجاهد : أهدت جواري لباسهن لباس الغلمان ، وغلماناً لباسهم لباس الجواري ، وقال عكرمة :أهدت مائتي فرس على كل فرس غلام وجارية ، وعلى كل فرس لون ليس على الآخر . وقال سعيد ابن جبير : كانت الهدية جواهر ، وقيل : غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره .

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

﴿فلما جاء﴾ رسولها المرسل بالهدية وهو منذر بن عمرو ، والمراد بهذا المضمر الجنس فلا ينافي كونهم جماعة كما يدل عليه قولها : بم يرجع المرسلون . وقرىء فلما جاءوا أي : الرسل ﴿سليمان قال : أتمدونن بمال ؟﴾ مستأنفة والاستفهام للإنكار أي : قال منكراً لإمدادهم له بالمال ، مع علو سلطانه ، وكثرة ماله .

﴿فما آتاني الله﴾ من النبوة والعلم والملك العظيم والأموال الكثيرة ﴿خير مما آتاكم﴾ من المال الذي هذه الهدية من جملته ، وهذا تعليل للنفي ، ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدم ، فقال توبيخاً لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء :

﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ وأما أنا فلا أفرح بها وليست في الدنيا من حاجتي لأن الله سبحانه قد أعطاني منها ما لم يعطه أحداً من العالمين ، ومع ذلك أكرمني بالنبوة والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزراء بهم ، والحط عليهم ، ثم قال سليمان للرسول :

﴿ارجع إليهم﴾ أي الى بلقيس وقومها بما أتيت به من الهدية ، وخاطب المفرد ههنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل إما لأن الذي سيرجع هو الرسول فقط ، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا ، وخاطبهم معه فيما سبق افتناناً في الكلام . وقرىء ارجعوا وقيل : إن الضمير يرجع الى الهدهد .

واللام في ﴿فلنأتينهم﴾ جواب قسم محذوف ، أي : والله إن لم يأتوني مسلمين لنأتينهم قال النحاس : وسمعت ابن كيسان يقول : هي لام توكيد ،

ولام أمر ،ولام خفض . وهذا قول الحذاق من النحويين لأنهم يردون الشيء الى أصله ، وهذا لا يتهيأ إلا لمن درب في العربية .

﴿بجنود لا قبل﴾ أي : لا طاقة ﴿لهم بها﴾ وحقيقة القبل المقابلة والمقاومة ، أي لا يقدرون أن يقابلوهم .

﴿ولنخرجنهم منها﴾ أي : من بلادهم وأرضهم التي هم فيها ، وهي سبأ حال كونهم ﴿أذلة﴾ بعد أن كانوا أعزة ﴿وهم صاغرون﴾ هي حال ثانية مؤكدة للأولى ، لأن الصغار هو الذلة ، وقيل : إن المراد بالصغار هنا الأسر والاستعباد ، وقيل : إن الصغار الإهانة التي تسبب عنها الذلة . ولما رجع الرسول الى بلقيس بالهدية تجهزت للمسير الى سليمان لتنظر ما يأمرها به ، واخبر جبريل سليمان بذلك .

﴿قال﴾ سليمان لكل من هو عنده في قبضته من الجن والإنس وغيرهما : ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها﴾ أي عرش بلقيس ، الذي تقدم وصفه بالعظم وكان سليمان إذ ذاك في بيت المقدس ، وعرشها في سبأ بلدة باليمن ، وبينها وبين القدس مسيرة شهرين ﴿قبل أن يأتوني مسلمين﴾ أي قبل أن تأتيني هي وقومها منقادين طائعين .

قيل : إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا اليه ويسلموا لأنهم حينئذ حربيون ، واذا أسلمت وأسلم قومها لم يحل أخذ أموالهم بغير رضائهم لأن الاسلام يعصم مالهم .

قال ابن عطية : وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان بعد مجيء هديتها ورده إياها وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأولين .

وقيل : استدعى العرش قبل وصولها ليريها القدرة التي هي من عند الله ، ويجعله دليلاً على نبوته . وقيل : أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال : نكروا لها عرشها كما سيأتي ، وقيل : أراد أن يختبر صدق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم والقول الأول هو الذي عليه الأكثر .

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿قال عفريت من الجن﴾ وقرىء ﴿عفريه﴾ بفتح التحتية بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء ، ورويت هذه عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ؛ وقرأ أبو حيان بفتح العين وهو شاذ ، والعفريت المارد الغليظ الشديد القوي . قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء ، عفر وعفريه وعفريت .

وقال قتادة :هو الداهية ،وقيل :هو رئيس الجن ،وقال ابن عطية :وقرأت فرقة عفر بكسر العين جمعه على عفار . قال وهب : اسمه كوذي . وقال السهيلي : ذكوان ، وقيل : هو صخر المارد ، قاله ابن عباس،وقيل :اسمه دعوان ، وكان مثل الجبل ،يضع قدمه عند منتهى طرفه ، وكان مسخراً لسليمان .

﴿أنا آتيك به﴾ أي أنا سآتي بالعرش اليك مضارع أو اسم فاعل ﴿قبل ان تقوم من مقامك﴾ أي مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة بين الناس وهو من الغداة إلى نصف النهار ﴿وإني عليه﴾ أي على حمله ﴿لقوي أمين﴾ على ما فيه من الجواهر وغيرها ، قال سليمان : أريد أسرع من ذلك .

﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ المنزل على الأنبياء قبل سليمان كالتوراة التي أنزلت على موسى ، قال أكثر المفسرين : اسمه آصف بن برخيا بالمد وبالقصر ، وهو من بني إسرائيل ، وكان وزيرًا لسليمان وصديقًا له ،

وقيل : كاتبه ، وكان من أولياء الله تظهر الخوارق على يديه كثيراً،وقيل كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب،قاله ابن عطية.

وقالت فرقة : هو سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا للعفريت كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت ، فقال له هذه المقالة تحقيراً له ، وقيل: هو جبريل ، وقيل : ملك آخر . وقيل : الخضر ، وقد قيل غير ذلك مما لا أصل له والأول أولى .

﴿أنا آتيك به﴾ أي بالعرش ، وقال مجاهد في قراءة ابن مسعود : أنا انظر في كتاب ربي الخ ثم آتيك به ﴿قبل ان يرتد اليك طرفك﴾ إذا نظرت به الى شيء ما ، والمراد بالطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر ، وارتداده انضمامها ، ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد آثر الارتداد على الرد ، وفي القاموس إن الطرف كما يطلق على نظر العين يطلق على العين نفسها ، وقيل : هو بمعنى المطروف ، أي الشيء الذي ينظره ، وقيل : هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لحظة ، قاله مجاهد .

وقال سعيد بن جبير : انه قال لسليمان : انظر الى السماء فما طرف حتى جاء به فوضعه بين يديه ، والمعنى حتى يعود اليك طرفك بعد مده الى السماء ، والأول أولى هذه الأقوال ، ثم الثالث .

قال ابن عباس : لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء ، ولكن انشقت به الأرض فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان ، وقال مجاهد : لما تكلم العالم بكلام دخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج اليهم .

﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾ قيل . في الآية حذف ، والتقدير فأذن له سليمان فدعا الله فأتى به ، فلما رأى سليمان العرش حاضراً لديه ﴿قال هذا﴾

أي حضور العرش وثبوته من غير تحرك وتقلقل ﴿من فضل ربي﴾ وإحسانه .

﴿ليبلوني﴾ أي ليختبرني ، وقيل:ليتعبدني وهو مجاز ،والأصل في الابتلاء : الاختبار ﴿أأشكر ؟﴾ الله بذلك واعترف بأنه من فضله من غير حول مني ولا قوة ، وأقوم بحقه ﴿أم أكفر ؟﴾ بترك الشكر وعدم القيام به ، أو بأن أثبت لنفسي فعلاً وتصرفاً في ذلك ، وقال الأخفش : المعنى لينظر أشكر أم أكفر .

﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها ، فإن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة ، والمعنى أنه لا يرجع نفع ذلك وثوابه إلا الى الشاكر .

﴿ومن كفر﴾ النعمة بترك الشكر ﴿فإن ربي غني﴾ عن شكره ﴿كريم﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه وسلبه ما أعطاه منها .

﴿قال : نكروا لها عرشها﴾ قيل : إنما أعيد ذكر القول لكون المتعلق مختلفاً لكونه أولا ثناء على الله ، وثانياً متعلقاً بشأن عرشها ،والتنكير التغيير ، وجعل الشيء بحيث لا يعرف ، ضد التعريف ، ومنه نقل الى مصطلح أهل العربية يقول : غيروا سريرها الى حال تنكره إذا رأته ، قيل : جعل أسفله أعلاه ، وأعلاه أسفله ، وقيل : غير بزيادة ونقصان ، قاله ابن عباس .

قال الفراء وغيره : إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئاً فأراد ان يمتحنها ،وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له ولد منها ، فيبقون مسخرين لآل سليمان أبداً فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل ،ورجلها كرجل الحمار ، وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له .

﴿ننظر﴾ أي نعلم قرىء بالجزم على انه جواب الأمر وبه قرأ الجمهور ، وقرىء بالرفع على الاستئناف ، قال ابن عباس :لننظر الى عقلها فوجدت ثابتة العقل ﴿ أتهتدي ؟ ﴾ الى معرفته أو الى الإيمان بالله ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ الى ذلك .

فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾

﴿فلما جاءت﴾ بلقيس الى سليمان ﴿قيل﴾ لها والقائل هو سليمان أو غيره بأمره : ﴿أهكذا عرشك ؟﴾ الذي تركته في قصرك ، وأغلقت عليه الأبواب ، وجعلت عليه حرساً ، والهمزة للاستفهام ، ولم يقل : (هذا عرشك) لئلا يكون ذلك تلقيناً لها فلا يتم الإختبار لعقلها .

﴿قالت كأنه هو﴾ أي : فأجابت أحسن جواب ، فلم تقل : هو هو ، ولا ليس به ، وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل للأمرين . قال مجاهد : جعلت تعرف وتنكر ، وتعجب من حضوره عند سليمان فقالت : كأنه هو ، وقال مقاتل : عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها ، ولو قيل لها : أهذا عرشك؟ لقالت نعم . وقال عكرمة : كانت حكيمة ، قال : إن قلت : هو خشيت أن أكذب ، وان قلت : لا خشيت أن أكذب فقالت : كأنه هو .

﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ قيل: هو من كلام بلقيس ، أي : وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ، وكنا منقادين لأمره ، وقيل : هو من قول سليمان أي : وأوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس ، وقيل : العلم بإسلامها ، ومجيئها طائعة من قبل مجيئها، وقيل : هو من كلام قوم سليمان، والقول الثاني أرجح من سائر الأقوال ، وبه قال مجاهد ، وعن زهير بن محمد نحوه .

﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله﴾ من جملة كلام سليمان أو كلامها على الاحتمالين السابقين ، وذكر أبو السعود احتمالاً آخر وهو ؛ أنه من كلام الله سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الاسلام ، أي منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبده وهو الشمس ، قال النحاس : أي صدها عبادتها عن التقدم الى الاسلام ، وقيل:منعها الله عما كانت تعبد من دونه ، وقيل : منعها سليمان عما كانت تعبد ، والأول أولى ، والجملة مستأنفة للبيان .

﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ تعليل للجملة الأولى أي سبب تأخرها عن عبادة الله ومنع ما كانت تعبده عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر ، راسخين فيه ، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بينهم ، بل حتى دخلت تحت ملك سليمان .

﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ قال أبو عبيدة : الصرح القصر ، وقال الزجاج : الصرح الصحن ، يقال هذه صرحة الدار ، وقامتها ، وقال ابن قتيبة : الصرح بلاط اتخذ لها من قوارير ، وجعل تحته ماء وسمك ، وأصله من التصريح وهو الكشف ، وكذب صراح أي ظاهر مكشوف ، ولوم صراح . وحكى أبو عبيدة في الغريب : أن الصرح كل بناء عال مرتفع .

﴿فلما رأته﴾ أي الصرح بين يديها ﴿حسبته لجة﴾ هي معظم الماء ، وقال ابن عباس : البحر ﴿و﴾ لذلك ﴿كشفت عن ساقيها﴾ لتخوض الماء خوفاً عليها أن تبتل ؛ فإذا هي أحسن النساء ساقاً سليمة مما قالت الجن فيها ، غير أنها كانت كثيرة الشعر ، فلما فعلت ذلك وبلغت الى هذا الحد .

﴿قال﴾ لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها ﴿إنه صرح ممرد﴾ أي مسقف بسطح ﴿من قوارير﴾ فمن أراد مجاوزته لا يحتاج الى تشمير ثيابه . والممرد المحكوك المملس ، ومنه الأمرد لملاسة وجهه ، وتمرد الرجل اذا لم تخرج لحيته .

قال الفراء : ومنه الشجرة المرداء ، التي لا ورق لها . والتمريد في البناء

التمليس والتسوية والممرد أيضاً المطول ،ومنه قيل للحصن :مارد .وقوارير :جمع قارورة أي زجاج وتطلق القارورة على المرأة لأن الولد او المني يقر في رحمها كما يقر الشيء في الإناء أو تشبيهاً بآنية الزجاج لضعفها ، قال الأزهري : والعرب تكنى عن المرأة بالقارورة والقوصرة قال آزاد البلجرامي رحمه الله :

كم من قلوب رقاق إثر عيسهم ياحادي العيس رفقاً بالقوارير

والمراد بها هنا بيت الزجاج فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت واستسلمت .

و ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي﴾ أي بما كنت عليه من عبادة غيرك وهو الشمس وقيل : بالظن الذي توهمته في سليمان لأنها توهمت أنه أراد تغريقها في اللجة . والأول أولى .

﴿وأسلمت مع سليمان﴾ متابعة له داخلة في دينه وهو الاسلام ﴿لله رب العالمين﴾ التفتت من الخطاب الى الغيبة قيل :لإظهار معرفتها بالله ، والأولى أنها التفتت لما في هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء ، ولكونه علماً للذات . وأخرج ابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وابن ابي شيبة وغيرهم عن ابن عباس في أثر طويل « إن سليمان تزوجها بعد ذلك » ، قال أبو بكر بن أبي شيبة : ما أحسنه من حديث .

قال ابن كثير في تفسيره بعد حكاية هذا القول : بل هو منكر جداً ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس والله أعلم.والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما يوجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله فيما نقلا الى هذه الأمة من بني إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان ، ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ، انتهى .

وكلامه هذا هو شعبة مما قد كررناه في هذا التفسير ونبهنا عليه في عدة

مواضع،وكنت أظن أنه لم ينبه على ذلك غيري ، فالحمد لله على هذه الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف ، وقيل : انتهى أمرها الى قولها : أسلمت ، ولا علم لأحد وراء ذلك لأنه لم يذكر في الكتاب ولا في خبر صحيح .

وأخرج البخاري في تاريخه والعقيلي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «أول من صنعت له الحمامات سليمان » وروي عنه مرفوعاً من طريق أخرى رواها الطبراني ، وابن عدى في الكامل ، والبيهقي في الشعب بلفظ : أول من دخل الحمام سليمان ، فلما وجد حره قال : أوه من عذاب الله،روى أن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة،وانقضى ملك بلقيس بانقضاء ملك سليمان ، فسبحان من لا انقضاء لدوام ملكه .

﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ اللام هي الموطئة للقسم.وهذه القصة من جملة بيان قوله : وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم . وثمود هو أبو القبيلة التي منها خرج صالح ، فهو جده . والمراد به هنا نفس القبيلة وتسمى عاداً الثانية،وأما عاد الأولى فهم قوم هود ، وتقدم أن بينهما مائة سنة ، وعاش صالح مائتين وثمانين سنة ﴿أن اعبدوا الله﴾ أن هي المفسرة او المصدرية أي بأن اعبدوا الله ووحدوه .

﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ إذا ، هي الفجائية أي ففاجأ إرساله التفرق والاختصام ، والمراد بالفريقين : المؤمنون منهم والكافرون ، ومعنى الاختصام : أن كل فريق يخاصم على ما هو فيه ،ويزعم أن الحق معه ،وقيل : إن الخصومة بينهم في صالح ، هل هو مرسل ؟ أم لا ؟ وقال أحد الفريقين : صالح ، والآخر : جميع قومه ، وهو ضعيف ، وقد تقدم حكاية اختصام الفريقين في سورة الأعراف ، في قوله : قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم الآية .

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قال﴾ صالح للمكذبين : ﴿يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟﴾ قال مجاهد : أي بالعذاب قبل الرحمة . والمعنى لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب اليكم الثواب ؟ وتقدمون الكفر الذي يجلب اليكم العقوبة ؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون : ائتنا ياصالح بالعذاب ، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازاً ، إما لأن العقاب من لوازمه ، أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً .

﴿لولا﴾ هلا ﴿تستغفرون الله﴾ وتتوبون اليه من الشرك ﴿لعلكم ترحمون ؟﴾ أي : رجاء أن ترحموا أو لكي ترحموا فلا تعذبوا ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر ، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح والكلام اللين أنهم قالوا :﴿اطيرنا بك﴾ أصله تطيرنا ، وقد قرىء بذلك ، والتطير التشاؤم ، أي : تشاءمنا بك ، وأُصابنا الشؤم والضيق والشدة بك ﴿وبمن معك﴾ ممن أجابك ، ودخل في دينك ، وذلك لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح ، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة ، وأشقاهم بها ، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو أمراً من الأمور نفروا طائراً من وكره ، فإن طار يمنة ساروا وفعلوا ما عزموا عليه ، وإن طار يسرة تركوا ذلك .

وفي القرطبي : لا شيء أضر بالرأي ، ولا أفسد للتدبير ، من **اعتقاد**

الطيرة ، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء ، أو يدفع مقدوراً فقد جهل ؛ فلما قالوا ذلك ﴿قال﴾ لهم صالح :

﴿طائركم عند الله﴾ أي ما يصيبكم من الخير والشر بأمر الله ، وهو مكتوب عليكم، سمي طائراً لأنه لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم ، والمعنى ليس ذلك بسبب الطيرة التي تشاءمون بها ، بل سبب ذلك عند الله ، وهو ما يقدره عليكم . وقيل : المعنى أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله لسبب كفركم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله﴾ وقيل : طائركم عملكم ، وسمي طائراً لسرعة صعوده الى السماء ، ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان فقال :

﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ أي تمتحنون وتختبرون ، وقيل : تعذبون بذنوبكم ، وقيل : يفتنكم غيركم ، وقيل : يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة أو بما لأجله تطيرون ، فأضرب عن ذكر الطائر الى ما هو السبب الداعي اليه ، وجاء بالخطاب مراعاة لتقدم الضمير ، ولو روعي ما بعده لقيل : يفتنون ، بياء الغيبة ، وهو جائز ، ولكنه مرجوح ، تقول : أنت رجل تفعل ويفعل ، ونحن قوم نقر ويقرون .

﴿وكان في المدينة﴾ التي كان فيها صالح ، وهي الحجر ، كذا قال المفسرون هنا ، وتقدم في سورة الحجر أنه واد بين المدينة والشام ، وهو ديار ثمود .

﴿تسعة رهط﴾ أي : تسعة رجال أو أشخاص من أبناء الأشراف وبهذا الاعتبار وقع تمييزاً للتسعة لا باعتبار لفظه ، والإضافة بيانية ، أي : تسعة هم رهط ، والرهط اسم جماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم جماعة ، وقيل : الرهط ما دون العشرة من الرجال ، ليس فيه امرأة ، وسكون الهاء أفصح من فتحها ، وهو جمع لا واحد له من لفظه ؛ وقيل : الرهط من سبعة الى عشرة وما دون السبعة الى الثلاثة نفر ، قال ثعلب : الرهط والنفر والقوم والمعشر والعشيرة معناهم الجمع ، لا واحد لها من لفظها وهو للرجال دون

النساء ، وقال ابن السكيت : الرهط والعترة بمعنى ، وقال الأصمعي : الرهط ما فوق العشرة الى الأربعين ، ونقله ابن فارس أيضاً .

والجمع أرهط وأراهط ، وهؤلاء التسعة هم أصحاب قدار ، عاقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح . وقد اختلف في اسماء هؤلاء التسعة اختلافاً كثيراً لا حاجة الى التطويل بذكره ، ثم وصف هؤلاء بقوله :

﴿يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي شأنهم وعملهم الفساد في الأرض لا في المدينة فقط ، فساداً لا يخالطه شيء من الإصلاح ، قيل : كانوا يتبعون معائب الناس ، ولا يسترون عوراتهم. وقيل : كانوا يظلمون ولا يمنعون الظالمين .

﴿قالوا : تقاسموا﴾ أي قال بعضهم لبعض : حلفوا ﴿بالله﴾ هذا على أن ﴿ تقاسموا﴾ فعل أمر ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً مفسراً لـ (قالوا) كأنه قيل : ما قالوا ؟ فقال : تقاسموا ، أو قالوا ذلك متقاسمين ، واليه ذهب الزمخشري وقرأ ابن مسعود (تقاسموا بالله) ليس فيها قالوا .

﴿لنبيتنه﴾ اللام جواب قسم ، أي لنأتينه بغتة في وقت البيات ، فنقتله ليلاً ﴿وأهله﴾ أي من آمن به ، وكانوا أربعة الاف ﴿ثم لنقولن لوليه﴾ بالنون للمتكلم وقرىء بالتحتية وبالفوقية على خطاب بعضهم لبعض ، والمراد بـ (ولي) صالح رهطه ، الذين لهم ولاية الدم .

﴿وما شهدنا مهلك أهله﴾ أي : ما حضرنا قتلهم ، ولا ندري من قتله وقتل أهله ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفي شهودهم لنفس القتل بالأولى ، وقيل : إن المهلك بمعنى الإهلاك ،قرىء مهلك بفتح الميم واللام وبكسر اللام .

﴿وإنا لصادقون﴾ فيما قلناه من إنكار لقتلهم ،قال الزجاج : وكان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله ، ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه ، وكان هذا مكراً منهم ، ولهذا قال الله سبحانه :

وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿ومكروا﴾ بهذه المحالفة ﴿مكراً﴾ وهو ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح ﴿ومكرنا مكراً﴾ أي جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم .

﴿وهم لا يشعرون﴾ بمكر الله بهم ، وهذا على سبيل الاستعارة المنضمة الى المشاكلة ، كما في الكشاف وشروحه ، يعني تشبيهاً له بالمكر من حيث كونه إضراراً في خفية ، لأن المكر قصد الإضرار على طريق الغدر والحيلة .

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾ أي انظر ما انتهى اليه أمرهم الذي بنوه على المكر وما أصابهم بسببه . ﴿أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ بفتح همزة (أنا) وقرىء بكسرها وهما سبعيتان ، قال الفراء والزجاج : من كسر استأنف وهو يفسر به ما كان قبله ، كأنه جعله تابعاً للعاقبة كأنه قال : العاقبة إنا دمرناهم وعلى قراءة الفتح التقدير بأنا ، أو لأنا و (كان) تامة ، وعاقبة فاعل لها ، أو يكون بدلاً من عاقبة ، أو يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي أنا

دمرناهم . وفي حرف أُبي أن دمرناهم .

والمعنى أن الله دمر التسعة الرهط المذكورين ، بالرمي ، ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك بصيحة جبريل عليه السلام ، وأجمعين : تأكيد لكل من المعطوف والمعطوف عليه ومعناه أنه لم يشذ منهم أحد ، ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم .

وجملة ﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ مقررة لما قبلها أي حال كونها خاوية قال الفراء ، والنحاس : أي خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن ، من خوى البطن اذا خلا ، أو ساقطة متهدمة من خوى النجم إذا سقط . وقيل : الأصل تلك بيوتهم الخاوية كقوله : وله الدين واصباً ﴿بما ظلموا﴾ أي بسبب ظلمهم .

﴿إن في ذلك﴾ التدمير والإهلاك ﴿لآية﴾ أي : لعبرة عظيمة ﴿لقوم يعلمون﴾ أي يتصفون بالعلم بالأشياء ﴿وأنجينا الذين أمنوا﴾ وهم صالح ومن آمن به ﴿وكانوا يتقون﴾ الله ويخافون عقابه ، وخرج صالح ومن معه من المؤمنين الى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح فسمى حضرموت ، قال الضحاك : ثم بنى الأربعة آلاف الذين كانوا معه مدينة يقال لها حاضوراء .

﴿و﴾ أرسلنا ﴿لوطاً إذ قال لقومه﴾ هم أهل سدوم : ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي : الفعلة المتناهية في القبح والشناعة ، وهي إتيان الذكور واللواط ﴿وانتم تبصرون﴾ أي وانتم تعلمون علماً يقيناً أنها فاحشة وقبيحة . وذلك أعظم ذنوبكم ، على أن تبصرون من بصر القلب وهو العلم او بمعنى النظر لأنهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة ، عتواً وتمرداً ، والجملة حالية مفيدة لتأكيد الإنكار ، وتشديد التوبيخ ، وقد تقدم تفسير هذه القصة في الأعراف مستوفى .

﴿ائنكم لتأتون الرجال ؟﴾ فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح،بأن تلك الفاحشة هي اللواطة التي أبهمها أولا ، وفيه إشارة الى أن فعلتهم هذه مما يعي الواصف ، ولا يبلغ كنه قبحها ، ولا يصدق ذو عقل أن أحداً يفعلها ، ثم علل ذلك بقوله :

﴿شهوة﴾ تنزيلاً لهم الى رتبة البهائم التي ليس فيها قصد ولد . ولا عفاف،والتقدير للشهوة أو إتياناً شهوة ؛ أو مشتهين لهم .

﴿من دون النساء﴾ أي متجاوزين النساء اللاتي هن محل لذلك ، وفيه اشارة الى أنهم أساءوا من الطرفين في الفعل والترك .

﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ التحريم ، أو عاقبة فعلكم ، والعقوبة على هذه المعصية ، قيل : أراد بالجهل السفاهة التي كانوا عليها ، أو تفعلون فعل الجاهلين بقبحه ، وقد اجتمع الخطاب والغيبة هنا ، وفي قوله : بل أنتم قوم تفتنون فغلب الخطاب على الغيبة لأنه أقوى وأرسخ إذ الأصل أن يكون الكلام بين الحاضرين .

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ أي : إلا قولهم ﴿أخرجوا آل لوط﴾ أي لوطاً وأهله ، والمراد بهم بنتاه وزوجته المؤمنة ﴿من قريتكم﴾ فيه امتنان عليه بإسكانه عندهم ، والإضافة للجنس لأن قراهم كانت خمساً أعظمها سدوم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي يتنزهون ويتباعدون عن أدبار الرجال ، قالوا ذلك استهزاء منهم بهم .

﴿فأنجيناه وأهله﴾ من العذاب الواقع بالقوم ، فخرج لوط بأهله من أرضهم وطوى الله له الأرض حتى نجا ، ووصل الى ابراهيم ﴿إلا امرأته قدرناها﴾ قرىء مخففاً ومشدداً ، والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى ﴿من الغابرين﴾ أي الباقين في العذاب .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وامطرنا عليهم﴾ أي : على كل من كانَ منهم خارج المدائن ﴿مطراً﴾ أي حجارة مكتوباً عليها اسم صاحبها ، وهو حجارة السجيل أي : الطين المحرق وهذا التأكيد يدل على شدة المطر ، وانه غير معهود .

﴿فساء مطر المنذرين﴾ أي الذين أنذروا فلم يعقلوا ولم يقبلوا الإنذار والمخصوص بالذم محذوف ، أي مطرهم،وقد مضى بيان ذلك كله في الأعراف والشعراء .

﴿قل الحمد لله﴾ قال الفراء:قال أهل المعاني : قيل للوط قل الحمد لله على هلاكهم ، وخالفه جماعة المفسرين فقالوا : إن هذا خطاب لنبينا ﷺ أي قل :الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية ، قال النحاس : وهذا أولى لأن القرآن منزل على النبي ﷺ ، وكل ما فيه فهو مخاطب به ، إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره ، وكان هذا صدر خطبة لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية ، والعلم والقدرة الآتي ذكرها بقوله : أمن خلق الخ قيل : والمراد بقوله :

﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ أمته ﷺ والأولى حمله على العموم ، وهم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين ، فيدخل في ذلك الأنبياء وأتباعهم،قال ابن عباس: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه ﷺ ،

وروي مثله عن سفيان الثوري ؛ والأولى ما قدمناه من التعميم ، فيدخل في ذلك أصحابه ﷺ دخولاً أولياً ، وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال ، بأن يتبرك بهما ويستظهر لمكانهما .

﴿آلله ؟﴾ فيه وجهان يجريان في خمسة مواضع في القرآن غير هذا الموضع أحدهما تسهيل الهمزة الثانية مقصورة ، والثاني إبدالها ألفاً ممدودة مداً لازماً والمعنى ألله الذي ذكرت أفعاله ، وصفاته الدالة على عظيم قدرته .

﴿خير أما يشركون ؟﴾ به من الأصنام وفيه تبكيت للمشركين : وإلزام الحجة عليهم بعد هلاك الكفار و (أم) هذه متصلة عاطفة لاستكمال شروطها ، والتقدير أيهما خير ، وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي ، بل هي كقول الشاعر :

أتهجوه ولست له بكفء ؟ فشركما لخيركما الفداء

فيكون ما في الآية من باب التهكم بهم ، إذ لا خير فيهم أصلاً ، وقد حكى سيبويه : إن العرب تقول : السعادة أحب إليك أم الشقاوة ولا خير في الشقاوة أصلاً ، وقيل : المعنى أثواب الله خير؟ أم عقاب ما تشركون به ؟ وقيل: قال لهم ذلك جرياً على اعتقادهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً . وقيل : المراد من هذا الاستفهام الخبر ، وقرأ الجمهور تشركون بالفوقية على الخطاب وقرىء بالتحتية .

﴿أمن خلق السموات والأرض ؟﴾ أم هذه هي المنقطعة ، وقال أبو حاتم : تقديره أآلهتكم خير؟ أم من خلق السموات والأرض ؟ وقدر على خلقهن ،وقيل : المعنى أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير ؟ أم عبادة من خلق العالم الجسماني ؟ فيكون (أم) على هذا متصلة ، وفيها معنى التوبيخ والتهكم ، كما في الجملة الاولى .

﴿وانزل لكم من السماء ماء﴾ أي نوعاً من الماء وهو المطر ﴿فأنبتنا به حدائق﴾ جمع حديقة ،قال الفراء :الحديقة البستان الذي عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان ، وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق النخل .

﴿ذات بهجة﴾ أي ذات منظر حسن ، ورونق ، والبهجة هي الحسن الذي يبتهج به من رآه ولم يقل ذوات بهجة على الجمع ، لأن المعنى جماعة حدائق ، وصرف الكلام عن الغيبة الى التكلم تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل بذاته ، وإيذاناً بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والأشكال،مع سقيها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده ، ثم رشح معنى الاختصاص بقوله :

﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ فضلاً عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة ، ومعنى هذا النفي الحظر والمنع من فعل هذا أي ما يصح للبشر ، ولا يتهيأ لهم ذلك ، ولا يدخل تحت مقدورهم ، لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم الى الوجود ، وأن تأتي ذلك محال من غيره ، ثم قال سبحانه موبخاً لهم ومقرعاً :

﴿أإله﴾ أي : هل معبود ﴿مع الله ؟﴾ الذي تقدم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به ، ويجعل شريكاً له في العبادة ، وقرىء إلهاً أي : أتدعون إلهاً مع الله ؟ والاستفهام للإنكار أي ليس معه إله ، وكذا يقال في المواضع الأربعة الآتية،ثم أضرب عن توبيخهم وتقريعهم بما تقدم ، وانتقل الى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب الى الغيبة فقال :

﴿بل هم قوم يعدلون﴾ بالله غيره ، أو يعدلون عن الحق الى الباطل ، و (بل هم) بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم ثم شرع في الاستدلال بأحوال الارض وما عليها فقال :

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أمن جعل الأرض قراراً ؟﴾ القرار هو المستقر أي دحاها وسواها وجعلها بحيث يمكن الاستقرار عليها للإنسان والدواب بإخلاء بعضها من الماء حسبما تدور عليه منافعهم ،وقيل : هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله أمن خلق السموات والأرض ؟ ولا ملجىء لذلك ، بل هي وما بعدها إضراب ، وانتقال من التقريع والتوبيخ بما قبلها الى التوبيخ والتقريع بشيء آخر .

﴿وجعل﴾ أي خلق أو صير ﴿خلالها﴾ أي فيما بينها ﴿أنهاراً﴾ تطرد بالمياه ، والخلال الوسط ، وقد تقدم تحقيقه في قوله :**و**فجرنا خلالهما نهراً .

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي جبالاً ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة ﴿وجعل بين البحرين﴾ هما العذب والمالح ، أي جعل بينهما من قدرته ﴿حاجزاً﴾ أي مانعاً معنوياً ، وهو المنع الإلهي ، إذ ليس هناك حاجز حسي كما هو مشاهد فلا يختلط أحدهما بالآخر ، فلا هذا يغير ذاك ، ولا ذاك يدخل في هذا وقد مر بيانه في سورة الفرقان .

﴿أإله مع الله﴾ أي : إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا الله فهل إله في

الوجود يصنع صنعه ، ويخلق خلقه فكيف يشركون به ما لا يضر ولا ينفع .

﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ توحيد ربهم وسلطان قدرته .

﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ؟﴾ هذا الاستدلال منه سبحانه بحاجة الانسان اليه على العموم والمضطر اسم مفعول من الاضطرار ، وهو افتعال من الضرورة ، وهي الحاجة المحوجة الى اللجأ ،يقال : اضطره الى كذا ، والمضطر هو المكروب المجهود ، الذي مسه الضر ولا حول له ولا قوة ، وقيل هو المذنب اذا استغفر ،وقيل :هو المظلوم اذا دعا ، أو من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد ، وهو منه على خطر ،وقيل : هو الذي عراه ضر من فقر ، أو مرض ، أو نازلة من نوازل الدهر ، فالجأه الى التضرع الى الله .

والألف واللام في (المضطر) للجنس لا للاستغراق ، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين ، لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد ، يحول بينه وبين إجابة دعائه ، وإلا فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطر إذا دعاه وأخبر بذلك عن نفسه ، والوجه في إجابة دعاء المضطر أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص ، وقطع النظر عما سوى الله .

وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين ، وإن كانوا كافرين ، فقال ﴿حتى إذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ وقال: ﴿فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون﴾ فأجابهم عند ضرورتهم واخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون الى شركهم .

﴿ويكشف السوء ؟﴾ الذي يسوء العبد من غير تعيين وقيل : هو الضر وقيل : هو الجور وهذا من عطف العام على الخاص .

﴿ويجعلكم خلفاء الأرض ؟﴾ أي : يخلف كل قرن منكم القرن الذي

قبله بعد انقراضهم والمعنى يهلك قرناً وينشيء آخرين؛وقيل: يجعل أولادكم خلفاً منكم ، وقيل: جعلكم خلفاء الجن في الأرض،وقيل : يجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم .

﴿أإله مع الله ؟﴾ الذي يوليكم هذه النعم الجسام ﴿قليلاً ما﴾ أي : تذكراً قليلاً ﴿تذكرون﴾ و (ما) زائدة لتقليل القليل هو كناية عن العدم بالكلية فالمراد نفي تذكرهم رأساً ، قال الكرخي : المعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي ، قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرىء بالتحتية على الخبر رداً على قوله : بل أكثرهم لا يعلمون .

﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ أي يرشدكم في الليالي المظلمة إذا سافرتم في البر والبحر الى مقاصدكم، وقيل: المراد مفاوز البر التي لا أعلام لها ولجج البحار، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها، وقيل : يهديكم بالنجوم ليلاً وبعلامات الأرض نهاراً .

﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟﴾ المراد بالرحمة هنا:المطر أي بين يدي المطر وقبل نزوله .

﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ يفعل ذلك ويوجده ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾ أي تنزه وتقدس عن وجود ما يجعلونه له شريكاً .

﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟﴾ كانوا يقرون بأن الله سبحانه هو الخالق فألزمهم الإعادة أي اذا قدر على الابتداء قدر على الاعادة ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟﴾ بالمطر والنبات أي : أهو خير أم ما تجعلونه شريكاً له مما لا يقدر على شيء من ذلك ؟ ﴿أإله مع الله﴾ حتى تجعلوه شريكاً له .

﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم عقلية أو نقلية على أن الله سبحانه شريكاً أو هاتوا حجتكم على أن ثم صانعاً يصنع كصنعه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن مع الله إلهاً فعل شيئاً مما ذكر .وفي هذا تبكيت لهم وتهكم بهم .
وسألوه عن وقت قيام الساعة فنزل :

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

﴿قل لا يعلم من﴾ أي لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة الثابتة الساكنة المستقرة ﴿في السماوات والأرض﴾ وهم الملائكة والإنس ﴿الغيب﴾ الذي استأثر الله بعلمه ﴿إلا الله﴾ أي : لكن الله يعلم ذلك فالاستثناء منقطع ، ورفع ما بعد (إلا) على اللغة التميمية كما في قوله :

إلا اليعافير وإلا العيس

وقيل : لا يعلم غيب من فيهما ، ولا يعلم الأشياء التي تحدث فيهما إلا الله ، وقيل : هو استثناء متصل من (من) والأول أولى ، لأن الاتصال يقتضي أن الله من جملة من فيهما .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة قالت : « ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، وقالت في آخره : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : قل : ﴿لا يعلم﴾ « الآية » .

﴿وما يشعرون﴾ أي الكفار ﴿أيان يبعثون﴾ أي متى ينشرون من القبور ، وأيان مركبة من أي وأن ، وقد تقدم تحقيقه ، وقرىء إيان بكسر

الهمزة ، وهي لغة بني سليم .

﴿بل ادّارك﴾ أصله تدارك ، وقرىء أدرك من الإدراك ، وقرىء بل أدرك بفتح لام بل ، وتشديد الدال ، وأدرك على الاستفهام ، وقرىء بل تدارك ، بإثبات التاء ، ومعنى الآية بل تكامل .

﴿علمهم في الآخرة﴾ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به وعاينوه ،وقيل : معناه تتابع وتلاحق ، **والقراءة الثانية** معناها كمل علمهم في الآخرة مع المعاينة ، وذلك حين لا ينفعهم العلم لأنهم كانوا في الدنيا مكذبين ، وقال الزجاج : إنه على معنى الإنكار . واستدل على ذلك بقوله : فيما بعد : بل هم منها عمون ، أي لم يدرك علمهم علم الآخرة؛وقيل:المعنى بل ضل وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم .

ومعنى **الثالثة** كالأولى،فافتعل وتفاعل، قد يجيئان لمعنى.**والرابعة** هي بمعنى الإنكار . قال الفراء : وهو وجه حسن كأنه وجهه الى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم،وفي الآية قراءات أخر لا ينبغي الاشتغال بذكرها وتوجيهها .

وعن ابن عباس قال:بل إدراك علمهم في الآخرة حين لا ينفع الندم وعنه قال :لم يدرك علمهم،وعنه :أنه قرأها بالاستفهام ،وعنه قال :غاب علمهم .

﴿بل هم في شك منها﴾ أي بل هم اليوم في الدنيا في شك من الآخرة ثم أضرب عن ذلك الى ما هو أشر منه فقال : ﴿بل هم منها عمون﴾ فلا يدركون شيئاً من دلائلها لاختلال بصائرهم التي يكون بها الإدراك و(عمون) جمع عم،وهو من كان أعمى القلب،والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون الى شيء مما يوصل الى العلم بها فمن قال : إن معنى الآية الأولى أنه كمل علمهم وتم مع المعاينة،فلا بد من حمل قوله بل هم في شك الخ على ما كانوا عليه في الدنيا،ومن قال: إن معنى الآية الأولى الاستهزاء بهم والتبكيت لهم لم

يحتج الى تقييد قوله بل هم في شك الخ بما كانوا عليه في الدنيا وبهذا يتضح معنى هذه الآيات ويظهر ظهوراً بيناً،والإضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم وتكرير لجهلهم .

ولما ذكر سبحانه أن المشركين في شك من البعث وأنهم عمون عن النظر في دلائله أراد أن يبيِّن غاية شبهتهم وهي مجرد استبعاد إحياء الموتى بعد صيرورتهم تراباً فقال :

﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ المعنى أنهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا تراباً .

ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث فقالوا: ﴿لقد وعدنا هذا﴾ يعنون البعث ﴿نحن وآباؤنا من قبل﴾ أي من قبل وعد محمد ﷺ لنا وقد مرت الدهور على هذا الوعد ولم يقع منه شيء،فذلك دليل على أنه لا حقيقة له والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار مصدرة بالقسم لزيادة التقرير .

﴿إن هذا﴾ «الوعد بالبعث» ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة التي كتبوها ولا حقيقة لها وقد تقدم تحقيق معنى الأساطير في سورة المؤمنين ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث فأمرهم بالنظر في أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء وما عوقبوا به وكيف كانت عاقبتهم فقال :

﴿قل : سيروا في الأرض ؛ فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ المكذبين بما جاءت به الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، من الإخبار بالبعث ومعنى النظر هو مشاهدة آثارهم بالبصر ، فإن في المشاهدة زيادة اعتبار ، وكفاية لأولي الأبصار . وقيل : المعنى فانظروا بقلوبكم وبصائركم ، كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم ؟ والأول أولى ، لأمرهم بالسير في الأرض ؛ وفيه تهديد لهم على التكذيب ؛ وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم .

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

﴿ولا تحزن عليهم﴾ الحزن سببه إما فوت أمر في الماضي ، أو توقع مكروه في المستقبل ، أي : لا تحزن على عدم إيمان المستهزئين فيما مضى ولا تغتم وتهتم بمكرهم في المستقبل ؛ وهو معنى قوله :

﴿ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾ الضيق الحرج ، يقال : ضاق الشيء ضيقاً بالفتح ، وضيقاً بالكسر ، قرىء بهما وهما لغتان ، قال ابن السكيت : يقال : في صدر فلان ضيق ، وضيق ، وهو ما يضيق عنه الصدور ، وقرىء لا تكن بثبوت النون هنا على الأصل .

وقد حذفت من هذا المضارع في القرآن في عشرين موضعاً ، تسعة منها مبدوءة بالتاء ، وثمانية بالياء ، واثنان بالنون ، وواحد بالهمزة ، وهو قوله : ولم أك بغياً ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة النحل .

﴿ويقولون : متى هذا الوعد﴾ بالعذاب الذي تعدنا ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ذلك ، خطاب للنبي ﷺ ومن معه ، من المؤمنين .

﴿قل : عسى أن يكون ردف لكم﴾ يقال ردفت الرجل وأردفته ، اذا ركبت خلفه ، وردفه إذا اتبعه وجاء في إثره ، قال ابن شجرة : معنى ردف لكم تبعكم ، قال : ومنه ردف المرأة ، لانه تبع لها من خلفها . قال

الجوهري : وأردفه لغة في ردفه مثل تبعه واتبعه . قال الفراء : ردف لكم دنا لكم ، ولهذا قيل : لكم ، وقرىء ردف بفتح الدال ، وهي لغة ، والكسر أشهر .

وقرأ ابن عباس (أزف لكم) وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بمدخولها ، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار ، وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم ، وعلى ذلك يجري الله وعيده ، قاله أبو السعود والمعنى قل : يامحمد ﷺ لهؤلاء الكفار : عسى أن يكون هذا العذاب الذي به توعدون تبعكم ولحقكم ؛ فتكون اللام زائدة للتأكيد ، أو بمعنى اقترب لكم ودنا منكم قاله ابن عباس ، فتكون غير زائدة .

﴿بعض الذي تستعجلون﴾ من العذاب ، أي حلوله ، قيل : هو عذابهم بالقتل يوم بدر ، وقيل : هو عذاب القبر ، ثم ذكر سبحانه فضله فقال : ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ في تأخير العقوبة ، والأولى أن تحمل الآية على العموم ، ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه .

﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ فضله وإنعامه ، ولا يعرفون حق إحسانه .

ثم بين سبحانه أنه مطلع على ما في صدورهم فقال : ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم﴾ أي ما تخفيه فليس التأخير لخفاء حالهم عليه ، قرىء بضم التاء من أكن،وبفتحها وضم الكاف يقال كننته بمعنى سترته وأخفيت أثره ﴿وما يعلنون﴾ من أقوالهم وأفعالهم ، ويظهرونها . وقال ابن عباس :يعلم ما عملوا بالليل والنهار .

﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ أي : في اللوح المحفوظ ، والغائبة :هي من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كراوية وعلامة ، وقيل : هي الداخلة على المصادر نحو العاقبة والعافية . قال الزمخشري : ونظيرها الذبيحة والنطيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات . قال الحسن :

الغائبة هنا هي القيامة .

وقال مقاتل : علم ما يستعلجون من العذاب هو مبين عند الله ، وإن غاب عن الخلق . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله عن خلقه ، وغيبه عنهم ، مبين في أم الكتاب ، فكيف يخفى عليه شيء من ذلك ، ومن جملة ذلك ما يستعجلون من العذاب . فإنه مؤقت بوقت مؤجل بأجل ، علمه عند الله ، فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له ؟ وقال ابن عباس : ما من شيء في السماء والأرض سراً ولا علانية إلا يعلمه .

﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل﴾ الموجودين في زمان نبينا بالتصريح والتنصيص ، ولذا خص الأكثر بالذكر وقال : ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ من التشبيه والتنزيه ، وأحوال الجنة والنار ، وعزير ومسيح ، وذلك لأن أهل الكتاب تفرقوا فرقاً ، وتحزبوا أحزاباً ، يطعن بعضهم على بعض ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، فنزل القرآن مبيناً لما اختلفوا فيه من الحق ، فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرقهم .

﴿وإنه لهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ من العذاب ﴿للمؤمنين﴾ أي لمن آمن بالله وتابع رسوله ﷺ ، وخصهم لأنهم هم المنتفعون به ، ومن جملتهم من آمن من بني إسرائيل .

﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ كغيرهم يوم القيامة ﴿بحكمه﴾ أي يقضي بالعدل بين المختلفين من بني اسرائيل ، بما يحكم به من الحق ، فيجازي المحق ويعاقب المبطل ، فلا يمكن أحداً مخالفته ؛ كما خالف الكفار في الدنيا أنبياءه ورسله وقيل : يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرفوه قرىء بحكمه بضم الحاء وسكون الكاف ، وبكسرها وفتح الكاف ؛ جمع حكمة ؛ والحكم بمعنى العدل والحق والمحكوم به .

﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغالب ﴿العليم﴾ بما يحكم به ، أو الكثير العلم ثم أمره سبحانه بالتوكل وقلة المبالاة فقال :

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فتوكل على الله﴾ الفاء لترتيب الأمر على ما تقدم ذكره ، لأن هذه الأوصاف توجب على كل أحد أن يفوض جميع أموره اليه ، والمعنى فوض اليه أمرك ، واعتمد عليه فإنه ناصرك ، ثم علَّل ذلك بعلتين الأولى قوله :

﴿إنك على الحق المبين﴾ أي : الظاهر ، وقيل : المظهر ، وهو الدين الواضح الذي لا يتعلق به شك ، وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله ، وبنصرته وتأييده وحفظه له . والعلة الثانية قوله :

﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ أي : موتى القلوب وهم الكفار ، وفيه قطع طمعه عن متابعتهم ، ومعاضدتهم رأسا .

﴿ولا تسمع الصم الدعاء﴾ لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسماع ، أو كحال الصم الذين لا يسمعون ، ولا يفهمون ولا يهتدون ، صار ذلك سبباً قوياً في عدم الاعتداد بهم ، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل ، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء الى الله ، وقرىء تسمع بضم الفوقية وكسر الميم من أسمع ؛ وقرىء بالتحتية مفتوحة وفتح الميم وفاعله الصم ؛ ثم ذكر سبحانه جملة لتكميل التشبيه وتأكيده فقال :

﴿إذا ولوا مدبرين﴾ أي أعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً فإن الأصم لا يسمع الدعاء اذا كان مقبلاً فكيف اذا كان مدبراً ؛ معرضاً عنه مولياً ؛ قال قتادة الأصم : إذا ولى مدبراً ثم ناديته لم يسمع ؛ كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى اليه من الإيمان . وظاهر نفي سماع الموتى العموم ، فلا يخص منه إلا

ما ورد بدليل ؛ كما ثبت في الصحيح «أنه ﷺ خاطب القتلى في قليب بدر فقيل له : يا رسول الله إنما تكلم أجساداً لا أرواح لها» وكذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا ، ثم ضرب العمى مثلاً لهم فقال :

﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾ أي ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الحق إرشاداً يوصله الى المطلوب منه ، وهو الإيمان ، وليس في وسعك ذلك ، ومثله قوله : إنك لا تهدي من أحببت قرأ الجمهور بإضافة هادي الى العمي ، وقرىء بالتنوين ، وقرىء تهدي فعلاً مضارعاً ، وفي حرف عبدالله وما أن تهدي العمي .

﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا﴾ أي من يصدق بالقرآن في علم الله لا من يكفر ﴿فهم مسلمون﴾ تعليل للإيمان أي :فهم منقادون مخلصون بتوحيد الله ، ثم هدد العباد بذكر طرف من أشراط الساعة وأهوالها فقال :

﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ اختلف في معنى هذا الوقوع فقال قتادة : وجب الغضب عليهم ، وقال مجاهد : حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقيل : حق العذاب عليهم ، وقيل : وجب السخط ، والمعاني متقاربة ، وقيل المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجيء الساعة،وما فيها من فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها ، وقيل : وقع القول بموت العلماء وذهاب العلم ، ورفع القرآن ، وذلك اذا لم يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، قاله ابن عمر وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً .

وعن أبي العالية أنه فسر (وقع القول) بما أوحي الى نوع أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، والحاصل أن المراد بـ (وقع) وجب و بـ (القول) مضمونه أو أطلق المصدر على المفعول ، أي المقول وجواب الشرط قوله :

﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض﴾ اختلف في هذه الدابة على أقوال فقيل : إنها فصيل ناقة صالح ، يخرج عند اقتراب الساعة ويكون من اشراطها ، وقيل : هي دابة مزغبة ذات شعر وقوائم طوال ، يقال لها

الجساسة وبه قال ابن عمرو .

وفي التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمي من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى ، وقيل : هي دابة على خلقة بني آدم ، رأسها في السحاب وقوائمها في الأرض ، وقيل : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش . وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصل ومفصل إثنا عشر ذراعاً ، ولعل ذلك هو الجساسة ، وقيل : الثعبان ، والمشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة ، والمراد أنها هي التي تخرج في آخر الزمان ، وقيل : هي دابة ما لها ذنب ولها لحية ، وقيل : هي إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع ويراجع الكفار ، وفيه بعد .

وعن ابن عباس قال : الدابة ذات وبر وريش ؛ مؤلفة فيها من كل لون ، لها أربع قوائم ، تخرج بعقب من الحاج . وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره ، وقد رجح القول الأول القرطبي في تفسيره ، وقال : هو أصح الأقوال ، واختلف في تعيينها وصفاتها اختلافاً كثيراً قد ذكرناه في كتاب التذكرة انتهى،واختلف من أي موضع تخرج ، فقيل : من جبل الصفا بمكة ، يتصدع فتخرج منه ، قاله ابن عمرو ، وقيل : تخرج من جبل أبي قبيس ،وقيل :لها ثلاث خرجات ، خرجة في بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس ؛ وتكثر الدماء ؛ ثم تكمن ، وتخرج في القرى ، ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها ، وقيل : تخرج من بين الركن والمقام ، وقال ابن عباس تخرج من بعض أودية تهامة ، وقيل : من مسجد الكوفة من حيث فار التنور،وقيل : من أرض الطائف ؛ وقيل : من صخرة من شعب أجياد ، قاله ابن عمرو،وقيل : من صدع في الكعبة ، وقيل : من بحر سدوم قاله وهب بن منبه ، واختلف في معنى قوله :

﴿تكلمهم﴾ فقيل : تكلم الموجودين ببطلان الأديان سوى دين الإسلام

وقيل:تكلمهم بما يسوءهم ،وقيل :تكلمهم بالعربية بقوله تعالى الآني أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، قاله ابن عباس ، أي بخروجها لأن خروجها من الآيات ، وقال ابن عباس أيضاً :تكلمهم تحدثهم ، وعنه أنه سئل هو من التكليم باللسان ، أو من الكلم وهو الجرح؟ فقال : كل ذلك والله تفعل ، تكلم المؤمن وتكلم الكافر ،أي : تجرحه ،قرأ الجمهور تكلمهم من التكليم ؛ وتدل عليه قراءة أبي : تنبئهم . وقرىء بفتح الفوقية وسكون الكاف من الكلم وهو الجرح ، قال عكرمة : أي تسمهم وسماً ،وقيل : تجرحهم ، وقيل :قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم وهو الجرح ، والتشديد للتكثير ، قاله أبو حاتم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه عن ابن عمر في الآية قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس ذلك حديثاً ولا كلاماً ، ولكنها سمة تسم من أمرها الله به ، فيكون خروجها من الصفا ليلة منى ، فيصبحون بين رأسها وذنبها ، لا يدحض داحض ، ولا يجرح جارح حتى اذا فرغت مما أمرها الله به فهلك من هلك ونجا من نجا ؛ كان أول خطوة تضعها بأنطاكية » .

وأخرج أحمد : وابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « تخرج الدابة فتسم على خراطيمهم ، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابة ، فيقال له:ممن اشتريتها فيقول : من الرجل المخطم» .

وعن حذيفة بن أسيد رفعه قال : « تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة » .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه ، وابن ماجة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، والبيهقي ، وغيرهم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :تخرج دابة الأرض ومعها عصى موسى ، وخاتم سليمان ، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم ، وتحطم أنف الكافر بالعصى ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال :ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال : لها ثلاث خرجات من الدهر الحديث ، أخرجه البيهقي والحاكم وصححه ، وابن

المنذر ، وغيرهم ، وفي صفتها ، ومكان خروجها ، وما تصنعه ، ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح . وبعضها حسن ، وبعضها ضعيف .

وأما كونها تخرج ، وكونها من علامات الساعة ، فالأحاديث الواردة في ذلك صحيحة ، ومنها ما هو ثابت في الصحيح كحديث حذيفة مرفوعاً«لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات» وذكر منها الدابة فإنه في صحيح مسلم ، وفي السنن الأربع .

وكحديث « بادروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، والدابة » فإنه في صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً .

وكحديث ابن عمر مرفوعاً أن « أول الآيات خروجاً طلوغ الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى » فإنه في صحيح مسلم أيضاً .

ثم قرأ الجمهور : ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ بكسر إن على الاستئناف ، وقرىء بفتحها،قال الأخفش : المعنى على الفتح بأن الناس،وبها قرأ ابن مسعود،وقال أبو عبيدة : أي تخبرهم أن الناس الخ .

وعلى هذه فالذي تكلم الناس به هو قوله : أن الناس الخ كما قدمنا الإشارة الى ذلك ، وأما على الكسر فالجملة مستأنفة كما قدمنا ، ولا يكون من كلام الدابة وقد صرح بذلك جماعة من المفسرين، وجزم به الكسائي والفراء وقال الأخفش إن كسر (إن) هو على تقدير القول ، أي تقول لهم إن الناس فيرجع معنى القراءة الأولى على هذا الى معنى الثانية :

والمراد بالناس في الآية هم الناس على العموم ، فيدخل في ذلك كل مكلف وقيل : المراد الكفار خاصة ، وقيل : كفار مكة ، والأول أولى كما صنع جمهور المفسرين ،والمعنى : لا يؤمنون بالقرآن المشتمل على البعث والحساب والعقاب،وبخروجها ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يبقى نائب ولا تائب ولا يؤمن كافر ، كما أوحى الله الى نوح ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قدآمن﴾ ثم ذكر سبحانه طرفاً مجملاً من أهوال يوم القيامة بعد بيان مباديها فقال :

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾

﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ العامل في الظرف فعل محذوف خوطب به النبي ﷺ والحشر الجمع قيل: والمراد بهذا الحشر هو حشر العذاب الخاص بعد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق، و (من) لابتداء الغاية، والفوج الجماعة كالزمرة والقوم، وقيدهم الراغب فقال: الفوج الجماعة المارة المسرعة، وكان هذا هو الأصل، ثم أطلق، وإن لم يكن مرور ولا إسراع، والجمع أفواج وفوج[1].

﴿ممن يكذب بآياتنا﴾ من بيانية ﴿فهم يوزعون﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم لأجل تلاحقهم، وقيل: معناه يدفعون، وقد تقدم تحقيقه في هذه السورة مستوفى، ومعنى الآية واذكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة مكذبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم، أو يدفعون أي اذكر لهم هذا وبينه تحذيراً لهم وترهيباً ﴿حتى إذا جاءوا﴾ الى موقف الحساب.

﴿قال﴾ الله لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أكذبتم بآياتي﴾ التي أنزلتها على رسلي وأمرتهم بإبلاغها اليكم ﴿و﴾ الحال أنكم ﴿لم تحيطوا بها علماً﴾ بل كذبتم بها بادىء بدىء جاهلين لها غير ناظرين فيها، ولا مستدلين على صحتها، أو بطلانها، تمرداً وعناداً وجرأة على الله وعلى رسله، وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ لأن من كذب بشيء ولم يحط به علماً، فقد كذب في تكذيبه ونادى على

(١) بضم الفاء وسكون الواو. المطيعي.

نفسه بالجهل وعدم الانصاف وسوء الفهم ، وقصور الإدراك .

ومن هذا القبيل من تصدى لذم علم من علوم الشريعة ، او لذم علم هو مقدمة من مقدماتها ووسيلة يتوسل بها اليها ، وتفيد زيادة بصيرة في معرفتها ، وتعقل معانيها ، كعلوم اللغة العربية بأسرها ، وهي اثنا عشر علماً ، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به الى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية .

وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله وسنة رسوله ، فإنه قد نادى على نفسه بإنه جاهل ، مجادل بالباطل ، طاعن على العلوم الشرعية ، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله وضلاله ، وطعنه على ما لا يعرفه ، ولا يعلم به ولا يحيط بكنهه ، حتى يصير عبرة لغيره ، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعفاء العقول وركاك الأديان ورعاع المتلبسين بالعلم زوراً وكذباً .

﴿أم ماذا ؟﴾ أم ، هي المنقطعة بمعنى : بل ، والمعنى أي شيء ﴿كنتم تعملون﴾ حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها والتفكر في معانيها ، وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم .

﴿ووقع القول﴾ أي وجب العذاب ﴿عليهم﴾ وقد تقدم تفسيره قريباً ﴿بما ظلموا﴾ أي بسبب الظلم الذي أعظم أنواعه الشرك بالله ﴿فهم لا ينطقون﴾ عند وقوع القول عليهم ، أي : ليس لهم عذر ينطقون به أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم ، وقال أكثر المفسرين : يختم على أفواههم فلا ينطقون ، ثم بعد أن خوفهم بأهوال القيامة ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد ، وعلى الحشر ، وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد ، وإبلاء للمعذرة فقال :

﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ؟﴾ أي ألم يعلموا أنا خلقنا الليل للسكون والاستقرار ، والنوم فيه ، وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش .

﴿و﴾ خلقنا ﴿النهار مبصراً﴾ ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذي

لا بد لهم منه ، ووصف النهار بالإبصار وهو وصف للناس ، مبالغة في اضاءته ، كأنه يبصر ما فيه ، ففي الكلام إسناد عقلي ، من الإسناد الى الزمان قيل : في الكلام حذف ، والتقدير وجعلنا الليل مظلماً ليسكنوا أو حذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه ، وقد تقدم تحقيقه في الإسراء ، وفي يونس .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور ﴿لآيات﴾ أي لعلامات ودلالات ﴿لقوم يؤمنون﴾ بالله سبحانه وفي الآية دليل على صحة البعث بعد الموت لأن القادر على تقليب الضياء ظلمة والظلمة ضياء ، قادر على الإعادة بعد الموت ، كيف ومن تأمل في تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما ، على وجوه مبنية على حكم تحار في فهمها العقول ، ولا يحيط بها إلا الله ، وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة ، وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالتيقظ الذي هو مثل الحياة قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور ، وجزم بأن الله قد جعل هذا أنموذجاً ودليلاً يستدل به على أن سائر الآيات حق نازل من عند الله ، قاله ابو السعود ، ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال :

﴿ويوم ينفخ في الصور﴾ وهو معطوف على ﴿ويوم نحشر﴾ منصوب بناصبه المتقدم ، قال الفراء : إن المعنى وذلكم يوم ينفخ في الصور ، والأول أولى ، والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل ، وقد تقدم في الأنعام استيفاء الكلام عليه ، والنفخات في الصور ثلاث :

الأولى : نفخة الفزع .

والثانية : نفخة الصعق .

والثالثة : نفخة البعث . وقيل : إنها نفختان وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة الى نفخة الصعق أو الى نفخة البعث ، واختار هذا القشيري والقرطبي وغيرهما وقال الماوردي : هذه النفخة المذكورة هنا هي يوم النشور من القبور .

﴿ففزع﴾ كل ﴿من﴾ كان ﴿في السموات ومن﴾ كان ﴿في الأرض﴾ حياً

ذلك الوقت لم يسبق له موت أو كان ميتاً لكنه حي في قبره كالأنبياء والشهداء أي خافوا الخوف المفضي بهم الى الموت كما في آية اخرى ﴿فصعق من في السموات﴾ الخ وانزعجوا لشدة ما سمعوا وقيل المراد بالفزع هنا الإسراع والإجابة الى النداء من قولهم فزعت اليك في كذا إذا أسرعت الى اجابته ، والأول أولى بمعنى الآية،وإنما عبر بالماضي مع كونه معطوفاً على المضارع للدلالة على تحقيق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان وقال الفراء : هو محمول على المعنى لأن المعنى إذا نفخ .

﴿إلا من شاء الله﴾ أن لا يفزع عند تلك النفخة فهو لا يفزع واختلف في تعيين من وقع الاستثناء له ، فقيل : هم الشهداء والأنبياء وقيل : الملائكة وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وقيل : الحور العين وخزنة النار وحملة العرش . وقيل: هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيها بعد ، من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ويمكن أن يكون الاستثناء شاملاً لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك،قال البيضاوي: ولعل المراد ما يعم ذلك لعدم قرينة الخصوص انتهى . فهؤلاء كلهم لا يفضي بهم الفزع الى الغشي والإغماء بل هو أقل من ذلك .

﴿وكل أتوه﴾ قرىء فعلاً ماضياً ، وكذا قرأ ابن مسعود،وقرأ قتادة (كل اتاه) وقرىء (آتوه) على اسم الفاعل مضافاً الى الضمير الراجع الى الله سبحانه،قال الزجاج : من قرأ على الفعل الماضي فقد وحد على لفظ كل،ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه وهو غلط ظاهر فإنّ كلتا القراءتين لا توحيد فيهما بل التوحيد في قراءة قتادة فقط .

﴿داخرين﴾ أي صاغرين ذليلين قاله ابن عباس . وقرىء (دخرين) بغير الألف والمعنى صغار ذل وهيبة من الجبار فيشمل هذا الطائعين والعاصين وقال الكرخي : المراد به ذل العبودية والرق لا ذل الذنوب والمعاصي وذلك يعم الخلق كلهم كما في قوله تعالى ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ ، وفي القاموس : دخر الشخص كمنع وفرح دخراً ودخوراً صغر وذل وادخرته بالألف للتعدية وقد مضى تفسير هذا في سورة النحل .

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وترى الجبال تحسبها﴾ بفتح السين وكسرها ﴿جامدة﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح للرؤية ، والرؤية بصرية ، وهذه هي العلامة الثالثة لقيام الساعة ، والمعنى تظنها واقفة قائمة ساكنة مكانها قاله ابن عباس .

﴿وهي تمر مر السحاب﴾ أي : وهي تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التي تسيرها الرياح ، وذلك أن كل شيء عظيم ، وكل جسم كبير ، وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وعظمه ، وبعدما بيِّن أطرافه ، فهو في حساب الناظر واقف وهو سائر ، كذلك سير الجبال يوم القيامة لا يرى لعظمها ، كما أن سير السحاب لا يرى لعظمه .

وقال القتيبي : وذلك أن الجبال تجمع وتسير ، وهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير . قال النسفي : وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت أي : في سمت واحد ، لا تكاد تبين حركتها ، ونحوه قال البيضاوي .

قال القشيري : وهذا يوم القيامة ، ومثله قوله تعالى : وسيرت الجبال فكانت سراباً . وقال أبو السعود : هذا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، يبدل الله الأرض غير الأرض ، ويغير هيئتها ، ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ، ليشاهدها أهل المحشر ، وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسيرها إنما يكون بعد النفخة الثانية ، كما نطق به قوله : فقل ينسفها ربي نسفاً الخ وقوله : يوم تبدل الأرض .

وقد قيل :إن المراد بالنفخة هي النفخة الأولى ، والفزع هو الذي يستتبع الموت ، فيختص أثرها بمن كان حياً عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الأمم ، والمراد بالإتيان داخرين رجوعهم الى أمره تعالى ، وانقيادهم له ، ولا ريب في أن ذلك مما ينبغي أن تنزه ساحة التنزيل عن أمثاله وأبعد من هذا ما قيل :إن المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق فإنه مما لا ارتباط له بالمقام قطعاً ، والحق الذي لا محيد عنه ما قدمناه ، ومما هو نص في الباب ،ما سيأتي من قوله تعالى : وهم من فزع يومئذ آمنون .

﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أي صنع الله ذلك صنعاً ، وهو مصدر مؤكد لقوله : يوم ينفخ في الصور ، وقيل : انظروا صنع الله الذي أحكم ، يقال: رجل تقن بكسر التاء أي حاذق بالأشياء ، والإتقان الإتيان بالشيء على أكمل حالاته ، وهو مأخوذ من قولهم تقن أرضه إذا ساق اليها الماء الخاثر بالطين لتصلح للزراعة ، وأرض تقنة والتقن فعل ذلك بها ، والتقن أيضاً ما رمي به في الغدير من ذلك ، أو الأرض ، ذكره السمين قال ابن عباس : أتقن أي أحسن كل شيء صنعه وخلقه وأوثقه .

﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ تعليل لما قبله من كونه سبحانه صنع ما صنع وأتقن كل شيء ، والخبير المطلع على الظواهر والضمائر ، قرىء بالفوقية على الخطاب ، وبالتحتية على الخبر ،قال المحلى :أي ما يفعلون أعداؤه من المعصية وأولياؤه من الطاعة .

﴿من جاء بالحسنة﴾ أي من جاء بجنس الحسنة يوم القيامة ﴿فله﴾ من الجزاء والثواب عند الله ﴿خير﴾ أي أفضل ﴿منها﴾ وأكثر وقيل :خير حاصل من جهتها ، والأول أولى ، وقيل: الحسنة هي الإخلاص ، وقيل : أداء الفرائض ، والتعميم أولى ، ولا وجه للتخصيص ، وإن قال به بعض السلف .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « من جاء بالحسنة فله خير منها قال: هي لا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، قال هي الشرك » واذا صح هذا عن رسول الله ﷺ فالمصير اليه في التفسير متعين ، ويحمل على أن المراد قال لا إله إلا الله بحقها ، وما يجب لها ، فيدخل تحت ذلك كل طاعة ، ويشهد له ما أخرجه الحاكم في الكنى عن صفوان بن عسال قال رسول الله ﷺ: « اذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشرك يجثوان بين يدي الله سبحانه فيقول الله للإيمان انطلق أنت وأهلك الى الجنة ، ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك الى النار ، ثم تلا رسول الله ﷺ «من جاء بالحسنة فله خير منها يعني قول لا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة يعني الشرك فكبت وجوههم في النار» .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ « من جاء بالحسنة يعني شهادة أن لا إله إلا الله ، فله خير منها ، يعني بالخير الجنة ، ومن جاء بالسيئة يعني الشرك فكبت وجوههم في النار ، وقال هذه تنجي وهذه تردي» ، وعن ابن مسعود وابن عباس مثله ، وعنه قال : خير منها أي من جهتها ، وقال أيضاً خير أي ثواب قيل: وهذه الجملة بيان لقوله: إنه بما تعملون خبير ، وقيل بيان لقوله : وكل أتوه داخرين .

﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ قرىء (من فزع) بالتنوين وفتح ميم يومئذ ، وقرىء بفتحها من غير تنوين ، وقرىء بإضافة فزع الى يومئذ،قال أبو عبيدة: وهذا أعجب الي لأنه أعم التأويلين ، لأن معناه الأمن من فزع جميع ذلك اليوم ، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع . وقيل: إنه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر ، فتكون القراءتان بمعنى واحد وقيل: المراد بالفزع ههنا هو الفزع الأكبر المذكور في قوله: لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وقد تقدم في سورة هود كلام في هذا مستوفى .

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ قال جماعة من الصحابة ، ومن بعدهم حتى قيل إنه مجمع عليه بين أهل التأويل أن المراد بالسيئة هنا الشرك ، ووجه التخصيص قوله ﴿فكبت وجوههم في النار﴾ فهذا الجزاء لا يكون إلا لمثل سيئة الشرك،والمعنى أنهم كبوا فيها على وجوههم ، وألقوا فيها وطرحوا عليها ، يقال:كببت الرجل اذا ألقيته لوجهه ، فانكب ، راكب ، وذكرت الوجوه لأنها موضع الشرف من الحواس فغيرها أولى .

﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ بتقدير القول ، أي يقال لهم ذلك وقت كبهم ، أو مقولاً لهم ذلك ، وهذا أوضح والقائل لهم خزنة جهنم ، أي ما تجزون إلا جزاء عملكم في الدنيا من الشرك والمعاصي ؟

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ والمعاد ، أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة تنبيهاً لهم على أنه قد تم أمر الدعوة،بما لا يزيد عليه . ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله ، والاستغراق في مراقبته ، غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا أصلحوا أو أفسدوا ، ليحملهم ذلك على أن يهتموا بأمر أنفسهم ، ويشتغلوا بالتدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة .

والمعنى قل يامحمد: إنما أمرت ان أخصص الله بالعبادة وحده لا شريك له ، والمراد بالبلدة مكة ، قاله ابن عباس ، وإنما خصها من بين سائر البلاد

لكون بيت الله الحرام فيها ، ولكونها أحب البلاد الى رسول الله ﷺ .

﴿الذي﴾ الموصول صفة للرب ، وهكذا قرأ الجمهور، وقرأ ابن عباس وابن مسعود (التي) على أن الموصول صفة للبلدة ، والسياق إنما هو للرب لا للبلدة ، فلذلك كانت قراءة العامة واضحة ، ومعنى ﴿حرمها﴾ جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يعضد شوكها ، ولا يصاد صيدها ، ولا يختلى خلالها ؛ وتخصيص مكة بهذه الإضافة تشريف لها ؛ وتعظيم لشأنها فلا ينافي قوله ﴿وله﴾ أي للرب ﴿كل شيء﴾ من الأشياء خلقاً وملكاً وتصرفاً .

﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي : المنقادين لأمر الله المستسلمين له بالطاعة وامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والمراد بقوله : (أن أكون) اثبت على ما أنا عليه .

﴿وأن أتلو القرآن﴾ أي أداوم تلاوته وأواظب على ذلك لتنكشف لي حقائقه الرائقة ، المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً . قيل : ليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة الى الايمان ، والأول أولى . قرأ الجمهور (أن أتلو) بإثبات الواو من التلاوة ، وهي القراءة . أو من التلو وهو الاتباع ، كقوله :واتبع ما أوحي اليك من ربك ، وقرىء (أن أتل) بحذف الواو أمراً له ﷺ كذا وجهه الفراء،قال النحاس : ولا تعرف هذه القراءة وهي مخالفة لجميع المصاحف ، ولقد قام ﷺ بكل ما أمر به أتم قيام على ما أمر به .

﴿فمن اهتدى﴾ أي : على العموم ، أو فمن اهتدى بما أتلوه عليه ، فعمل بما فيه من الإيمان بالله والعمل بشرائعه ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾ لأن نفع ذلك راجع اليه لا الى .

﴿ومن ضل﴾ بالكفر ، وأعرض عن الهداية ﴿فقل﴾ له : ﴿إنما أنا من المنذرين﴾ وقد فعلت الإنذار بإبلاغ ذلك اليكم وليس على غير ذلك . وقيل : الجواب محذوف ، أي : فوبال ضلاله عليه ، وأقيم (إنما أنا من المنذرين)

مقامه لكونه كالعلة له ، والأول أظهر ، قيل : نسختها آية القتال .

﴿وقل الحمد لله﴾ على نعمه التي أنعم بها عليّ من النبوة والعلم وغير ذلك،ووفقني لتحمل أعبائها ؛ وتبليغ أحكامها الى كافة الورى .

وقوله : ﴿سيريكم آياته﴾ هو من جملة ما أمر به النبي ﷺ أن يقوله ، أي سيريكم الله آياته الباهرة التي نطق بها القرآن في أنفسكم وفي غيركم ، قيل : هو يوم بدر وهو ما أراهم من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وقيل : آياته في السموات والأرض ، وقيل : آياته في الآخرة فيستيقنون بها ، وقيل : هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله في الدنيا .

﴿فتعرفونها﴾ أي تعرفون آياته ودلائل قدرته ووحدانيته . وهذه المعرفة لا تنفع الكفار لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان ؛ وذلك عند حضور الموت ، ثم ختم السورة بقوله :

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ قرىء بالفوقية على الخطاب ، وبالتحتية وهو كلام من جهته سبحانه ، غير داخل تحت الكلام الذي أمر النبي ﷺ أن يقوله ، وفيه ترهيب شديد ، وتهديد عظيم .





سورة القصص

« وتسمى ايضا سورة موسى واسماء السور توقيفية ، وكذا ترتيبها وترتيب الآيات الكريمات » .

وهي ثمان وثمانون آية ؛ وهي مكّية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء .

قال المحلي : هي مكّية الا ﴿ ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد ﴾ نزلت بالجحفة والا ﴿ الذين آتيناهم الكتاب الى لا نبتغي الجاهلين ﴾ انتهى . عن ابن عباس نزلت الاولى بالجحفة. فليست مكّية ولا مدنّية وقال مقاتل فيها من المدني ﴿ الذين آتيناهم الخ ﴾ .



بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

﴿طسم﴾ الله أعلم بمراده بذلك ، والكلام في فاتحة هذه السورة قد مر في فاتحة الشعراء وغيرها ، فلا نعيده .

وكذلك مر الكلام على قوله : ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ قال الزجاج: مبين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وهو من أبان بمعنى أظهر ، ويقال : ابنته فأبان لازم ومتعد ، أي مبين خيره وبركته .

﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ أي : نوحي اليك بواسطة جبريل من أمرهما متلبساً بالحق ، وخص المؤمنين لأن التلاوة انما ينتفع بها المؤمن ، وقيل: نتلو عليك شيئاً من نبئهما . و ﴿من﴾ مزيدة على رأي الأخفش ، والأولى أن تكون للبيان أو للتبعيض ، ولا ملجىء الى الحكم بزيادتها ، والحق : الصدق .

﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ .

قال المفسرون : معنى علا تكبر وتعظم وتجبر بسلطانه ، والمراد بالأرض أرض مصر ، وقيل : معنى ﴿علا﴾ ادعى الربوبية ، وقيل : علا عن عبادة ربه ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي : فرقاً وأصنافاً في خدمته يشايعونه على ما يريد

ويطيعونه ، قال مجاهد : فرق بينهم ، وقال قتادة: يستعبد طائفة منهم ، ويدع طائفة ويقتل طائفة ، ويستحيي طائفة ، أو فرقاً متفرقة ، قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم .

﴿يستضعف طائفة منهم﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقاً وأصنافاً ، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل .

(جعل) أي : جعلهم شيعاً ، حال كونه مستضعفاً طائفة منهم ، ويجوز أن تكون صفة لطائفة . والطائفة هم بنو إسرائيل ، فإنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ، وذلك أن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس ، وعملوا المعاصي ، ولم يأمروا بالمعروف ، ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم ؛ إلى أن أنجاهم الله على يد موسى عليه السلام .

﴿يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم﴾ بدل من الجملة الأولى ، أو مستأنفة للبيان ، أو حال ، أو صفة كالتي قبلها ، وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ويستبقيهن لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني اسرائيل .

قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون،فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل ؟ وإن كان كاذباً فلا معنى للقتل ، وقد قيل : إنه ذبح سبعين ألفاً .

﴿إنه كان من المفسدين﴾ الراسخين في الإفساد في الأرض بالمعاصي والتجبر ، ولذلك اجترأ على مثل تلك الجريمة العظيمة من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء عليهم السلام،وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الفساد .

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية،واستحضار صورتها ، أي : نريد أن نتفضل عليهم بإنجائهم من بأسه،بعد استضعافهم ، وقال النسفي : وهو دليل لنا على مسألة الأصلح انتهى والمراد بهؤلاء بنو إسرائيل ، والواو للعطف على جملة : إن

فرعون علا . وهذا أولى .

﴿ونجعلهم أئمة﴾ أي : قادة في الخير ، ودعاة اليه ، يقتدى بهم ، وولاة على الناس ، وملوكاً فيهم ، بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين مهانين ، قال علي بن أبي طالب : يعني يوسف وولده ، وقال قتادة : أي ولاة الأمر ، وهم بنو اسرائيل .

﴿ونجعلهم الوارثين﴾ أي الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه ، لا الوراثة المعهودة في شرعنا ، قاله قتادة ، أي : نجعلهم الوارثين لملك فرعون ومساكن القبط واملاكهم ، فيكون ملك فرعون فيهم ، ويسكنون مساكن قومه ، وينتفعون بأملاكه وأملاكهم .

﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ أي نجعلهم مقتدرين عليها ، وعلى أهلها ، مسلطين على ذلك ، يتصرفون فيها كيف شاءوا ، يقال : مكن له اذا جعل له مكاناً يقعد عليه ، ويتمكن فيه ، أو يرقد ، ثم استعير للتسلط وإطلاق الأمر ، و (الأرض) أرض مصر والشام .

﴿ونرى فرعون ، وهامان ، وجنودهما﴾ الفاعل هو الله سبحانه ، وقرىء (يرى﴾ بالتحتية والفاعل فرعون ، والأولى ألصق بالسياق ، لأن قبلها ﴿نريد﴾ و ﴿نمكن﴾ بالنون ، وأجاز الفراء : ويرى فرعون ، أي ويرى الله فرعون ، والرؤية بصرية ، والاضافة اليهما إما للتغليب ، أو أنه كان لهامان جنود مخصوصة به ، وإن كان وزيراً ، أو لأن جند السلطان جند وزيره ، والإبصار لا يتوقف على الحياة عند أهل الحق ، ولذلك قال ﷺ في أهل القليب : ما أنتم بأسمع منهم أو المراد رؤية طلائعه وأسبابه ، وذلك حين أدركهم الغرق .

﴿منهم﴾ أي : من أولئك المستعضفين ﴿ما كانوا يحذرون﴾ والمعنى أن الله يريهم ، أو يرون هم الذي كانوا يخافون منه ، ويجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم ، وهلاكهم على يد المولود من بني اسرائيل المستضعفين والحذر التوقي من الضرر .

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

﴿وأوحينا الى أم موسى﴾ أي : ألهمناها الذي صنعت بموسى ، قاله ابن عباس :وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى الى الرسل ، وقيل : كان ذلك رؤيا في منامها،وقيل : كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام ، وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية وإنما كان إرسال الملك اليها عند من قال به نحو تكلم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما . وقد سلمت على عمران ابن حصين الملائكة ، كما في الحديث الثابت في الصحيح ، فلم يكن بذلك نبياً ، وكان اسمها يوحانذ ، وقيل : لوخا بنت هاند بن لاوي بن **يعقوب**، نقله القرطبي عن الثعلبي .

﴿أن أرضعيه﴾ أن هي المفسرة ، لأن في الوحي معنى القول ، أو بأن أرضعيه قيل : أرضعته ثمانية أشهر ، وقيل : أربعة ، وقيل : ثلاثة ، وكانت ترضعه وهو لا يبكي ولا يتحرك في حجرها ، وكان الوحي برضاعه قبل ولادتها ، وقيل : بعدها ، وأمرها بإرضاعه مع أنها ترضعه طبعاً ليألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها ، بعد وقوعه في يد فرعون .

﴿فإذا خفت عليه﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره اليه فيذبحه ، قال ابن عباس : أن يسمع جيرانك صوته ﴿فألقيه في اليم﴾ وهو بحر النيل ، وقد تقدم بيان الكيفية التي ألقته في اليم عليها في سورة طه ﴿ولا تخافي﴾ عليه الغرق والضيعة .

﴿ولا تحزني﴾ لفراقه والخوف غم يصيب الانسان لأمر يتوقعه في المستقبل ، والحزن غم يصيبه لأمر وقع ومضى ، فلا يقال ما الفرق بينهما ، حتى عطف أحدهما على الآخر في الآية .

﴿إنا رادوه اليك﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ، وتأمنين عليه ، والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن .

﴿وجاعلوه من المرسلين﴾ الذين نرسلهم الى العباد ، وقد اشتملت هذه الآية على أمرين : **أرضعيه** ، **وألقيه** ، ونهيين : **لا تخافي** ، **ولا تحزني** ، وخبرين : **إنا رادوه** ، **وجاعلوه** ، وبشارتين في ضمن الخبرين ، وهما **الرد** ، **والجعل** المذكوران .

﴿فالتقطه آل فرعون﴾ الفاء هي الفصيحة ، والالتقاط إصابة الشيء من غير طلب ، والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر ، والتقدير فألقته في اليم بعدما جعلته في التابوت ، فالتقطه من وجده من آل فرعون ، أي أعوانه ، قال الزجاج : كان فرعون من أهل فارس من اصطخر .

﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ اللام لام العاقبة ، ووجه ذلك أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولداً وقرة عين ؛ لا ليكون عدواً ، فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدواً يقتل رجالهم ، وحزناً يستعبد نساءهم ، قاله المحلي وقال صاحب الكشاف : هي لام كي التي معناها التعليل ، ولكن هذا المعنى وارد على طريق المجاز ، لأنه لما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم ، وثمرة له ، شبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله ، قرىء حزناً بفتح الحاء والزاي ، وحزنا بضم الحاء وسكون الزاي ، وهما لغتان كالعدم والعدم ، والرشد والرشد والسقم والسقم .

﴿إن فرعون وهامان وجنودهما﴾ تعليل لما قبله ، أو اعتراض لقصد التأكيد ﴿كانوا خاطئين﴾ أي : عاصين آثمين في كل أفعالهم ، وأقوالهم

فعوقبوا على يديه مع أنه تربى على أيديهم ، فهذا أبلغ في إذلالهم ، وهو مأخوذ من[١] الخطأ المقابل للصواب لأنهم لم يشعروا أنه الذي يذهب بملكهم ، أو من خطا يخطو أي تجاوز الصواب .

﴿وقالت امرأة فرعون﴾ وقد هم مع أعوانه لقتله . وهي آسية بنت مزاحم ، وكانت من خيار النساء ، وبنات الأنبياء ، وقيل : كانت من بني اسرائيل ، وقيل : كانت عمة موسى ، حكاه السهيلي .

﴿قرة عين لي ولك﴾ وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له ، لما وصل اليها وأخرجته من التابوت ، وخاطبت بقولها : ﴿لا تقتلوه﴾ فرعون ومن عنده من قومه ، أو فرعون وجده على طريقة التعظيم له . وقرأ ابن مسعود ﴿قالت امرأة فرعون : لا تقتلوه ، قرة عين لي ولك﴾ قيل : إنها قالت : هذا الولد أكبر من سنه ، وأنت تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي .

وقد حكى الفراء عن السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : أن قوله لا تقتلوه من كلام فرعون ، واعترضه بكلام يرجع الى اللفظ ، ويكفي في رده ضعف إسناده ، وقيل: إنها قالت لا تقتلوه، فإن الله أتى به من أرض بعيدة وليس من بني اسرائيل ، ثم عللت ما قالته بالترجي منها لحصول النفع منه لهم والتبني له ، فقالت :

﴿عسى أن ينفعنا﴾ فنُصيب منه خيراً لأن فيه مخايل اليمن ، ودلائل النفع لأهله ﴿أو نتخذه ولداً﴾ وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون ، فوهبه لها ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنهم على خطأ في التقاطه ، وأن هلاكهم على يده فيكون حالاً من آل فرعون ، وهي من كلام الله سبحانه ، وقيل: هي من كلام المرأة أي وبنو اسرائيل لا يدرون أنا التقطناه وهم لا يشعرون قاله الكلبي ، وهو بعيد جداً وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان .

---

(١) لو كان من الخطأ المقابل للصواب لقال « مخطئين » أما الخاطىء فهو من باب خطىء يخطأ خطيئة وليس من باب أخطأ يخطىء خطأ وفي الأول يقول الله تعالى لا يأكله إلا الخاطئون . وفي الثاني يقول الرسول ﷺ رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . المطيعي .

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾

﴿وأصبح﴾ أي صار ﴿فؤاد أم موسى فارغاً﴾ من كل شيء إلا من أمر موسى ؛ كأنها لم تهتم بشيء سواه ، قاله المفسرون . وقال أبو عبيدة : خالياً من ذكر كل من في الدنيا إلا من ذكر موسى ، وقال الحسن ، وابن اسحق وابن زيد : فارغاً مما أوحى الله اليها من قوله: ولا تخافي ولا تحزني ، وذلك لما سول الشيطان لها من غرقه وهلاكه ، وقال الأخفش : فارغاً من الخوف والغم لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدم من الوحي اليها ، وروي مثله عن أبي عبيدة ايضاً ، وقال الكسائي : ناسياً ذاهلاً ، وقيل صفراً من العقل ، وقال العلاء ابن زياد: نافراً.

وقال سعيد ابن جبير : والهاً ، كادت تقول وإبناه من شدة الجزع .

وقال مقاتل : كادت تصيح شفقة عليه من الغرق .

وقيل : المعنى أنها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش .

قال النحاس : وأصح هذه الأقوال الأول والذين قالوه أعلم بكتاب الله فإذا كان فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى ، فهو فارغ من الوحي . وقول من قال فارغاً من الغم غلط قبيح . لأن بعده إن كادت لتبدي به ، لولا أن ربطنا على قلبها ، وقرىء فزعاً مكان فارغاً ، من الفزع ، أي خائفاً وجلاً وقرأ ابن عباس : قرعاً من قرع رأسه إذا انحسر شعره .

﴿إن كادت لتبدي به﴾ من بدا يبدو إذا ظهر ، وأبدى يبدي أي أظهر والمعنى لتظهر أمر موسى ، وانه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش ، والخوف والحزن وقيل: الضمير في (به) عائد الى الوحي الذي أوحي إليها ، والأول أولى وقال الفراء : لتبدي باسمه لضيق صدرها ، وقال ابن عباس : تقول يا ابناه وقيل الباء زائدة للتأكيد،والمعنى لتبديه ، كما تقول أخذت الحبل وبالحبل ، وقيل المعنى لتبدي القول به .

﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ بالعصمة والصبر والتثبت ، قال الزجاج : معنى الربط على القلب إلهام الصبر وتقويته ، وجواب لولا محذوف أي لأبدت .

﴿لتكون من المؤمنين﴾ أي ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد الله وهو قوله إنا رادوه اليك قال يوسف بن الحسين: أمرت أم موسى بشيئين ، ونهيت عن شيئين وبشرت بشيئين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها .

﴿وقالت﴾ أم موسى ﴿لأخته﴾ وهي مريم ، وقال الضحاك إن اسمها كاتمة وقال السهيلي كلثوم ، ذكره الماوردي ﴿قصيه﴾ أي تتبعي أثره واعرفي خبره وانظري أين وقع ؟ والى من صار ؟ يقال قصصت الشيء إذا اتبعت أثره متعرفاً لحاله .

﴿فبصرت به﴾ أي أبصرته . قال المبرد : أبصرته وبصرت به بمعنى،قرىء (بصرت﴾ بفتح الباء وضم الصاد وقرىء بفتحها وبكسرها ﴿عن جنب﴾ أصله عن مكان جنب ومنه الأجنبي وقيل:المراد بقوله عن جنب عن جانب قاله ابن عباس،والمعنى أنها أبصرت اليه متجانفة مخاتلة ، وقرىء عن جانب أي بصرت به مستخفية ، كائنة عن جنب ، أو بعيداً منها وقرىء بضمتين وبضم الجيم وسكون النون،وقال أبو عمرو بن العلاء : إن معنى عن جنب عن شوق

قال : وهي لغة جذام ، يقولون : جنبت اليك أي اشتقت اليك .

﴿وهم لا يشعرون﴾ أنها أخته ؛ وأنها تقصه ، وتتبع أثره ، أخرج الطبراني ، وابن عساكر عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: أما شعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران ؛ وكلثوم أخت موسى ، وامرأة فرعون ؟ قالت: هنيئاً لك يارسول الله ، واخرجه ابن عساكر عن ابن رداد مرفوعاً بأطول من هذا وفي آخره أنها قالت : بالرفاء والبنين .

﴿وحرمنا عليه المراضع﴾ جمع مرضع ، وقيل : جمع مرضع ، بفتح الضاد: هو الرضاع ، أو موضعه وهو الثدي ، أي : منعناه أن يرضع من المرضعات جعله مجازاً إما استعارة أو مرسلاً ، لأن من حرم عليه شيء فقد منعه لأن الصبي ليس من أهل التكليف .

﴿من قبل﴾ أي : من قبل أن نرده الى أمه أو من قبل أن تأتيه أمه ، أو من قبل قصها لأثره،قال ابن عباس : لا يؤتى بمرضع فيقبلها ، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه فلم يرضع من واحدة منهن .

﴿فقالت﴾ أخته لما رأت امتناعه من الرضاع وحنوهم عليه ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟﴾ أي يضمنون لكم القيام به وإرضاعه ، وهي امرأة قتل ولدها ، وأحب شيء اليها أن تجد ولداً ترضعه .

﴿وهم له ناصحون﴾ أي مشفقون عليه لايقصرون في إرضاعه وتربيته ، والنصح : إخلاص العمل من شائبة الفساد ، وفي الكلام حذف أي : قالوا لها : من هم ؟ فقالت : أمي فقيل : وهل لأمك ابن ؟ قالت : نعم ابن اخي هارون ، وكان ولد في السنة التي لا يقتل فيها فدلتهم على أم موسى فدفعوه اليها فقبل ثديها ورضع منه ، قيل: كانوا يعطونها كل يوم ديناراً ، وإنما حل لها ما تأخذه لأنه مال حربي لا أنه أجرة على ارضاع ولدها .

فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها﴾ بولدها ﴿ولا تحزن﴾ حينئذ على فراقه ﴿ولتعلم أن وعد الله﴾ أي : جميع وعده ومن جملة ما وعدها بقوله إنا رادوه اليك ﴿حق﴾ لا خلف فيه واقع لا محالة .

﴿ولكن أكثرهم﴾ أي : أكثر آل فرعون ﴿لا يعلمون﴾ بذلك بل كانوا في غفلة عن القدر ، وسر القضاء ، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك أو لا يعلمون أن الله وعدها بأن يرده اليها وهذه أخته وهذه أمه .

﴿ولما بلغ أشده﴾ أي : نهاية القوة ، وتمام العقل ، وهو جمع شدة كنعمة وأنعم عند سيبويه ، وقد قال ربيعة ومالك: هو الحلم لقوله تعالى : حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً الآية وأقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد وسفيان الثوري وغيرهما . وقيل الأشد ما بين الثمانية عشر الى الثلاثين وقال ابن عباس: ثلاثاً وثلاثين سنة ، وقد تقدم الكلام في بلوغ الأشد في الأنعام .

﴿واستوى﴾ أي اعتدل وتم استحكامه ، والاستواء من الثلاثين الى الأربعين ، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان ، قاله ابن عباس وقيل: الاستواء هو بلوغ الأربعين ، ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين

سنة ، وقيل : الاستواء إشارة الى كمال الخلقة ، وقيل الأشد والاستواء بمعنى واحد ، وهو ضعيف ، لأن العطف يشعر بالمغايرة .

﴿أتيناه حكماً وعلماً﴾ الحكم الحكمة على العموم ، وقيل : النبوة وقيل: الفقه في الدين ؛ والعلم الفهم قاله السدي .وقال مجاهد :الفقه ، وقال ابن اسحق:العلم بدينه ودين آبائه،وقيل : كان هذا قبل النبوة ، وقد تقدم بيان معنى ذلك في البقرة .

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء الذي جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله ؛ وألقت ولدها في البحر ، وصدقت بوعد الله ﴿نجزي المحسنين﴾ على إحسانهم ، والمراد العموم .

﴿ودخل المدينة﴾ أي دخل موسى مدينة مصر الكبرى ،وقيل :مدينة غيرها من مدائن مصر ، وهي منف من أعمال مصر،وقيل :أم خنان أو حابين على رأس فرسخين من مصر ، وقيل مدينة عين شمس .

﴿على حين غفلة من أهلها﴾ أي مستخفياً ،قيل :لما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه عاب ما عليه قوم فرعون وفشا ذلك منه ، فأخافوه فخافهم ، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفياً ، قيل: كان دخوله بين العشاء والعتمة ، قاله ابن عباس ، وقيل : وقت القائلة أي نصف النهار ، قاله ابن عباس أيضاً . وقيل: يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم قال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها فدخل على حين علم منهم فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله :

﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾ أي يختصمان ويتنازعان ﴿هذا من شيعته﴾ أي ممن شايعه على دينه ، وهم بنو اسرائيل ، أي اسرائيلي ، وقيل هو السامري .

﴿وهذا من عدوه﴾ أي من المعادين له على دينه ، وهم قوم فرعون أي قبطي وهو طباخ فرعون ، واسمه فاتون او فليثون ، وكان كافراً اتفاقاً . وأما

الاسرائيلي فقيل : كان مؤمناً ، وقيل : كان كافراً .

﴿فاستغاثه الذي من شيعته﴾ أي طلب منه الإسرائيلي أن ينصره ويعينه على خصمه ، والاستغاثة طلب الغوث ﴿على الذي من عدوه﴾ أي القبطي فأغاثه لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل ، قيل: أراد القبطي أن يسخر الإسرائيلي ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه ، واستغاث موسى .

﴿فوكزه موسى﴾ الوكز الضرب والدفع بجميع الكف ، وهكذا اللكز واللهز ، وقيل اللكز على اللحى والوكز على القلب . وقيل اللكز بأطراف الأصابع ، والوكز بجميع الكف . وقيل بالعكس والنكز كاللكز،وقيل ضربه بعصاه ، وقرأ ابن مسعود فلكزه،وحكى الثعلبي أن في مصحف عثمان فنكزه بالنون ، قال الأصمعي : نكزه بالنون ضربه ودفعه . قال الجوهري : اللكز الضرب على الصدر ، وقال أبو زيد : في جميع الجسد يعني أنه يقال له لكز واللهز :الضرب بجميع اليدين في الصدر ومثله عن أبي عبيدة .

﴿فقضى عليه﴾ الضمير المرفوع لله ، أو للوكز أو لموسى ، وهو الظاهر أي قتله وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه فقد قضيت عليه ، قيل لم يقصد موسى قتل القبطي ، وإنما قصد دفعه ، فأتى ذلك على نفسه خطأ،فندم ودفنه في الرمل ، والوكزة لا تقتل غالباً ، وإنما وافقت ، أجله ، ولهذا :

﴿قال : هذا من عمل الشيطان﴾ وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل لأنه لم يكن إذ ذاك مأموراً بقتل الكفار ، وقيل : إن تلك الحالة حالة كف عن القتال لكونه مأموناً عندهم . فلم يكن له أن يغتالهم فكبر ذلك على موسى ، وقيل إن الاشارة بقوله هذا الى عمل المقتول لكونه كافراً مخالفاً لما يريده الله ، وقيل : إنه اشارة الى المقتول نفسه ، يعني أنه من جند الشيطان وحزبه ، ثم وصف الشيطان بقوله :

﴿إنه عدو مضل مبين﴾ أي : عدو للإنسان يسعى في اضلاله ظاهر العداوة والإضلال ، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه .

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

﴿قال رب إني ظلمت نفسي﴾ بقتل القبطي من غير أمر ﴿فاغفر لي فغفر﴾ الله ﴿له﴾ ذلك ؛ وعلم أنه غفر له بإلهام او بغيره ، ولا يلزم من هذا نبوته في هذا الوقت ﴿إنه هو الغفور﴾ بإقالة الزلل ﴿الرحيم﴾ بإزالة الخلل المتصف بهما في الأبد والأزل .

ووجه استغفاره أنه لم يكن لنبي أن يقتل حتى يؤمر ، وقيل : إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين ، أو أراد أني ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر ، لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلني به ؛ وقيل : معنى فاغفر لي استر ذلك علي لا يطلع عليه فرعون ، وهذا خلاف الظاهر ، فإن موسى عليه السلام ما زال نادماً على ذلك خائفاً من العقوبة بسببه حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول : إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح .

وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوة ، وقيل كان قبل بلوغه سن التكليف ، وأنه كان إذ ذاك في اثنتي عشرة سنة،وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء ولا شك أنهم معصومون عن الكبائر

والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة ، لأن الوكزة في الغالب لا تقتل . وقيل : بل كان من قبيل دفع الصائل . وهو لا إثم فيه وأشار له القرطبي بقوله : وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها وفرض في جميع الشرائع وقيل: هو على سبيل الاتضاع لله تعالى ، والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه . وإن لم يكن هناك ذنب فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ثم لما أجاب الله سؤاله وغفر له ما طلب منه مغفرته .

﴿قال : رب بما أنعمت عليَّ﴾ الباء للقسم وما موصولة أو مصدرية أي : أقسم بإنعامك عليَّ بالمغفرة لأتوبن قاله الزمخشري والمهدوي والماوردي .وقيل : المراد بما أنعم به عليه هو ما آتاه من الحكم والمعرفة والعلم والتوحيد،قاله القرطبي . وقال الثعلبي : أي بالمغفرة فلم تعاقبني .

وجملة ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ كالتفسير للجواب ، وكأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرماً ، ويجوز أن تكون الباء هي باء السببية ؛ متعلقة بمحذوف أي : اعصمني بسبب ما أنعمت به عليَّ . ويكون قوله : فلن أكون ظهيراً مترتباً عليه ، ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى، وتوصل الى إنعامه بإنعامه وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون والانتظام في جملته في ظاهر الأمر او مظاهرته على ما فيه إثم أو تكثير سواده .

قال الكسائي والفراء : ليس قوله هذا خبراً ، بل هو دعاء ؛ أي : فلا تجعلني يارب ظهيراً لهم ، وبها قرأ عبدالله .وقال الفراء :المعنى اللهم فلن أكون الخ ، وقال النحاس: إن جعله من باب الخبر أوفى ، وأشبه بنسق الكلام وفيه دليل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً ، وقيل : أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أؤمر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين ، فعلى هذا كان الإسرائيلي مؤمناً ، ونصرة المؤمنين واجبة في جميع الأديان وقيل: لم يستثن فابتلي في اليوم الثاني ، أي لم يقل فلم أكن ان شاء الله ظهيراً

للمجرمين ، كما قال الله تعالى .

﴿فأصبح في المدينة﴾ أي دخل في وقت الصباح في المدينة التي قتل فيها القبطي ﴿خائفاً يترقب﴾ المكروه أو متى يؤخذ به ، أو يترقب الفرج ، أو الخبر هل وصل الى فرعون أم لا قال النسفي : وفيه دليل على أنه لا بأس بالخوف من دون الله ، بخلاف ما يقوله بعض الناس أنه لا يسوغ الخوف من دون الله سبحانه ، زاد القرطبي وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه .

﴿فإذا الذي استنصره﴾ إذا هي الفجائية أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي استغاثه ﴿بالأمس﴾ يقاتل قبطياً آخر أراد أن يسخره ويظلمه ، كما أراد القبطي الذي قد قتله موسى بالأمس ﴿يستصرخه﴾ أي يستغيث به ، والاستصراخ الاستغاثة ، وهو من الصراخ ، وذلك أن المستغيث يصوت ويصرخ في طلب الغوث .

﴿قال له﴾ أي للاسرائيلي ﴿موسى﴾ واليه ذهب الخازن والمحلي ، أو للقبطي ؛ واليه ذهب القرطبي ﴿إنك لغوي مبين﴾ أي بين الغواية ، وذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته ولا تطيقه ، وقيل إنما قال له هذه المقالة لأنه تسبب بالأمس لمقتل رجل ، ويريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر .

﴿فلما أن أراد﴾ موسى ﴿أن يبطش بالذي﴾ أي القبطي الذي ﴿هو عدو لهما﴾ أي لموسى وللإسرائيلي حيث لم يكن على دينهما .

﴿قال﴾ الإسرائيلي ﴿ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟﴾ قال ذلك، لما سمع موسى يقول له إنك لغوي مبين ، ورآه يريد أن يبطش بالقبطي، ظن أنه يريد أن يبطش به ، فلما سمع القبطي ذلك أفشاه ، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلي هكذا قال جمهور المفسرين وقيل : إن القائل هو القبطي ، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي ، وهذا هو الظاهر ؛ وقد سبق ذكر

القبطي قبل هذا بلا فصل ، لأنه هو المراد بقوله عدو لهما ، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم منه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرة الأولى ، والمرة الأخرى هو الذي أفشى عليه .

وايضاً أن قوله ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾ لا يليق صدور مثله إلا من كافر ، و (إن) هي النافية أي ما تريد ، قال الزجاج: الجبار في اللغة الذي يتعاظم ، ولا يتواضع لأمر الله ، والقاتل بغير حق جبار . وقيل :الجبار الذي يفعل ما يريد ، من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن .وقال عكرمة :لا يكون الرجل جباراً حتى يقتل نفسين . وهو بعيد ، ولا دلالة في الآية على ذلك ، والراجح هو الأول الموافق باللغة .

﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ بين الناس ، فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن .

﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾ قيل :المراد بهذا الرجل حزقيل وهو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم موسى ، وقيل: اسمه شمعون . وقيل طالوت وقيل :سمعان ، والمراد بأقصى المدينة آخرها وأبعدها ، والمعنى يسرع في مشيه وأخذ طريقاً قريباً حتى سبق الى موسى وأخبره وأنذره بما سمع .

﴿قال ياموسى إن الملأ﴾ أي أشراف قوم فرعون ﴿يأتمرون بك ليقتلوك﴾ أي يتشاورون في قتلك ويتآمرون بسببك ، وإنما سمي التشاور ائتماراً لأن كُلًّا من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر به ، قال الزجاج : يأمر بعضهم بعضاً بقتلك وهذا أقرب باللفظ والمعنى قاله الحفناوي وقال ابو عبيدة: يتشاورون فيك ، قال الأزهري: ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضاً ونظيره قوله تعالى :وائتمروا بينكم بمعروف .

﴿فاخرج﴾ من المدينة ﴿إني لك من الناصحين﴾ في الأمر بالخروج واللام للبيان لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ
قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً
مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا
لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ
قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ
قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿فخرج﴾ موسى ﴿منها﴾ أي من المدينة ﴿خائفاً يترقب﴾ أي حال كونه خائفاً من الظالمين مترقباً لحوقهم به ، وإداركهم له أو راجياً غوث الله إياه ، قولان للمفسرين ، وعن ابن عباس قال: خرج موسى من مصر الى مدين وبينه وبينها ثمان ليال ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ، وخرج حافياً فما وصل اليها حتى وقع خف قدمه . وعنه قال: خرج موسى خائفاً جائعاً ليس معه زاد ، حتى انتهى الى ماء مدين وهو أول ابتلاء من الله تعالى لموسى ، ثم دعا ربه بأن ينجيه ممن خافه .

و ﴿قال: رب نجني من القوم الظالمين﴾ قوم فرعون ، أي خلصني منهم وادفعهم عني،وحل بيني وبينهم ، واحفظني من لحوقهم .

﴿ولما توجه﴾ أي قصد بوجهه ﴿تلقاء مدين﴾ أي نحوها ، وجهتها قاصداً لها ماضياً اليها . قال الزجاج:أي سلك في الطريق التي تلقاء مدين فيها انتهى والتوجه : الإقبال على الشيء ومدين قرية شعيب ، يقال : داره تلقاء دار فلان ، وأصله من اللقاء ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون ،

ولهذا خرج اليها ولكن لم يكن يعرف طريقها .

﴿قال : عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي : يرشدني نحو الطريق المستوية الى مدين وهو من إضافة الصفة للموصوف وكان لها ثلاث طرق،فأخذ موسى الوسطى ، وجاء الطلاب في أثره فساروا في الأخريين ، ذكره أبو السعود .

﴿ولما ورد ماء مدين﴾ أي : وصل اليه وهو الماء الذي يستقون منه ، والمراد بالماء هنا بئر فيها ، صرح به الخازن والمحلي ، فهو من باب ذكر الحال وإرادة المحل ، ولفظ الورود قد يطلق على الدخول في المورد ، وقد يطلق على البلوغ اليه وإن لم يدخل فيه وهو المراد هنا،وقد تقدم تحقيق معنى الورود في قوله : وإن منكم إلا واردها ، وقيل : مدين اسم للقبيلة لا للقرية ، وهي غير منصرفة على كلا التقديرين .

﴿وجد عليه أمة﴾ أي : وجد على الماء جماعة كثيرة لأن التنكير للتكثير ﴿من الناس﴾ أي من أناس مختلفين ﴿يسقون﴾ مواشيهم ﴿ووجد من دونهم﴾ أي:من دون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التي جاء منها وقيل:معناه في موضع أسفل منهم قاله أبو السعود ، وفي الخازن :في موضع بعيد منهم .

﴿امرأتين تذودان﴾ أي تحبسان أغنامهما من الماء،حتى يفرغ الناس،ويخلو بينهما وبين الماء ، وبه قال ابن عباس ، وورد الذود بمعنى الطرد ، أي تطردان ، وقيل : تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس ، وقيل : تمنعان أغنامهما عن أن تند ، وتذهب ، والأول أولى لقوله :

﴿قال﴾ موسى للمرأتين ﴿ما خطبكما ؟﴾ أي : ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس ؟ والخطب الشأن ، قيل : وإنما يقال ما خطبك لمصاب أو لمضطهد أو لمن يأتي بمنكر .

﴿قالتا﴾ عادتنا التأني ﴿لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ عن الماء ،

وينصرفوا منه حذراً من مخالطتهم ، أو عجزاً عن السقي معهم ، قرىء نسقي بفتح النون ، وبضمها من أسقى ، وقرىء يصدر من أصدر . ومن صدر يصدر لازماً : أي : يرجعون مواشيهم،والرعاء جمع راع على غير قياس ؛ لأن فاعلا الوصف المعتل اللام كقاض قياسه فعله نحو قضاة ورماة خلافاً للزمخشري في أن جمعه على فعال قياس ، كصيام وقيام قاله الكرخي . قرأ الجمهور : الرعاء بكسر الراء وقرىء بفتحها قال أبو الفضل : هو مصدر أقيم مقام الصفة فلذلك استوى فيه الواحد والجمع ، وقرىء الرعاء بالضم اسم جمع .

﴿وأبونا شيخ كبير﴾ عالي السن ، وهذا من تمام كلامهما إبداء منهما للعذر في مباشرة السقي أنفسهما أي : لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر ؛ فلذلك احتجنا ونحن امرأتان ضعيفتان مستورتان ؛ لا نقدر على مزاحمة الرجال وعلى أن نسقي الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك،قيل : أبوهما شعيب وقيل : هو ثيرون ابن أخي شعيب ، وقيل : هو رجل ممن آمن بشعيب ؛ والأول أولى .

وإنما رضي شعيب لابنتيه بسقي الماشية ، لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور ، والدين لا يأباه . وأما المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر ، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة الضرورة ، فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ورحمهما .

﴿فسقى لهما﴾ أي : سقى أغنامهما لأجلهما رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف ، قال المحلي : سقى من بئر أخرى ، لقربها ، رفع حجراً عنها لا يرفعه إلا عشرة أنفس انتهى ﴿ثم﴾ لما فرغ من السقي لهما ﴿تولى إلى الظل﴾ أي : انصرف اليه فجلس فيه من شدة الحر وهو جائع . قيل : كان هذا الظل ظل سمرة هنالك ، وهي شجرة من شجر الطلح وفيه دليل على جواز الاستراحة في الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة .

﴿فقال﴾ أي ثم قال لما أصابه من الجهد والتعب منادياً لربه ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير﴾ أي خير كان ﴿فقير﴾ أي محتاج الى ذلك واللام بمعنى الى ، قال الأخفش : يقال هو فقير له واليه ، قال ابن عباس لقد قال موسى رب الخ وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر الى شق تمرة ، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع .وعنه قال : ما سأل إلا الطعام ؛وعنه قال : سأل فلقاً من الخبز يشد بها صلبه من الجوع ، ويحتمل أن يريد أني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين ، لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، قال ذلك رضاء بالبدل السني ، وفرحاً بالعوض الهني ، وشكراً لله الغني . وقال ابن عطاء : نظر من العبودية الى الربوبية ، وتكلم بلسان الافتقار ، لما ورد على سره من الأنوار .

﴿فجاءته إحداهما﴾ في الكلام حذف يدل عليه السياق ،قال الزجاج : تقديره فذهبتا الى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي ، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما ، فأمر الكبرى من بنتيه وهي صفورا ، وقيل :صفراء وقيل: أمر الصغرى،وهي ليا وقيل : صفيراء أن تدعوه له فجاءته ، وذهب أكثر المفسرين اليه أنهما ابنتا شعيب ، وقيل : هما ابنتا أخي شعيب كان قد مات،والأول أرجح وهو ظاهر القرآن.

﴿تمشي﴾ كائنة ﴿على استحياء﴾ حالتي المشي والمجيء لا عند المجيء فقط وهذا دليل كمال إيمانها ، وشرف عنصرها ، لأنها كانت تدعوه الى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا ؟ فأتته مستحيية . قال عمر بن الخطاب :جاءت مستترة بكم درعها على وجهها من الحياء ، والحياء والاستحياء بالمد الحشمة والانقباض والانزواء ، ويتعدى بنفسه وبالحرف ، يقال: استحييته واستحييت منه .

﴿قالت إن أبي يدعوك﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر،كأنه قيل : ماذا قالت

له لما جاءته فقيل قالت الخ ﴿ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي جزاء سقيك لنا ، فأجابها منكراً في نفسه أخذ الأجرة ، وقيل أجاب لوجه الله ، أو للتبرك برؤية الشيخ ، لما سمع منها أن أباهما شيخ كبير .

﴿فلما جاءه﴾ أي جاء موسى شعيباً ،عن أبي حازم قال :لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء فقال له شعيب كل قال موسى أعوذ بالله ؛ قال ولم ألست بجائع ؟ قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً عما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، قال: لا والله ولكنها عادتي . وعادة آبائي . نقري الضيف ونطعم الطعام ، فجلس موسى فأكل .

﴿وقص عليه القصص﴾ مصدر يسمى به المفعول أي المقصوص ، يعني أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطي الى عند وصوله الى ماء مدين ، وعن مالك ابن أنس :أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قص عليه القصص .

﴿قال﴾ شعيب: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي فرعون وأصحابه لأن فرعون لا سلطان له على مدين ، وفيه دليل على جواز العمل بخبر الواحد ولو عبداً أو أنثى ، وعلى المشي مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع وللرازي في هذا الموضع إشكالات باردة جداً لا تستحق أن تذكر في تفسير كلام الله عز وجل ، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلاً عن الكامل ؛ وأسف ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقي،ويجاب عنه بأنه اتبع سنة الله في إجابة دعوة نبي من أنبياء الله ، ولم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل ، ولهذا ورد أنه لما قدم اليه الطعام قال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً كما مر ، وفي الكشاف: أن طلب الأجرة لشدة الفاقة غير منكر ، ويشهد لصحته لو شئت لاتخذت عليه أجراً .

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

﴿قالت إحداهما﴾ وهي التي جاءته ﴿يا أبت استأجره﴾ ليرعى لنا الغنم وفيه دليل على أن الإجازة كانت عندهم مشروعة ، وقد اتفق على جوازها ومشروعيتها جميع علماء الاسلام إلا الأصم ، فإنه عن سماع أداتها أصم .

﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها الى استئجار موسى ، أي أنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعاً بين خصلتي القوة والأمانة ولم يقل تستأجر مع أنه الظاهر لأنه جعله لتحققه وتجربته منزلاً منزلة ما مضى وعرف قبل .

وقد روى عن ابن عباس ، وعمر: أن أباهـا سألها عن وصفها له بالقوة والأمانة فأجابته: أما قوته فرفعه الحجر لا يطيقه إلا عشرة رجال ، وأما أمانته فقال امش خلفي وانعتي لي الطريق ، فإني اكره أن تصيب الريح ثيـابك فتصف لي جسدك ، فزاده ذلك رغبة فيه، وعن ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف في قوله عسى أن ينفعنا ، وأبو بكر في أمر عمر .

﴿قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ الكبرى أو الصغرى وفيه مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة في الإسلام كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، والقصة معروفة وغير

ذلك مما وقع في أيام الصحابة وأيام النبوة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ .

قيل : زوجه الكبرى ، وقال الأكثرون: إنه زوجه الصغرى منهما واسمها صفورا ، وهي التي ذهبت في طلب موسى و (هاتين) يدل على أنه كان له غيرهما وقد قال البقاعي : إن له سبع بنات كما في التوراة ، وهذه مواعدة منه ، ولم يكن ذلك عقد نكاح إذ لو كان عقداً لقال:قد أنكحتك .

﴿على أن تأجرني ثماني حجج﴾ جمع حجة وهي السنة قال الفراء: يقال : على أن تجعل ثوابي أن ترعى غنمي ثماني سنين . قال المبرد : يقال أجرت داري ومملوكي غير ممدود ، وممدوداً والأول أكثر ، والتزوج على رعي الغنم جائز بالاجماع لأنه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة .

﴿فإن أتممت﴾ ما استأجرتك عليه من الرعي ﴿ عشراً﴾ من السنين ﴿فمن عندك﴾ أي تفضلاً منك وتبرعاً ، لا إلزاماً مني لك وليس بواجب عليك ، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام الى تمام عشرة أعوام،موكولاً الى المروءة أي فهي من عندك ، والظاهر أنه استدعاء عقد بالأجل الأول نظراً الى شرعنا ، ويمكن كونه عقداً صحيحاً عندهم قاله الكرخي .

﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ بإلزامك إتمام العشرة الأعوام ، ولا بالمناقشة في مراعاة الأوقات ، واستيفاء الأعمال ، واشتقاق المشقة من الشق أي شق ظنه نصفين ، فتارة يقول : أطيق وتارة يقول : لا أُطيق ، ثم رغبة في قبول الإجازة فقال ﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ في حسن الصحبة ولطف المعاملة ولين الجانب ، والوفاء بالعهد ، وقيل أراد الصلاح على العموم فيدخل صلاح المعاملة في تلك الإجازة تحت الآية دخولاً أولياً ، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضاً للأمر إلى توفيق الله ومعونته ، وللتبرك به لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى .

قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى و ﴿قال ذلك بيني وبينك﴾ والإشارة الى ما تعاقدا عليه ﴿أيما الأجلين قضيت﴾ شرطية وجوابها :

﴿فلا عدوان عليّ ﴾ والمراد بالأجلين الثمانية الأعوام ، والعشرة الأعوام ومعنى قضيت : وفيت به ، وأتممته ، وفرغت منه ، و (الأجلين) مخفوض بإضافة (أي) اليه و (ما) زائدة أو مخفوضة بإضافة أي اليها والأجلين بدل منها ، وقرأ ابن مسعود : أي الأجلين ما قضيت ، والمعنى لا ظلم عليّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين ، أي كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام ، لا أطالب بالنقصان عن العشرة : وقيل : المعنى كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام ، وهذا أظهر . وأصل العدوان تجاوز الحد في غير ما يجب ، قال المبرد : وقد علم موسى أنه لا عدوان عليه في أتمهما ، ولكنه جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء ، وقرىء عدوان بضم العين وبكسرها .

﴿والله على ما نقول﴾ من هذه الشروط الجارية بيننا ﴿وكيل﴾ أي شاهد وحفيظ فلا سبيل لأحدنا الى الخروج عن شيء من ذلك ، قيل : هو من قول موسى ، وقيل : من قول شعيب ، والأول أولى لوقوعه في جملة كلام موسى وتم العقد بذلك ولعل هذا كان في شرعهما ، وإلا فهذه الصيغة لا تكفي عندنا في عقد النكاح ، لأن الواقع من شعيب وعد بالإنكاح ، والواقع من موسى ليس

فيه مادة التزويج ، ولا الإنكاح ، وأيضاً الصداق ليس راجعاً للمنكوحة بل لأبيها ، هذا ما جرى عليه المحلي.

وقال غيره : إنهما عقدا عقداً بغير الصورة المذكورة هنا منهما ، قال أبو السعود : ليس ما حكى عنهما في الآية تمام ما جرى بينهما من الكلام في إنشاء عقد النكاح ، وعقد الإجازة وإيقاعهما ، بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على ايقاعه حسبما يتوقف عليه مساق القصة إجمالاً من غير تعرض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلاً .

وأخرج الطبراني وغيره عن عتبة السلمي قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ سورة طسم حتى اذا بلغ قصة موسى قال : « إن موسى آجر نفسه ثماني سنين،أو عشراً على عفة فرجه ، وطعام بطنه ، فلما وفى الأجل قيل يارسول الله أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبرهما وأوفاهما،فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيهما من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاهما ما ولدت غنمه   الحديث بطوله وفيه مسلمة الدمشقي ضعفه الأئمة .

﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ الذي هو أكملهما وأوفاهما ، وهو العشرة الأعوام ، والفاء فصيحة؛عن ابن عباس أنه سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل » ، وصححه الحاكم ، أقول: في قوله إذا قال رسول الله فعل نظر ، فإن موسى لم يقل إنه سيقضي أكثر الأجلين ، بل قال: أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ ، وقد روي عن رسول الله ﷺ : أن موسى قضى أتم الأجلين من طرق أخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله ﷺ « إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل: خيرهما وأبرهما : وإن سئلت أي المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما ، وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره » .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« قال لي جبريل : يا محمد إن سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى ؟ فقل : أوفاهما وإن سألوك أيهما تزوج ؟ فقل الصغرى منهما » فروايات أنه قضى أتم الأجلين لها طرق يقوي بعضها بعضاً .

﴿و﴾ لما تم الأجل ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة ﴿سار بأهله﴾ زوجته بإذن أبيها الى مصر ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه ، وقيل : سار لصلة رحمه وزيارة أمه وأخيه ، وهذا أولى ؛ وفيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء .

﴿آنس من جانب الطور﴾ أي أبصر من الجهة التي تلي الطور ﴿ناراً﴾ وذلك أنه كان في البرية في ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة طه مستوفى ، قال ابن عباس : لما قضى موسى الأجل سار بأهله فضل الطريق ، وكان في الشتاء ، فرفعت له نار فلما رآها ظن أنها نار وكانت من نور الله .

﴿قال لأهله : امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر﴾ أي لعلي أجد من يدلني على الطريق فإن لم أجد خبراً آتيكم بشهاب قبس وهو المراد بقوله ﴿أو جذوة من النار﴾ وهذا تقدم تفسيره ايضاً في سورة طه ، وفي سورة النمل ، وقرىء جذوة بكسر الجيم ، وبضمها وبفتحها ، وهي لغات في العود الذي في رأسه نار ، هذا هو المشهور ، وقيده بعضهم فقال: نار من غير لهب وقد ورد ما يقتضي وجود اللهب فيه، قال الجوهري الجذوة والجذوة الجمرة. والجمع جَذى وجَذيّ وجُذيّ، قال مجاهد: إن الجذوة قطعة من الجمر في لغة العرب، وقال أبو عبيدة: هي القطعة الغليظة من الخشب كأن في طرفها ناراً ولم تكن، وليس المراد هنا إلا ما في رأسه نار قاله السمين .

﴿لعلكم تصطلون﴾ من البرد أي تستدفئون بالنار .

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿فلما أتاها﴾ أي النار التي أبصرها ، وقيل :أتى الشجرة ، والأول أولى لعدم الذكر للشجرة ﴿نودي من﴾ لابتداء الغاية ﴿شاطىء الوادي الأيمن﴾ صفة للشاطىء أو للوادي ، وهو من اليمن وهو البركة أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة الى موسى ، أي الذي يلي يمينه دون يساره ، وشاطىء الوادي طرفه وحافته وكذا الشط والسيف والساحل كلها بمعنى ، قال الراغب وجمع الشاطىء أشطاء قال ابن عباس : كان النداء من السماء الدنيا ، وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضى الله تعالى عنه .

﴿في البقعة﴾ متعلق بنودي أو بمحذوف على انه حال من الشاطىء ﴿المباركة﴾ بتكليم الله تعالى فيها ﴿من الشجرة﴾ بدل اشتمال من شاطىء الوادي لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء،وقال الجوهري:شاطىء الأودية ولا يجمع،قرأ الجمهور:البقعة بضم الباء،وقرىء بفتحها،وهي لغة حكاها أبو زيد .

عن ابن مسعود، قال:«ذكرت لي الشجرة التي أوى اليهما موسى فسرت اليها يومي وليلتي حتى صبحتها فإذا هي سمرة خضراء ترف ، فصليت على النبي ﷺ وسلمت فأهوى اليها بعيري ، وهو جائع ، فأخذ منها ملآن فيه ، فلاكه فلم يستطع أن يسيغه فلفظه ، فصليت على النبي ﷺ وسلمت ، ثم انصرفت» أخرجه عبد ابن حميد وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وقيل : الشجرة العناب ؛ أو العوسج ؛ وقيل : كانت من العليق .

﴿أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين﴾ أن هي المفسرة أو هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ؛ وجملة النداء مفسرة له ، والأول أولى قرى : إني بكسر الهمزة على إضمار القول أو على تضمين النداء معناه ، والفتح قراءة ضعيفة . قال جعفر ، أبصر ناراً دلته على الأنوار لأنه رأى النور في هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس ، وأحاطت به جلابيب الأنس فخوطب بألطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلماً شريفاً أعطي ما سأل ، وأمن مما خاف .

قيل : إن موسى لما رأى النار في الشجرة الخضراء علم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة إلا الله فعلم بذلك أن المتكلم هو الله تعالى وقيل: إن الله خلق في نفس موسى علماً ضرورياً بأن المتكلم هو الله وان ذلك الكلام كلام الله ، وذهب جماعة من المتكلمين منهم الغزالي الى أنه سمع كلامه الأزلي النفسي بلا صوت ولا حرف ، ولا دليل عليه . وقيل : غير ذلك مما لا فائدة في ذكره .

وقال في سورة طه : ﴿إني أنا ربك﴾ وقال في النمل ﴿نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ وهما مخالفان لما هنا من حيث اللفظ إلا أن الجميع متوافق في المقصود وهو فتح باب الاستنباء وسوق الكلام على وجه يؤدي اليه قال الإمام: لا منافاة بين هذه الأشياء فهو تعالى ذكر الكل إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء انتهى .

﴿وأن ألق عصاك﴾ وقد تقدم تفسير هذا وما بعده في طه والنمل ، وفي الكلام حذف ، أي فألقاها فصارت ثعباناً فاهتزت ﴿فلما رآها تهتز﴾ أي : تتحرك ﴿كأنها جان﴾ في سرعة حركتها ، مع عظم جسمها ﴿ولى مدبراً﴾ أي هارباً منهزماً ﴿ولم يعقب﴾ أي : لم يرجع فنودي :

﴿ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ من أن ينالك مكروه من الحية ؛ وقد تقدم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده وكذلك قوله :

ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿اسلك يدك في جيبك﴾ والسلك بالفتح ، والسلوك كل منهما مصدر لسلك الشيء في الشيء أنفذه فيه ، فإنه من باب قعد ونصر ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ فأدخلها فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس من غير برص .

﴿واضمم إليك جناحك﴾ جناح الانسان عضده ؛ ويقال لليد كلها جناح أي : اضمم إليك يديك المبسوطتين لتتقي بهما الحية ، كالخائف الفزع ، وقد عبر هذا المعنى بثلاث عبارات :

الأولى : أسلك يدك في جيبك .

والثانية : واضمم إليك جناحك .

والثالثة : وأدخل يدك في جيبك .

قال الزمخشري : جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً ، وفي الآخر مضموماً اليه ، فالمراد بالجناح المضموم اليد اليمنى ، وبالجناح المضموم

اليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح ، ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعباناً ، وقيل : كل خائف بعد موسى إذا وضع يده على صدره زال خوفه . قال الفراء : أراد بالجناح عصاه .

﴿من الرهب﴾ أي من أجل الخوف ، قرىء بفتح الراء والهاء وبإسكان الهاء،وبضم الراء،واسكان الهاء ؛ وقال بعض أهل المعاني : الرهب الكم بلغة حمير وبني حنيفة ، وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول لآخر : أعطني ما في رهبك ؛ فسألته عن الرهب ؛ فقال : الكم،فعلى هذا يكون معناها اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم .

﴿فذانك﴾ اشارة الى العصا واليد ، قرىء بتخفيف النون ، قيل : والتشديد لغة قريش ، وقرىء بياء تحتية بعد نون مكسورة ؛ وهي لغة هذيل ، وقيل لغة تميم ﴿برهانان﴾ أي حجتان نيرتان ، ودليلان واضحان ؛ وآيتان بينتان ، وسميت الحجة برهاناً لإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء : برهونة .

﴿من ربك﴾ أي:كائنان منه تعالى ، مرسلان أو واصلان .

﴿إلى فرعون وملئه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ متجاوزين الحد في الظلم ، خارجين عن الطاعة أبلغ خروج ، والجملة تعليل لما قبلها ، ولما سمع موسى قول الله سبحانه هذا طلب منه سبحانه أن يقوي قلبه و ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً﴾ يعني القبطي الذي وكزه فقضى عليه ﴿فأخاف أن يقتلون﴾ بها .

﴿وأخي هرون ، هو أفصح مني لساناً﴾ أي : كلاماً لأنه كان في لسان موسى حبسة من وضع الجمر في فيه ، كما تقدم بيانه ، والفصاحة لغة الخلوص يقال : فصح اللبن ،وأفصح فهو فصيح ، أي : خلص من الرغوة ، ومنه فصح الرجل جادت لغته ، وأفصح تكلم بالعربية ، وقيل : الفصيح الذي ينطق والأعجم الذي لا ينطق،وأما في اصطلاح أهل البيان ففصاحة الكلمة خلوصها عن تنافر الحروف والغرابة ، ومخالفة القياس . وفصاحة الكلام خلوصه من ضعف التأليف والتعقيد .

﴿فأرسله معي ردءاً﴾ النصب على الحال أي : عوناً والردء : المعين من أردأته إذا أعنته ، يقال : فلان ردء فلان إذا كان ينصره ، ويشد ظهره . وقيل : من قولهم أردى على المائة إذا زاد عليها فكأن المعنى : أرسله معي زيادة في تصديقي .

﴿يصدقني﴾ بالرفع على الاستئناف ، وبالجزم على جواب الأمر وقرأ أبيّ : يصدقوني ، أي فرعون وملؤه ، وقال ابن عباس : كي يصدقني ، أي هرون ومعنى تصديقه موسى إعانته إياه بزيادة البيان في مظان الجدال ، وتقرير الحجة بتوضيحها ، وتزييف الشبهة ، وتلخيص الدلائل بلسانه .

والجواب عن شبهات الكفار ببيانه ليثبت دعواه لا أن يقول له: صدقت ، ألا ترى الى قوله هو أفصح مني ؟ وفضل الفصاحة إنما يحتاج اليه لتقرير البرهان ؛ لا لقوله صدقت ، فسحبان وباقل فيه يستويان ، وهذا هو الجاري مجرى التصديق كما يصدق القول بالبرهان .

﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ إذا لم يكن معي هرون لعدم انطلاق لساني بالمحاجة .

﴿قال سنشد عضدك بأخيك﴾ هرون ، وكان إذ ذاك بمصر ، أي نقويك به فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور ، ولذلك يعبر عنه باليد ، وعن شدتها بشدة العضد ، فهو مجاز مرسل على طريق إطلاق السبب وارادة المسبب بمرتبتين ، فإن شدة العضد سبب مستلزم لشدة اليد وشدة اليد مستلزمة لقوة الشخص في المرتبة الثانية .

قال الشهاب : الشد التقوية فهو إما كناية تلويحية عن تقويته ، لأن اليد تشد بشد العضد ، والجملة تشتد بشد اليد ، ولا مانع من الحقيقة كما توهم ، أو استعارة تمثيلية ، شبه حال موسى في تقويه بأخيه بحال اليد في تقويها بالعضد ، ويقال في دعاء الخير شد الله عضدك ، وفي ضده فت الله عضدك ، قرأ الجمهور عضدك بفتح العين وضم الضاد وقرىء بضمهما وسكون الضاد ، وبفتحهما .

﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي حجة وبرهاناً أو تسلطاً وغلبة ، وهيبة في قلوب الأعداء ﴿فلا يصلون إليكما﴾ بالأذى والسوء ، ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة ﴿بآياتنا﴾ أي تمنعان منهم بآياتنا أو اذهبا بآياتنا وقيل : الباء للقسم وجوابه ، فلا يصلون ، وما أضعف هذا القول . وقال الأخفش وابن جرير في الكلام تقديم وتأخير ، أي أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا ، وأُولى هذه الوجوه أولها ، وفي قوله ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ تبشير لهما ؛ وتقوية لقلوبهما .

﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ واضحات الدلالة، وقد تقدم وجه إطلاق الآيات وهي جمع على العصا واليد في سورة طه ، وهو أن في كل منهما آيات عديدة .

﴿قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾ أي مختلق مكذوب اختلقته من قبل نفسك ثم افتريته على الله ، أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر ، وليس بمعجزة من عند الله ،أو سحر لم يفعل قبل هذا الوقت مثله .

﴿وما سمعنا بهذا﴾ الذي جئت به من دعوى النبوة او ما سمعنا بهذا السحر ﴿في آبائنا الأولين﴾ أي كائناً أو واقعاً فيهم .

﴿وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ يريد نفسه وإنما جاء بهذه العبارة لئلا يصرح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة ، والله أعلم قرىء وقال بالواو وبغيرها ، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ بالفوقية وهي أوضح من قراءتها بالتحتية ، على أن اسم يكون عاقبة الدار والتذكير لوقوع الفصل ، ولأنه تأنيث مجازي ، والمراد بالدار هنا الدنيا ، وعاقبتها هي الجنة ،وإنما كانت عاقبة لها لأن الدنيا خلقت مجازاً و طريقاً اليها ، او المراد بالدار الدار الآخرة الصادقة على الجنة والنار والإضافة بمعنى في ، والمعنى ومن تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ﴿انه لا يفلح الظالمون﴾ أي إن الشأن أنهم لا يفوزون بمطلب خير .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وقال فرعون : يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ تمسك اللعين بمجرد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه ، وقد كان يعلم أن ربه الله عز وجل والظاهر أنه لا يريد بإلهية نفسه كونه خالقاً للسموات والأرض وما بينهما ، فإن العلم بامتناع ذلك مما لا يخفى على أحد ، فالشك في ذلك يقتضي زوال العقل بالكلية ، فالمخذول لعنه الله كأنه يظن أن الأفلاك والكواكب كافية في اختلاف أحوال هذا العالم السفلي ، فلا حاجة الى اثبات صانع .

قال القاضي : نفي علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه . ولذلك أمر ببناء الصرح ، قلت : هو رد على الزمخشري في قوله : إن المقصود بنفي العلم بالإله نفي وجوده ، ويمكن التوجيه بأن يقال : الوجود وجودان ، وجود ذهني ووجود خارجي والمراد في كلامه الأول .

ولا شك أنه إذا انتفى علم الإنسان بشيء انتفى وجوده في ذهنه ، ولكن ربما كان هذا غير مراد للزمخشري ، لأن الظاهر من كلامه الوجود الشائع عند أهل اللغة ،وهو الخارجي .قال سراج الدين : غرض صاحب الكشاف أن عدم الوجود سبب لعدم العلم بالوجود في الجملة ، ولا شك أنه كذلك فأطلق المسبب وأريد السبب ، لا أن بينهما ملازمة كلية على أنه لما كان من أقوى أسباب عدم العلم لأنه المطرد ، جاز أن يطلق ويراد به الوجود ، إذ لا يشترط عند علماء هذا الفن اللزوم العقلي ، بل العادي والعرفي كاف أيضاً .

وقد يقول أحدمنا : لا أعلم ذلك ، أي : لو كان موجوداً لعلمته إذا قامت قرينة ، وهذا استعمال شائع في عرف العرب والعجم ، عند العامة والخاصة ، كيف ! وكان المخذول يدعي الإلٰهية ! فالظاهر أنه من الكناية لا من المجاز والمصنف إنما ذكر معلومية انتفاء العلم لانتفاء الوجود ليبين أن انتفاء العلم من روادف انتفاء الوجود انتهى . قال الشوكاني : وهو الذي خطر ببالي أنه الجواب ، لكنه عارض ذلك الخاطر إشكالات لا يتسع لها المقام انتهى .

وقد أشار أبو السعود في تفسيره الى الجواب عن هذا الإشكال فقال : وهذا من خواص العلوم الفعلية فإنها لازمة لتحقق معلوماتها ، فيلزم من انتفائها انتفاء معلوماتها ، ولا كذلك العلوم الانفعالية انتهى . وقد وافق على هذا القاضي ، ولاح لك عن هذا جوابان[١] :

الأول : أنه ذكر نفي العلم ، وأراد نفي المعلوم بطريق الكناية على الوجه الذي ذكره السراج .

الثاني : تخصيص العلم بالفعلي لا الانفعالي ، كما ذكره أبو السعود والبيضاوي .

والثالث : أن يراد بالوجود الوجود في ذهن المتكلم بتلك الكلمة ، وفي كل جواب من هذه الأجوبة كلام لا يلتبس على العالم بالفن قال الخفاجي وعلى كل حال فكلام القاضي لا يخلو عن ضعف ، والذي غره فيه كلام صاحب الانتصاف انتهى .

قال ابن عباس : لما قال فرعون هذا القول قال جبريل : يارب طغى عبدك فأذن لي في هلكه ، فقال : ياجبريل بل هو عبدي ولن يسبقني ، له أجل يجيء ذلك الأجل ، فلما قال : أنا ربكم الأعلى ! قال الله : ياجبريل سبقت دعوتك في عبدي ، وقد جاء أوان هلاكه .

---

(١) والأصح (ثلاث إجابات) .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كلمتان قالهما فرعون **﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾، وقوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ قال: كان بينهما أربعون عاماً فأخذه الله نكال الآخرة والأولى»**.

ثم رجع الى تكبره وتجبره وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال :

﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ أي اطبخ لي الطين حتى يصير آجرا أي بعد اتخاذه لبناً ، عن قتادة قال : بلغني أن فرعون أول من طبخ الآجر ، وبنى به . وعن ابن جريج نحوه ، والنداء بـ (يا) في وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر .

﴿فاجعل لي﴾ من هذا الطين الذي توقد عليه حتى يصير آجراً ﴿صرحاً﴾ أي قصراً عالياً ، وقيل منارة ، روي أن هامان بنى صرحاً لم يبلغه بناء أحد من الخلق ، وأراد الله أن يفتنهم فيه ، فضرب الصرح جبريل بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون ، وقطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا هلك .

﴿لعلي أطلع إلى إله موسى﴾ أي أصعد اليه وأنظر وأقف على حاله كأنه توهم أنه لو كان هناك إله كان جسماً في السماء، يمكن الرقي اليه والاطلاع الصعود والطلوع والاطلاع واحد ، يقال : طلع الجبل واطلع أي صعد .

﴿وإني لأظنه﴾ أي موسى ﴿من الكاذبين﴾ في دعواه أن للأرض والخلق إلهاً سواه ، وأنه أرسله .

﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ المراد بها أرض مصر والاستكبار التعاظم بغير استحقاق ، بل بالعدوان لأنها لم تكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى ، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات (وظنوا) أي فرعون وجنوده .

﴿أنهم إلينا لا يرجعون﴾ قرىء مبنياً للمفعول وللفاعل والمراد بالرجوع البعث والمعاد .

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فأخذناه وجنوده﴾ بعد أن عتوا في الكفر وجاوزوا الحد فيه ﴿فنبذناهم في اليم﴾ أي طرحناهم في البحر المالح ، وهو القلزم وفي هذا تفخيم وتعظيم لشأن الأخذ واستحقاراً لمأخوذين كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم ، وقد تقدم بيان الكلام في هذا .

﴿فانظر﴾ يامحمد ﷺ ﴿كيف كان عاقبة الظالمين ؟﴾ حين صاروا الى الهلاك ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي صيرناهم رؤساء متبوعين في الكافرين فكأنهم بإصرارهم على الكفر والتمادي فيه ودعائهم الى الشرك يدعون اتباعهم الى النار لأنهم اقتدوا بهم ، وسلكوا طريقتهم تقليداً لهم ، وفيه دليل على خلق افعال العباد ،وقيل : المعنى إنه يأتم بهم أي يعتبر بهم من جاء بعدهم ، ويتعظ بما أصيبوا به ، والأول أولى .

﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ أي لا ينصرهم أحد ولا يمنعهم مانع من عذاب الله .

﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي : طرداً وإبعاداً أو أمرنا العباد بلعنهم فكل من ذكرهم لعنهم ، والأول أولى . وفي أبي السعود أي : لا تزال تلعنهم الملائكة ؛ والمؤمنون خلفاً عن سلف .

﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ المبعدين ، والمقبوح : المطرود المبعد وقال أبو عبيدة ، وابن كيسان : معناه من المهلكين المقوتين ،وقال أبو زيد : قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحاً أبعده من كل خير .

قال أبو عمرو : قبحت وجهه فالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد ،وقيل : المقبوح :المشوه الخلقة أي فهم من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجوه ، والقبيح أيضاً عظيم الساعد ، مما يلي النصف منه ، الى المرفق والعامل في يوم محذوف ، يفسره (من المقبوحين) أي وقبحوا يوم القيامة وهو الأظهر ، أو هو معطوف على موضع (في هذه الدنيا) أي : وأتبعناهم لعنة يوم القيامة ، أو معطوف على (لعنة) على حذف مضاف أي : ولعنة يوم القيامة ، والوجه الثاني أظهر .

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ أي قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم . وقيل : من بعد ما أهلكنا فرعون وقومه ، وخسفنا بقارون . والتعرض لكون إيتاء التوراة بعد إهلاك الأمم الماضية للإشعار بمسيس الحاجة الداعية اليها تمهيداً لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى إنزال القرآن على رسول الله .

فإن إهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع ، وانطماس آثارها وأحكامها المؤديين الى اختلال نظام العالم المستدعيين للتشريع الجديد ، بتقرير الأصول الباقية على ممر الدهور ، وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور ، وتذكير أحوال الأمم الخالية الموجبة ، كأنه قيل : ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة اليها .

أخرج البزار ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أهلك الله قوماً ؛ ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة » ، ألم تر الى قوله ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما

أهلكنا القرون الأولى﴾ وروي عنه موقوفاً .

﴿بصائر للناس﴾ أي آتينا الكتاب لأجل أن يتبصر الناس به ، أو حال كونه بصائر لهم يبصرون به الحق ، و (البصائر) جمع بصيرة ، وهي نور القلب ، كما أن البصر نور العين ﴿وهدى﴾ يهتدون اليه ، وينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به ﴿ورحمة﴾ من الله رحمهم بها ﴿لعلهم يتذكرون﴾ هذه النعم ، فيشكرون الله ويؤمنون بـه ؛ ويجيبون داعيـه الى ما فيـه خير لهم ويتعظون بما فيه من المواعظ .

﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ هذا شروع في بيان أن إنزال القرآن واقع في بيان شدة الحاجة اليه أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي ، وهو المكان الواقع في شق الغرب،فيكون من باب حذف الموصوف ، وإقامة الصفة مقامه واختاره الزجاج ، وقال الكلبي : بجانب الوادي الغربي ، أي حيث ناجى موسى ربه .

﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ أي عهدنا اليه وكلمناه ، وأحكمنا الأمر معه بالرسالة الى فرعون وقومه ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ لذلك حتى تقف على حقيقته ، وتحكيه من جهة نفسك وقيل : معنى إذ قضينا الى موسى الأمر: إذ كلفناه وألزمناه ، وقيل : أخبرناه أن أمة محمد ﷺ خير الأمم .

ولا يستلزم نفي كونه بجانب الغربي نفي كونه من الشاهدين لأنه يجوز أن يحضر ولا يشهد قيل : المراد بالشاهدين السبعون الذين اختـارهم موسى للميقات وإذا تقرر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد ﷺ ، والمشـاهدة لهـا منه ، وانتفى بـالأدلة الصحيحة أنه لم يتلق ذلك من غيره من البشر ولا علمه معلم منهم كما قدمنا تقريره تبين أنه من عند الله سبحانه بوحي منه الى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك ، فهذا الكلام هو على طريقة ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾.

وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ولكنا أنشأنا قروناً﴾ أي خلقنا أمماً بين زمانك يا محمد ﷺ وزمان موسى ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ أي طالت عليهم المهلة ، وتمادى عليهم الأمد ، وفترت النبوة ، وكانت الأخبار تخفى ، فتغيرت الشرائع والأحكام ، وتُنوسيَت الأديان،واندرست العلوم ووقع التحريف في كثير منها . فتركوا أمر الله ونسوا عهده .

فاقتضت الحكمة التشريع الجديد فجئنا بك رسولاً ، وأوحينا اليك خبر موسى وغيره ليكون معجزة لك وتذكيراً لقومك ومثله قوله سبحانه ﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾ وقد استدل بهذا الكلام على أن الله سبحانه قد عهد الى موسى عهوداً في محمد ﷺ وفي الايمان به ، فلما طال عليهم العمر ، ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود ، وتركوا الوفاء بها .

﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين﴾ أي مقيماً بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم ، وتقص عليهم من جهة نفسك يقال : ثوى يثوي ثواء وثوياً فهو ثاو ، ومن المعلوم أن واقعة مدين كانت قبل واقعتي الطور ، فمقتضى

الترتيب الوقوعي أن تقدم عليهما وإنما وسطت بينهما للتنبيه على أن كُلاًّ منهما برهان مستقل على أن إخباره ﷺ عن هذه القصص بطريق الوحي الألهي ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم أن الكل دليل واحد على ما ذكر .

﴿تتلو عليهم﴾ أي : تقرأ على أهل مدين ﴿آيـاتنا﴾ وتتعلم منهم ، وقيل : تذكرهم بالوعد والوعيد ، وقيل : الضمير لأهل مكة ، والمعنى عليه واضح ، وأكثر المفسرين على الوجه الأول والجملة في محل نصب على الحال ، أو خبر ثان ، ويجوز أن تكون هذه الجملة هي الخبر وثاوياً حال ، وجعلها الفراء مستأنفة ، كأنه قيل : وها أنت تتلو على أمتك .

﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ أي : ارسلناك الى أهل مكة ، وأنزلنا عليك هذه الأخبار ، ولولا ذلك ما علمتها . قال الزجاج : المعنى أنك لم تشاهد قصص الأنبياء ، ولا تليت عليك ، ولكننا أوحيناها اليك وقصصناها عليك .

﴿وما كنت﴾ يامحمد ﴿بجانب الطور﴾ أي : بجانب الجبـل المسمى بالطور ﴿إذ نادينا﴾ موسى لما أتى الى الميقات مع السبعين أن خذ الكتاب بقوة وبين الإرسال وإيتاء التوراة نحو ثلاثين سنة ، وقيل : المنادى هو أمة محمد ﷺ . قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد ﷺ وأمته ؛ قـال : يارب أرنيهم ، فقـال الله : إنك لن تـدركهم ، وإن شئت ناديتهم فـأسمعتك صـوتهم ، قال : بـلى يـا رب أرنيـهم فقال يا أمـة محمد ، فـأجـابـوا من أصلاب آبائهم ؛ فيكون معنى الآية على هذا : ما كنت يامحمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك ، وسيأتي ما يدل على هذا ويقويه ويرجحه .

وعن أبي هريرة في الآية قال : نودوا : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ، واستجبت لكم قبـل أن تدعـوني ، وروي من وجه آخـر عنه مرفوعاً .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل ، وأبو نصر السجزي في الإبانة والديلمي عن عمرو بن عبسة قال : سألت النبي ﷺ عن قوله : وما

كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ما كان النداء ؟ وما كانت الرحمة ؟ قال : كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ، ثم وضعه على عرشه ، ثم نادى : يا أمة محمد سبقت رحمتي على غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم عن حذيفة في الآية قال : نودوا يا أمة محمد ؛ ما دعوتمونا إذ استجبنا لكم ، ولا سألتمونا إذ أعطيناكم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً :«إن الله نادى يا أمة محمد أجيبوا ربكم ، قال : فأجابوا ، وهم في أصلاب آبائهم ، وأرحام أمهاتهم ؛ الى يوم القيامة . فقالوا : لبيك أنت ربنا حقاً ، ونحن عبيدك حقاً ، قال : صدقتم أنا ربكم وأنتم عبيدي حقاً ، قد عفوت عنكم قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة».

﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي : ولكن فعلنا ذلك رحمة منا لكم ، وقيل : ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم ، وقيل : علمناك وقيل: عرفناك قال الأخفش : ولكن رحمناك رحمة،وقال الزجاج : أي فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة . وقال الكسائي : ولكن كان ذلك رحمة،وقرىء رحمة بالرفع أي ولكن أنت رحمة .

﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ والقوم هم أهل مكة ، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله ﷺ في زمان الفترة ، بينه وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة أو بينه وبين اسماعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني اسرائيل ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي : يتعظون بإنذارك .

﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ (لولا) هذه هي الامتناعية وأن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء ، أي ولولا إصابة المصيبة لهم ، وجوابها محذوف ، قال الزجاج : تقديره ما أرسلنا اليهم رسلاً ، يعني

أن الحامل على إرسال الرسل اليهم هو إزاحة عللهم ،فهو كقوله سبحانه ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ وقدره ابن عطية لعاجلناهم بالعقوبة ووافقه على هذا التقدير الواحدي ، فقال : والمعنى لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال اليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم ، قال السمين ولا معنى لهذا ﴿فيقولوا﴾ الفاء للسببية ﴿ربنا لو أرسلت إلينا رسولاً﴾ (لولا) هذه هي التحضيضية ، أي : هلا أرسلت رسولاً من عندك وجوابها قوله ﴿فنتبع آياتك﴾ فلذلك نصب بإضمار أن.

أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « الهالك في الفترة يقول : رب لم يأتني كتاب ولا رسول ثم قرأ هذه الآية والمراد بالآيات : الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة . وانما عطف القول على (تصيبهم) لكونه هو السبب للإرسال ، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول ، وكان وجوده بوجودها ، جعلت العقوبة كأنها هي السبب للإرسال بواسطة القول ، قاله في الكشاف ، وأطال سليمان الجمل في بيان ذلك وذكر عبارة السمين ، والشهاب ، وغيرهما .

وقال أبو السعود : لولا قولهم هذا عند إصابة العقوبة لهم ، بسبب جناياتهم ، ما أرسلناك ، ولكن لما كان قولهم ذلك محققاً لا محيد عنه ، أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم بالكلية ﴿ونكون من المؤمنين﴾ بهذه الآيات ، ومعنى الآية أنا لو عذبناهم لقالوا طال العهد بالرسل ، ولم يرسل الله الينا رسولاً ويظنون أن ذلك عذر لهم ، ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل ، ولكنا أكملنا الحجة وأزحنا العلة ، وأتممنا البيان بإرسالك يامحمد اليهم .

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ أي : فلما جاء أهل مكة الحق من عند

الله ، وهو محمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن :

﴿قالوا﴾ تعنتاً منهم وجدالاً بالباطل . ﴿لولا﴾ هلا ﴿أوتي﴾ هذا الرسول ﴿مثل ما أوتي موسى﴾ من الآيات كاليد ، والعصا ، وغيرهما ، أو التوراة المنزلة عليه جملة واحدة ، فأجاب الله عليهم بقوله :

﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ أي من قبل هذا القول ، أو من قبل ظهور محمد ﷺ ، والمعنى أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد حيث ﴿قالوا : ساحران تظاهرا﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم وعنادهم والمراد بهما موسى ومحمد ﷺ ، والتظاهر التعاون ، أي تعاوناً على السحر .
والضمير في (أو لم يكفروا) لكفار قريش ، وقيل : هو لليهود ، والأول أولى ، فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم ، إلا أن يراد من أنكر نبوة موسى ، كفرعون وقومه فإنهم وصفوا موسى وهرون بالسحر ؛ ولكنهم ليسوا من اليهود ، ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى ومن كفر بمحمد ﷺ ، فإن الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر والذين كفروا بمحمد ﷺ وصفوه أيضا بالسحر ، وقيل المعنى : أو لم يكفر اليهود في عصر محمد ﷺ بما أوتي موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد، قرأ الجمهور : ساحران ، وقرأ الكوفيون سحران ، يعنون التوراة والقرآن وقيل : الإنجيل والقرآن ، قال بالأول : الفراء ، وقال بالثاني : أبو زيد ، وقيل : إن الضمير في (أولم يكفروا) لليهود وأنهم عنوا بقولهم ساحران : عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام ، وقال ابن عباس في الآية هم أهل الكتاب .

﴿وقالوا : إنا بكل كافرون﴾ يعني بكل من موسى ومحمد أو من موسى وهرون ؛ أو من موسى وعيسى ، أو من عيسى ومحمد ، أو بكل من التوراة والانجيل والفرقان على اختلاف الأقوال ، وفي هذه الجملة تقرير لما تقدمها من وصف النبيين بالسحر ، أو من وصف الكتابين به ، وتأكيد لذلك .

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقول لهم قولاً يظهر به عجزهم فقال : ﴿قل﴾ لهم يا محمد إذا لم تؤمنوا بهذين الكتابين وقلتم فيهما ما قلتم :

﴿فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما﴾ أي : من التوراة والقرآن وأوضح وأبين في هداية الخلق ﴿أتبعه﴾ جواب الأمر ، وقد جزمه جمهور القراء لذلك . وقرىء بالرفع على الاستئناف . أي : فإن أتيتم به فأنا أتبعه وقال الفراء : إنه على هذه القراءة صفة الكتاب .

وفي هذا الكلام تهكم بهم وفيه أيضاً دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور ، لأنه رجع الكلام الى الكتابين لا الى الرسولين ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما وصفتم به الرسولين او الكتابين .

﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ أي : لم يفعلوا ما كلفوا به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين ، وهذا كقوله فإن لم تفعلوا ، وقيل : المعنى فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به ، وتعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين ، وجواب الشرط ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ أي : آراءهم الزائغة ، واستحساناتهم الزائفة، بلا حجة ولا برهان، و(أنما) أداة حصر أي

أنهم ليس لهم مستند في ذلك ، ومتمسك يتمسكون به ، وإنما لهم محض هواهم الفاسد .

﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى ؟﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي ، أي : لا أحد أضل منه ، بل هو الفرد الكامل في الضلال .

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ لأنفسهم بالكفر وتكذيب الأنبياء والإعراض عن آيات الله .

﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾ قرىء بتشديد الصاد ، وتخفيفها ، ومعنى الآية أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال ليتصل التذكير ، أو في النظم لتتقرر الدعوة بالحجة ، والمواعظ بالمواعيد ، والنصائح بالعبر ، وبعثنا رسولاً بعد رسول ، وقال أبو عبيدة ، والأخفش : معناه أتممنا . وقال ابن عيينة والسدي : بينا وقال ابن زيد : وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة ، حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا والأول أولى ، وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضهاببعض .وقال مجاهد : جعلناه أوصالاً ، أي : أنواعاً من المعاني والضمير في (لهم) عائد إلى قريش ، وقيل : الى اليهود ، وقيل : للجميع ﴿لعلهم يتذكرون﴾ فيكون التذكر سبباً لإيمانهم ،مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم .

﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ أي : من قبل القرآن ، وقيل : من قبل محمد رسول الله ﷺ .

﴿هم به﴾ أي : بالقرآن ، أو بمحمد ﷺ ﴿يؤمنون﴾ أخبر سبحانه أن طائفة من بني اسرائيل آمنوا بالقرآن ، كعبد الله بن سلام ، وسائر من أسلم من أهل الكتاب ، قيل : نزلت في ثمانين ، أربعون ، من نجران ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية من الشام ، وقال ابن عباس يعني من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب ، والأول أولى .

﴿وإذا يتلى﴾ أي : القرآن : ﴿عليهم قالوا آمنا به﴾ أي : صدقنا به ﴿إنه الحق﴾ الذي نعرفه المنزل ﴿من ربنا﴾ استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به .

﴿إنا كنا من قبله مسلمين﴾ أي مخلصين لله بالتوحيد ، أو مؤمنين بمحمد ﷺ وبما جاء به لما نعلمه من ذكره في التوراة والانجيل من التبشير به ، وأنه سيبعث آخر الزمان وينزل عليه القرآن .

﴿أولئك﴾ أي : الموصوفون بتلك الصفات ﴿يؤتون أجرهم مرتين﴾ بإيمانهم بالكتابين منصوب على المصدر .

قال ابن عباس : نزلت في عشرة رهط ، أنا أحدهم . أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأول والآخر ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده » .

﴿بما صبروا﴾ أي : بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول والكتاب الآخر . وبالنبي الأول والنبي الآخر ، أو بالعمل بهما أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو بصبرهم على أذى المشركين ، وأهل الكتاب ، ومن عاداهم من أهل دينهم .

﴿ويدرأون بالحسنة السيئة﴾ الدرء الدفع أي : يدفعون بالاحتمال ، والكلام الحسن ما يلاقونه من الأذى ، وقيل يدفعون بالطاعة المعصية ، وقيل : بالتوبة والاستغفار الذنوب ، وقيل : بالحلم الأذى ، وقيل بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك .

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي : ينفقون أموالهم في الطاعات ، وفيما أمر به الشرع ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو فقال :

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾

﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ تكرماً وتنزهاً ؛ وتأدباً بآداب الشرع ومثله قوله سبحان ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، واللغو هنا هو ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم ، والاستهزاء بهم .

﴿وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء ولا يلحقكم من نفع إيماننا شيء .

﴿سلام عليكم﴾ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ، ولكن المراد به سلام المتاركة والإعراض والفراق ، ومعناه أمنة لكم منا ، وسلامة ، لا نجاوبكم ولا نجاريكم فيما أنتم فيه ، ولا نقابل لغوكم بمثله .قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال .

﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ أي : لا نطلب صحبتهم ومخالطتهم وقال مقاتل : لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه ، وقال الكلبي : لا نحب دينكم الذي أنتم عليه .

﴿إنـك لا تهدي من أحببت﴾ هدايته من الناس ، وليس ذلك اليك ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ هدايته ﴿وهو أعلم﴾ أي عالم ﴿بالمهتدين﴾ أي : القابلين للهداية المستعدين لها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث المسيب ومسلم وغيره من حـديث أبي هريـرة « أن هـذه الآيـة نـزلت في أبي طـالب لما امتنـع من الاسـلام » ، وقـد تقدم ذلك في براءة قال الزجاج : أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب .

وقد تقرر في الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فيدخل في ذلك أبو طالب دخولاً أولياً ،والآية حجة على المعتزلة لأنهم يقولون : الهدى هو البيان ، وقد هدى الناس أجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم فدل أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء وإعطاء التوفيق والقدرة .

﴿وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي : قال مشركو قريش ، ومن تابعهم إن ندخل في دينك ، ونعمل به يامحمد يتخطفنا العرب من مكة ، وننتزع منها بسرعة ولا طاقة لنا بهم ، وهذا من جملة أعذارهم الباطلة وتعللاتهم العاطلة ، والتخطف في الأصل هو الانتزاع بسرعة ، وقرىء نتخطف بالجزم على جواب الأمر ، وبالرفع على الاستئناف ، ثم رد الله ذلك عليهم رداً مصدراً باستفهام التوبيخ والتقريع ، وألقمهم الحجر فقال :

﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً ؟ ﴾ أي ألم نجعل لهم حرماً ذا أمن ؟ أو مؤمناً يؤمن من دخله ؟ قال أبو البقاء : عداه بنفسه لأنه بمعنى جعل ، كما صرح بذلك في قوله أو«لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا » ومكن متعد بنفسه من غير أن يضمن معنى جعل ، كقوله : مكناهم فيها إن مكناكم فيه ؛ وإسناد الأمن الى

أهل الحرم حقيقة ، والى الحرم مجاز عقلي ، ومن المعروف أنه كان تأمن فيه الظباء من الذئاب ، والحمام من الحدأة ، ثم وصف هذا الحرم بصفة أخرى ، دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة بقوله :

﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ أي : تجمع اليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة ، وتحمل اليه من الشام ، ومصر ، والعراق ، واليمن وتساق اليه ، فمعنى الكلية الكثرة على سبيل المجاز ، كقوله : وأوتيت من كل شيء ، قرىء يجبى بالتحتية اعتبارا بتذكير كل شيء ، ووجود الحائل بين الفعل وبين (ثمرات) وأيضاً ليس تأنيث ثمرات بحقيقي . وبالفوقية اعتباراً بثمرات وقرىء ثمرات بفتحتين وبضمتين ؛ جمع ثمر بضمتين . وقرىء بفتح الثاء وسكون الميم .

﴿رزقاً من لدنا﴾ أي : نسوقه اليهم رزقاً من عندنا أو رازقين ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن ما نقوله حق لفرط جهلهم ، ومزيد غفلتهم ، وعدم تفكرهم في أمر معادهم ، ورشادهم ، لكونهم ممن طبع الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

﴿وكم أهلكنا من قرية﴾ أي : أهل قرية كانوا في خفض عيش ودعة ورخاء ، رد لقولهم : إن نتبع الهدى معك نتخطف الخ بيَّن الله بهذا أن الأمر بالعكس ، وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله ولا يغتروا بالأمن الحاصل لهم فكثير من أهل القرى كان حالهم كحال هؤلاء في الأمن والخصب .

ثم ﴿بطرت﴾ أي : طغت وتمردت وخسرت وأشرت ﴿معيشتها﴾ أي في زمن حياتها ، وقال الكرخي : كفرت نعمة معيشتها ، أي أيام حياتها وهي ما

يعاش به من النبات والحيوان وغيرهما ، يعني وقع منهم البطر فأهلكوا قال الزجاج البطر الطغيان عند النعمة .

وفي القاموس : البطر محركاً النشاط والأشر وقلة احتمال النعمة ، والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة ، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهة ، وفعل الكل كفرح ، وبطر الحق أي : تكبر عنده فلا يقبله .

قال عطاء : عاشوا في البطر ؛ فأكلوا رزق الله ، وعبدوا الأصنام . وقال الزجاج والمازني معناها بطرت في معيشتها فلما حذفت (في) تعدى الفعل كقوله واختار موسى قومه ، وقال الفراء : هو منصوب على التفسير كما تقول بطرك مالك ، وبطرته ، ونظيره قوله تعالى ؛ إلا من سفه نفسه ، ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين ، لأن معنى التفسير أن تكون النكرة دالة على الجنس . وقيل : إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى جهلت .

﴿فتلك مساكنهم﴾ أي منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار كبلاد ثمود ، وقوم شعيب وغيرهم ، قد خربت بما ظلموا .

﴿لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ أي : لم يسكنها أُحد بعدهم إلا زمناً قليلاً كالذي يمر بها مسافراً فإنه يلبث فيها يوماً أو بعض يوم أو المعنى : لم يبق من يسكن فيها إلا أياماً قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم ، وقيل : إن الاستثناء يرجع الى المساكن أي : لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلة من المساكن ، وأكثرها خراب ، كذا قال الفراء وهو قول ضعيف .

﴿وكنا نحن الوارثين﴾ لها منهم لأنهم لم يتركوا وارثاً يرث منازلهم وأموالهم ، ولم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وغيرها .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿وما كان ربك﴾ بيان للعادة الربانية أي : ما صح ، ولا استقام ، وما كان ، وما ثبت في حكمه الماضي ، وقضائه السابق أن يكون ﴿مهلك القرى﴾ الكافر أهلها قبل الإنـذار ﴿حتى يبعث﴾ ويرسـل ﴿في أمها﴾ أي أكبـرها وأعظمها ﴿رسولاً﴾ ينذرهم .

و ﴿يتلو عليهم آياتنا﴾ أي تالياً عليهم آيات الله الدالة الناطقة بما اوجبه الله عليهم ، وما أعده من الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصي ، ومخبراً أن العذاب سينزل بهم اذا لم يؤمنوا ، وخص الأعظم منها بالبعثة اليها لأن فيها أشراف القوم وأهل الفهم والرأي ، وفيها الملوك والأكابر فصارت بهذا الاعتبار كالأم لما حولها من القرى وقال الحسن :أم القرى أولها ، وقيل : المراد بأم القرى هنا مكة كما في قوله : ﴿إن أول بيت وضع للناس﴾ الآية ، والالتفات الى نون العظمة لتربية المهابة والروعة ،وقد تقدم بيان ما تضمنته هذه الآية في آخر سورة يوسف .

﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي:وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث الى امها رسولاً يدعوهم الى الحق في حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر ، بعد الاعذار اليهم ،

وتأكيد الحجة عليهم ، كقوله سبحانه ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ .

﴿وما أوتيتم﴾ ياكفار مكة ﴿من شيء﴾ من الأشياء ﴿فمتاع﴾ أي فهو متاع ﴿الحياة الدنيا﴾ تتمتعون به مدة حياتكم ، أو بعض حياتكم ثم تزولون عنه ، أو يزول عنكم ﴿وزينتها﴾ تتزينون به أيام عيشكم ، ثم يفنى وعلى كل حال فذلك الى فناء وانقضاء .

﴿وما عند الله﴾ من ثوابه وجزائه ﴿خير﴾ من ذلك الزائل الفاني لأنه لذة خالصة عن شوب الكدر ﴿وأبقى﴾ لأنه يدوم أبداً ، وذلك ينقضي بسرعة .

﴿أفلا تعقلون﴾ أن الباقي أفضل من الفاني وما فيه لذة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر ، المنغصة بعوارض البدن والقلب قيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل،قال الشافعي رحمه الله : من وصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف الى المشتغلين بطاعة الله ، وقرىء ؛ يعقلون بالياء،والتاء على الخطاب وهي أرجح لقوله وما أوتيتم .

وأخرج مسلم والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني الحديث بطوله » .

وأخرج عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا ، وأعطش ما كانوا ، وأعرى ما كانوا فمن أطعم لله عز وجل أطعمه الله ومن كسا لله عز وجل كساه الله ، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ومن كان في رضاء الله كان الله في رضاه .

﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً﴾ بالجنة وما فيها (من النعم) التي لا تحصى ﴿فهو لاقيه﴾ أي مدركه ومصيبه لا محالة ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولذلك جيء بالإسمية المفيدة لتحققه ، وعطف بفاء السببية ، والفاء الأول لترتيب

إنكار التساوي بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاعها وبين ما عند الله عز وجل .

﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ؟﴾ المشوب بالأكدار المستتبع للتحسر على الانقطاع ، فأعطي منه بعض ما أراد مع سرعة زواله . وتنغيصه عن قريب .

﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ هذا معطوف على قوله : متعناه داخل معه في حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرر له ، والمعنى ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النـار ، وتخصيص المحضرين بـالذين أحضروا العذاب اقتضاه المقام . وفيه من التهويل ما لا يخفى أي ليس حالهما سواء فإن الموعود بالجنة لا بد أن يظفر بما وعد به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا ، وهذا حال المؤمن .

وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرد التمتع بشيء من الدنيا ، يستوي فيه هو والمؤمن ، وينال كل واحد منهما حظه منه ؛ وهو صائر الى النار ، فهل يستويان ؟

و (ثم) للتراخي في الزمان أو في الرتبة قيل : نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل ، أو في علي وحمزة وأبي جهل ؛ أو في المؤمن والكافر ، أو في عمار ابن ياسر والوليد بن المغيرة .

﴿ويوم يناديهم﴾ أي اذكر يوم ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين(الذين عبدوا غير الله والقصد من هذا النداء توبيخهم وتقريعهم ، بأن معبوداتهم لم تنفعهم في هذا الوقت ﴿فيقول﴾ لهم ﴿أين شركائي الذين﴾ عبدتموهم من دوني ، وأثبَتّم لهم شـركة في استحقـاق العبـادة و ﴿كنتم تـزعمـون﴾ أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم .

قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب، بدخول النار، وهم رؤساء الضلال، الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله كذا قال الكلبي وقال قتادة : هم الشياطين .

﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا﴾ أي: دعوناهم إلى الغواية، يعنون الأتباع في الكفر ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ أي: أضللناهم كما ضللنا ، وآثروا الكفر على الإيمان، كما آثرنا نحن ، وكنا السبب في كفرهم ، فقبلوا منا ، فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم ، وان كان تسويلنا لهم داعياً إلى الكفر ، فقد كان في مقابلته دعاء الله تعالى لهم إلى الايمان بما وضع فيهم من أدلة العقل ، وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد ، والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر، وداعياً إلى الإيمان .

﴿تبرأنا إليك﴾ ممن أطاعنا ؛ وهذا مقرر لما قبله ، ولذلك لم يعطف، قال الزجاج : بريء بعضهم من بعض وصاروا أعداء ، كما قال تعالى :﴿الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾ .

﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ إنما كانوا يعبدون أهواءهم، قيل : ما مصدرية ،

أي تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا والأول أولى .

﴿وقيل﴾ للكفار من بني آدم تهكماً بهم وتبكيتاً لهم ﴿ادعوا شركاءكم﴾ أي : استغيثوا بآلهتكم التي كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا لينصروكم ويدفعوا عنكم ﴿فدعوهم﴾ عند ذلك ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع .

﴿ورأوا﴾ أي التابع والمتبوع ﴿العذاب﴾ قد غشيهم ﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ قال الزجاج جواب لو محذوف أي لأنجاهم ذلك ولم يروا العذاب ، وقيل :المعنى دعوهم ، وقيل :لو كانوا يهتدون في الدنيا لعلموا ان العذاب حق ، وقيل:لو يهتدون بوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب ، وقيل : قد آن لهم أن يهتدواه لو كانوا يهتدون ، وقيل: غير ذلك .

﴿ويوم يناديهم﴾ عطف على ما قبله فسئلوا أولاً عن إشراكهم ، وثانياً عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك كما قال : ﴿فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ أي ما كان جوابكم لمن أرسل اليكم من النبيين لما بلغوا رسالاتي .

﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ﴾ أي خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون ، والأصل فعموا عن الأنباء ، ولكنه عكس الكلام للمبالغة والأنباء الأخبار وأنما سمى حججهم أخباراً لأنها لم تكن من الحجة في شيء وإنما هي أقاصيص وحكايات وقرىء : عميت بضم العين وتشديد الميم .

﴿فهم لا يتساءلون﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب النافع وذلك لفرط الدهشة او لعلمهم بأن الكل سواء في الجهل ، وقيل : لا يسأل بعضهم بعضاً عن الأنساب ، قاله مجاهد : ولا ينطقون بحجة ، ولا يدرون بما يجيبون لأن الله قد أعذر اليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة .

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾

﴿فأما من تاب﴾ من الشرك ﴿وآمن﴾ وصدق بتوحيد الله ﴿وعمل صالحاً﴾ أي أدى الفرائض ﴿فعسى أن يكون من المفلحين﴾ أي الناجين بوعد الله الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين ، وعسى وإن كانت في الأصل للرجاء فهي من الله واجب على ما هو عادة الكرام ، وقيل : إن الترجي هو من قبل التائب المذكور لا من جهة الله سبحانه ، أي فليتوقع الفلاح .

﴿وربك يخلق ما يشاء﴾ أن يخلقه ، وفيه دلالة على خلق الأفعال ﴿ويختار﴾ ما يشاء أن يختار ، لا يسأل عما يفعل ؛ وهم يسألون ؛ وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم ، أي : الاختيار الى الله .

﴿ما كان لهم الخيرة﴾ أي التخير ، وهو كالطيرة فإنها التطير ؛ اسمان يستعملان استعمال المصدر وبمعنى المتخير كقولهم : محمد خيرة الله من خلقه . وقيل : المراد من الآية أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار شيئاً اختياراً حقيقياً بحيث يقدم على تنفيذه بدون اختيار الله ، بل الاختيار هو الى الله عز وجل ، . يختار لطاعته أو لنبوته ، أو المعنى يخلق محمداً ويختار الأنصار لدينه ، وقيل : اختار من النعم ضأناً ، ومن الطير الحمام ، ولا وجه للتخصيص . والعموم أولى .

وظاهر الآية نفي الاختيار عنهم رأساً ، والأمر كذلك ، فإن اختيار العباد مخلوق باختيار الله ، منوط بدواع لا اختيار لهم فيها ، وقيل : إن هذه الآية جواب عن قولهم : ﴿لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وقيل : جواب عن اليهود حيث قالوا : لو كان الرسول إلى محمد ﷺ غير جبريل لآمنا به .

قال الزجاج : الوقف على (ويختار) تام على أن (ما) نافية قال : ويجوز أن يكون (ما) في موضع نصب بـ (يختار) والمعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة ، والصحيح الأول لإجماعهم على الوقف، وقال ابن جرير : إن تقدير الآية ويختار لولايته الخيرة من خلقه . وهذا في غاية من الضعف ، وجوز ابن عطية أن تكون (كان) تامة ويكون (لهم الخيرة) جملة مستأنفة . وهذا أيضاً بعيد جداً ، ومن قال معناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح ، فهو مائل إلى الاعتزال ، وقيل : إن (ما) مصدرية، أي يختار اختيارهم ، والمصدر واقع موقع المفعول به ، أي ويختار مختارهم ، وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير والراجح أول هذه التفاسير ، ومثله قوله سبحانه : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة﴾ وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح تعليم الاستخارة ، وكيفية صلاتها ودعائها ، فلا نطول بذكرها ، ثم نزه سبحانه نفسه فقال :

﴿سبحان الله﴾ أي تنزه تنزهاً خاصاً به ، من غير أن ينازعه منازع ، أو يشاركه مشارك ، أو يزاحم اختياره ﴿وتعالى عما يشركون﴾ أي عن الذين يجعلونهم شركاء له ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم﴾ أي تخفيه قلوبهم وتسره من الشرك ، أو من عداوة رسول الله ﷺ وحسده ، أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق ﴿وما يعلنون﴾ بألسنتهم من ذلك ويظهرونه ، ثم تمدح نفسه سبحانه بالوحدانية ، والتفرد بالاستحقاق للحمد ، فقال :

﴿وهو الله﴾ أي هو المستأثر بالإلهية المختص بها ، وقوله ﴿لا إله إلا

هو﴾ تقرير لذلك ﴿له الحمد في الأولى﴾ أي في الدنيا ﴿والآخرة﴾ لأنه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها ، يحمده المؤمنون في الآخرة ، كما حمدوه في الدنيا والتحميد سمة على وجه اللذة لا على الكلفة ، وهو قولهم : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وقيل الحمد لله رب العالمين .

﴿وله الحكم﴾ أي القضاء النافذ في كل شيء ، فيقضي بين عباده بما شاء من غير مشارك ﴿وإليه﴾ لا الى غيره ﴿ترجعون﴾ بالبعث والنشور ، والخروج من القبور فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿قل﴾ لأهل مكة ﴿أرأيتم ؟﴾ أي أخبروني ﴿إن جعل الله عليكم الليل سرمداً﴾ بإسكان الشمس تحت الارض ، أو بتحريكها حول الأفق الغائر ، والسرمد هو الدائم المستمر ، من السرد ، وهو المتابعة والاطراد ، فالميم زائدة كما في دلامص من الدلاص ، ووزنه فعمل ، وقيل : إن ميمه[1] أصلية ، ووزنه فعلل لا فعمل ، وهو الظاهر ، بين لهم سبحانه أنه مهد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بشكر النعمة ، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلاً دائماً لا نهار معه ﴿إلى يوم القيامة﴾ لم يتمكنوا من الحركة فيه ، وطلب ما لابد لهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم ، والمشارب ، والملابس ، ثم امتن عليهم فقال :

﴿من إله غير الله يأتيكم ؟﴾ أي هل لكم من إله بزعمكم من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم ﴿بضياء﴾ أي بنور تطلبون فيه المعيشة ، وتبصرون فيه ما تحتاجون اليه وتصلح ثماركم ، وتنمو عنده زرائعكم ، وتعيش فيه دوابكم والجملة صفة أخرى لـ (إله) عليها يدور التبكيت والإلزام ﴿أفلا تسمعون ؟﴾ هذا الكلام سماع فهم ، وقبول ، وتدبر وتفكر ، وهذا توبيخ لهم على أبلغ وجه ، ثم لما فرغ الله من الامتنان عليهم بوجود النهار ؛ امتن عليهم بوجود الليل فقال :

---

(١) إذا كانت ميمه أصلية فيكون فعله الماضي على وزن مصدره سرمد يسرمد سرمداً .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً ؟ ﴾أي : جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه نهاراً ﴿إلى يوم القيامة﴾ لا ليل معه بإسكان الشمس في وسط السماء ، أو تحريكها على مدار فوق الأفق .

﴿من إله غير الله ؟﴾ بزعمكم ﴿يأتيكم بليل تسكنون﴾ أي تستقرون ﴿فيه﴾ من النصب والتعب . وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش والكبت .

﴿أفلا تبصرون ؟﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ ، حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله ، فإذا أقروا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل ، فقد لزمتهم الحجة ، وبطل ما يتمسكون به من الشبهة الساقطة ، وإنما قرن سبحانه بالضياء قوله أفلا تسمعون ؟ لأن السمع يدرك مالا يدرك البصر ، ومن درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل قوله أفلا تبصرون ، لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ، ونحوه ، البصر يدرك ما لا يدرك السمع من ذلك .

﴿ومن رحمته﴾ تعالى ﴿جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه﴾ أي في

الليل ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي في النهار بالسعي في المكاسب وفيه مدح للسعي في طلب الرزق،وهو لا ينافي التوكل ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا نعمة الله عليكم ، وهذه الآية من باب اللف والنشر ، واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً ، وطلب الرزق في الليل ممكناً ، وذلك عند طلوع القمر على الأرض ، أو عند الاستضاءة بشيء مما له نور كالسراج ، لكن ذلك قليل نادر ، مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به .

﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ كرر سبحانه هذا لاختلاف الحالتين ، لأنهم ينادون مرة فيدعون الأصنام ، وينادون أخرى فيسكتون وفي هذا التكرار أيضاً تقريع بعد تقريع وتوبيخ بعد توبيخ وإيذان بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده ، أو الأول لتقرير فساد رأيهم ، والثاني لبيان أنه لم يكن عن مستند وإنما هو محض تشبه وهوى .

﴿ونزعنا﴾ جاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق أي أخرجنا ﴿من كل أمة﴾ من الأمم ﴿شهيداً﴾ يشهد عليهم بما قالوا ، قال مجاهد : هم الأنبياء وقيل : عدول كل أمة ، والأول أولى ، ومثله قوله سبحانه : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ ثم بيَّن سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله :

﴿فقلنا﴾ لهم : ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم ودليلكم بأن معي شركاء : فعند ذلك اعترفوا وخرسوا عن إقامة البرهان ولذا قال :

﴿فعلموا أن الحق لله﴾ في الإلهية وأنه وحده لا شريك له ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي غاب عنهم غيبة الشيء الضائع ، وبطل ، وذهب ما كانوا يختلقون من الكذب في الدنيا بأن لله شركاء يستحقون العبادة ، ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون ، لما اشتملت عليه من بديع القدرة ، وعجيب الصنع فقال :

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ قارون على وزن فاعول اسم أعجمي ، ممتنع للعجمة والعلمية . وليس بعربي مشتق من قرنت ، قال الزجاج : لو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف ، قال النخعي وقتادة وغيرهما : كان ابن عم موسى ، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي ابن يعقوب، وموسى هو ابن عمران بن قاهث . وقال ابن اسحق : كان عم موسى لأب وأم ، فجعله أخاً لعمران ، وهما ابنا قاهث . وقيل : هو ابن خالة موسى ، وكان يسمى : المنور ، لحسن صورته ، وكان من السبعين الذين اختارهم موسى للمناجاة فسمع كلام الله ، قاله الرازي ، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، فنافق كما نافق السامري ، وخرج عن طاعة موسى وهو معنى قوله :

﴿ فبغى ﴾ أي جاوز الحد في التجبر والتكبر ، وطلب التفضل ﴿ عليهم ﴾ وأن يكونوا تحت أمره وحسد موسى على رسالته ، وهرون على إمامته . وكفر بالله بعدما آمن بهما ، بسبب كثرة ماله، قال الضحاك : بغية على بني إسرائيل :استخفافه بهم لكثرة ماله وولده ، وقال قتادة : بغيه بنسبة ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته . وقيل : كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم . وقيل : كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية .

﴿وآتيناه من الكنوز﴾ جمع كنز وهو المال المدخر ، سميت أمواله كنوزاً لأنه كان ممتنعاً من أداء الزكاة . قال عطاء : أصاب كنزاً من كنوز يوسف ، وقيل : كان يعمل الكيمياء .

﴿ما إن مفاتحه﴾ (ما) موصولة صلتها (إن) وما في حيزها ، ولهذا كسرت ، ونقل الأخفش الصغير عن الكوفيين منع جعل المكسورة وما في حيزها صلة الذي ، واستقبح ذلك منهم لوروده في الكتاب العزيز في هذا الموضع ، والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به ، وقيل : المراد بالمفاتح الخزائن ، فيكون واحدها مفتحاً بفتح الميم . وقال الواحدي : إن المفاتح الخزائن في قول أكثر المفسرين كقوله : وعنده مفاتح الغيب، قال: هو اختيار الزجاج قال : الأشبه في التفسير أن مفاتحه خزائن ماله ، وقال آخرون : هي جمع مفتاح ، وهو ما يفتح به الباب ، فهذا قول قتادة ومجاهد .

وعن خيثمة قال : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود الإبل كل مفتاح مثل الأصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدة ، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغر محجل ، وعنه قال : وجدت في الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة ما يزيد كل مفتاح منها على أصبع لكل مفتاح كنز . قال الشوكاني : لم أجد في الإنجيل هذا الذي ذكره خيثمة .

﴿لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ أي لتثقل بالجماعة الأقوياء يقال نأى[1] بحمله إذا نهض به مثقلاً ، ويقال نأى بي الحمل أي أثقلني ، والمعنى يثقلهم حمل المفاتيح ، فلا يستطيعون حملها . وقال الرازي : فلا يستطيعون ضبطها لكثرتها انتهى .قال أبو عبيدة :هذا من المقلوب ، والمعنى: لتنوء بها العصبة ،أي تنهض بها، قال أبو زيد : نأوت بالحمل إذا نهضت به ، وقال الفراء معنى تنوء بالعصبة تميلهم بثقلها ، كما يقال يذهب بالبؤس ، ويذهب

(١) ينظر في هذين المثالين فإنه لا صلة لهما بقوله تعالى لتنوء لأنه من باب ناء ينوء لا من باب نأى ينأى أي : من باب نصر ينصر لا من باب فتح يفتح فليحرر. المطيعي .

البؤس ، وذهبت به ، وأذهبته ، وجئت به ، وأجأته ونؤت به ، وأنأوته ، اختار هذا النحاس ، وبه قال كثير من السلف .

وقيل :هو مأخوذ من النأي ، وهو البعد وهو بعيد . وقرىء لينوء بالتحتية أي لينوء الواحد منها ، أو المذكور فحمل على المعنى أو التقدير حملها ، أو ثقلها ، وقيل الضمير في مفاتحه لقارون ، فاكتسب المضاف من المضاف إليه التذكير ،كقولهم :ذهبت أهل اليمامة قاله الزمخشري ، والمراد بالعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض ، قيل:هي من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل من العشرة إلى الخمسة عشر ،وقيل: ما بين العشرة إلى العشرين وقيل:من الخمسة إلى العشرة وقيل :أربعون ،وقيل :سبعون وقيل :غير ذلك. قال ابن عباس:لا ترفعها العصبة من الرجال أولي القوة ، والعصبة أربعون رجلاً .

﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾ أي اذكر ،والمراد بقومه هنا :هم المؤمنون من بني إسرائيل . وقال الفراء : هو موسى ، وهو جمع أريد به الواحد ، والمعنى لا تبطر ، ولا تأشر ، ولا تمرح بكثرة المال .

﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ البطرين الأشرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ، قال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه . وقيل : المعنى لا تفسد ، قال الزجاج : الفرحين والفارحين سواء ، وقال الفراء : معنى الفرحين الذين هم في حال الفرح ، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل ، وقال مجاهد : معنى لا تفرح لا تبغ ، والفرحين الباغين . وقيل : معناه لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين ، وقال ابن عباس الفرحين المرحين ، قيل : إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن ، وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريب فلا يفرح بها .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله ﴾ أي واطلب فيما أعطاك الله من الأموال والثروة والغنى ﴿الدار الآخرة﴾ هي الجنة فأنفقه فيما يرضاه الله كصدقة وصلة رحم ، وإطعام جائع ، وكسوة عار ، ونفقة على محتاج . لا في التجبر والبغي . وقرىء ، واتبع .

﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال جمهور المفسرين: وهو أن يعمل في دنياه لآخرته، ونصيب الإنسان عمره وعمله الصالح، قال الزجاج: معناه لا تنس أن تعمل لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته، وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال، وطلبك إياه، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآني. وقال ابن عباس: أن تعمل فيها لآخرتك، وفسر بعضهم النصيب بالكفن، وعليه قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله رداءآن تدرج فيهما وحنوط

وفسره البيضاوي بما يحتاج إليه منها، وفي الحديث: «اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» وهو مرسل. وهذا ما جرى عليه مجاهد، وابن زيد. وقيل: معناه خذ ما تحتاجه من الدنيا. وأخرج الباقي، وقيل: أمر أن يعدم الفضل ويمسك ما يغنيه.

﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ الكاف للتشبيه، أي أحسن إحساناً كإحسان الله إليك، أو للتعليل، أي أحسن إلى عباد الله بما أنعم به عليك من نعم الدنيا لما أمره بالإحسان بالمال، أمره ثانياً بالإحسان مطلقاً. ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه، وطلاقة الوجه. وحسن اللقاء. وقيل أطع الله واعبده كما أنعم عليك، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: أن جبريل سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي: لا تعمل فيها بمعاصي الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ في الأرض يعني أنه يعاقبهم.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

﴿قال إنما أوتيته﴾ أي المال ﴿على علم عندي﴾ قال قارون : هذه المقالة رداً على من نصحه بما تقدم . أي إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمي . وليس تفضلاً . وهذا العلم الذي جعله سبباً لما ناله من الدنيا قيل هو علم التوراة وقيل علمه بوجوه المكاسب والزراعات ، وأنواع التجارات ، وقيل معرفة الكنوز والدفائن ، وقيل علم الكيمياء ، وقيل المعنى أن الله آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل علمه مني . واختار هذا الزجاج ، وأنكر ما عداه ، ثم رد الله عليه قوله هذا فقال :

﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟﴾ للمال ولو كان المال ، أو القوة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله . وقيل القوة الآلات ، والجمع الأعوان . وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ لقارون ، لأنه قد قرأ التوراة ، وعلم علم القرون الأولى ، وإهلاك الله سبحانه لهم ، أو سمعه من حفاظ التواريخ قاله الكرخي .

﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي لا يسألون سؤال استعتاب كما في قوله : ولا هم يستعتبون ، وما هم من المعتبين ، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ويحاسبون ويشدد

عليهم كما في قوله تعالى : فوربك لنسألنهم أجمعين ، وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة عن المجرمين لأنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه ، زرق العيون . وقال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بغير سؤال وحساب . وقيل لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية ، أو المعنى يعترفون بها بغير سؤال وقيل : لا يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها إذا أراد أن يعاقبهم . قال ابن عادل : وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب .

﴿فخرج﴾ قارون وكان خروجه يوم السبت ﴿على قومه في زينته﴾ أي بأتباعه الكثيرين ، ركباناً متحلين بملابس الذهب والحرير ، على خيول وبغال متحلية ، قاله المحلي .

عن أوس بن أوس الثقفي عن النبي ﷺ قال: «خرج على قومه في أربعة آلاف بغل»[1] . أخرجه ابن مردويه . وقد روى عن جماعة من التابعين أقوال في بيان ما خرج به على قومه من الزينة ، ولا يصح منها شيء مرفوعاً ، بل هي من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرة ، ولا أدري كيف إسناد هذا الحديث الذي رفعه ابن مردويه ؟ فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه . وقد ذكر المفسرون أيضاً في هذه الزينة التي خرج فيها روايات مختلفة ، والمراد أنه خرج في زينة ابتهر لها من رآها ، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها كما حكى الله عنهم بقوله :

﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا﴾ اختلف في هؤلاء القائلين بهذه المقالة فقيل: هم من مؤمني ذلك الوقت ، تمنوا الدنيا ليتقربوا إلى الله تعالى ، ولينفقوه في سبيل الخير ، فتمنوا مثله لا عينه ، حذراً من الحسد ، وقيل : هم قوم من الكفار .

﴿يا﴾ للتنبيه ﴿ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ في الدنيا ﴿إنه لذو حظ عظيم﴾ أي نصيب وبخت ودولة وافرة من الدنيا .

﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ بما وعد الله في الآخرة ، وهم أحبار بني إسرائيل ، قالوا

---

(١) لا يصح مرفوعاً .

للذين تمنوا ﴿ويلكم﴾ كلمة زجر منصوبة بمقدر، أي ألزمكم الله ويلكم، قاله الزمخشري، ومثله في التبيان، وأصل ويلك الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضي .

﴿ثواب الله﴾ في الآخرة بالجنة﴿خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ مما أوتي قارون في الدنيا ، لأن الثواب منافعه عظيمة ، خالصة عن شوائب المضار دائمة ، وهذه النعم على الضد في هذه الصفات فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا يدوم ، وهذا بيان للمفضل عليه .

﴿ولا يلقاها﴾ أي هذه الكلمة التي تكلم بها الأحبار وقيل : الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة ، وقيل إلى الجنة ، والمعنى لا يفهمها ويوقف عليها ويوفق للعمل لها ﴿إلا الصابرون﴾ على طاعة الله ، والمصبرون أنفسهم عن الشهوات ، الراضون بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار .

﴿فخسفنا به﴾ أي بقارون ﴿وبداره الأرض﴾ يقال خسف المكان يخسف خسوفاً ذهب في الأرض ، وخسف به الأرض خسفاً أي غاب به فيها والمعنى أن الله غيبه ، وغيب داره في الأرض .

﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله﴾ أي ما له جماعة يدفعون ذلك الخسف عنه ﴿وما كان﴾ هو في نفسه ﴿من المنتصرين﴾ أي من المنتقمين من موسى ، أو من الممتنعين من عذاب الله يقال نصره من عدوه فانتصر ، أي منعه منه فامتنع .

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : «كان قارون ابن عم موسى ، وكان يتبع العلم حتى جمع علماً ، فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده ، فقال له موسى : إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى ، فقال إن موسى يريد أن يأكل أموالكم ، جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملون أن تعطوه أموالكم؟ فقالوا : لا نحتمل ! فما ترى ؟فقال لهم :أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل فنرسلها إليه

فترميه بأنه أرادها على نفسها ، فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك جعلك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك ! قالت : نعم فجاء قارون إلى موسى فقال : اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ،قال نعم فجمعهم فقالوا له :ما أمرك ربك ؟قال :أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . وأن تصلوا الرحم ، وكذا ، وكذا ، وأمرني إذا زنى الرجل وقد أحصن أن يرجم ،قالوا : وإن كنت أنت ؟ قال : نعم ،قالوا :فإنك قد زنيت ، قال : أنا ؟ فأرسلوا للمرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى : أنشدك بالله إلا ما صدقت ، قالت : أما إذا أنشدتني بالله فإنهم دعوني ، وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي ، وأنا أشهد أنك بريء ، وأنك رسول الله ، فخرَّ موسى ساجداً يبكي ، ويقول : يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى الله إليه ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك ، فرفع رأسه فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى أعقابهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى ، يا موسى فقال : خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى ، يا موسى ، فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم،فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى ، فقال خذيهم فأخذتهم فغشيتهم فأوحى الله إليه : يا موسى سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم ، وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم . قال ابن عباس : وذلك قوله : فخسفنا به وبداره الأرض خسف به إلى الأرض السفلى . ذكره الخازن ، والقرطبي ، وغيرهما بألفاظ .

وعن النبي ﷺ : «من لبس ثوباً جديداً فاختال فيه خسف به من شفير جهنم ، فهو يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها ، لأن قارون لبس جبة فاختال فيها فخسف الله به الأرض» رواه الحرث بن إسحق من حديث ابن عباس وأبي هريرة بسند ضعيف جداً ، قال الحافظ في الفتح : إن مقتضى هذا الحديث أن الأرض لا تأكل جسده فيمكن ان يلغز ويقال لنا:كافر لا يبلى جسده بعد الموت وهو قارون ، ذكره ابن لقيمة ، والتجلجل السوخ في الأرض ، والتحرك والتضعضع ، والجلجلة التحريك . قيل : إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل في الصور .

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾

﴿ وأصبح ﴾ أي صار ﴿ الذين تمنوا مكانه ﴾ أي : منزلته ورتبته من الدنيا ﴿ بالأمس ﴾ أي منذ زمان قريب ، ولم يرد خصوص اليوم الذي قبل يومه .

﴿ويقولون : ويكأن الله ﴾ أي : يقول كل واحد منهم متندماً على ما فرط منه من التمني ؛قال النحاس : أحسن ما قيل في هذا ما قاله الخليل وسيبويه ويونس والكسائي : إن القوم تنبهوا فقالوا : وي ، والمتندم من العرب يقول في خلال ندمه : وي ، قال الجوهري : وي كلمة تعجب ؛ ويقال : ويك ، وقد تدخل وي على كأن المخففة والمشددة ، ويكأن الله . قال الخليل :هي مفصولة تقول وي ، ثم تبتدى فتقول : كأن ، وقال الفراء : هي كلمة تقرير كقولك : أما نرى صنع الله وإحسانه ، وقيل : هي كلمة تنبيه بمنزلة ألا ، وقال قطرب : إنما هو ويلك فأسقطت لامه ، وقال ابن الأعرابي والأخفش : معنى ويك أعلم ؛وقال القتيبي : معناها بلغة حمير رحمة لك ؛ وقيل :

هي بمعنى ألم تر؟ وروي عن الكسائي أنه قال : هي كلمة تفجع ، وقيل: معناها أظن وأقدر .

﴿يبسط﴾ أي : يوسع ﴿الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي ، ويضيق على من يشاء ، والمعنى : ليس الأمر كما زعمنا من أن البسط ينبىء عن الكرامة ، والقبض ينبىء عن الهوان ، بل كل منهما بمقتضى مشيئته .

﴿لولا أن منّ الله علينا﴾ برحمته بعدم إعطاء ما تمنيناه ، وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر والبغي ﴿لخسف بنا﴾ كما خسف به ، قرىء مبنياً للفاعل وللمفعول ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي : لا يفوزون بمطلب من مطالبهم تأكيد لما قبله .

﴿تلك﴾ التي سمعت بخبرها ، وبلغك شأنها ﴿الدار الآخرة﴾ أي : الجنة والاشارة إليها القصد التعظيم لها ، والتفخيم لشأنها ﴿نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض﴾ أي : رفعة وتكبراً على المؤمنين ، وقيل : ظلماً ، وقيل : استطالة على الناس ، وتهاوناً بهم بالبغي .

﴿ولا فساداً﴾ أي عملاً بمعاصي الله سبحانه فيها ، كقتل النفس ، والزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر أو دعاء إلى عبادة غير الله . ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما ، كما قال : ولا تركنوا إلى الذين ظلموا،فعلق الوعيد بالركون .

وعن عمر بن عبد العزيز:أنه كان يرددها حتى قبض . وقال بعضهم : حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثاً بقوله : إن فرعون علا في الأرض ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، وذِكر الفساد والعلو مُنَكَّرين في حيز النفي يدل على شمولهما لكل ما يطلق عليه أنه فساد ، وأنه علو من غير تخصيص بنوع خاص ؛ أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان وأما العلو فالممنوع منه ما كان على طريقة التكبر على الغير والتطاول على الناس ؛ وليس منه طلب العلو في الحق والرياسة في الدين ولا محبة اللباس الحسن ، والمركوب الحسن ، والمنزل الحسن .

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ في الآية قال : «التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق» ، أخرجه المحاملي والديلمي . وروى مثله عن مسلم البطين ، وابن جرير ، وعكرمة . وقال سعيد بن جبير بغياً في الأرض . وعن الحسن قال : هو الشرف والعلو عند ذوي سلطانهم . وأقول : إن كان ذلك للتقوى به على الحق فهو من خصال الخير لا من خصال الشر . وعن علي ابن أبي طالب قال : إن الرجل ليحب أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه فيدخل في هذه الآية .

قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن علي : وهذا محمول على من أحب ذلك لا بمجرد التجمل . فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أحب أن يكون ثوبي حسناً ، **ونعلي** حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ قال : «لا ، إن الله جميل يحب الجمال» .

وعن علي بن أبي طالب قال : نزلت **هذه الآية في** أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس ، وعن ابن عباس مثله .

وعن عدي بن حاتم قال : لما دخل على النبي ﷺ ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض فقال : «أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً فأسلم» أخرجه ابن مردويه .

﴿والعاقبة﴾ المحمودة ﴿للمتقين﴾ أي لمن اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب نواهيه ، وقيل : عاقبة المتقين الجنة .

﴿من جاء﴾ يوم القيامة متصفاً ﴿بالحسنة﴾ بأن كان من المؤمنين ، والحسنة ما يحمد فاعلها شرعاً ، وسميت حسنة لحسن وجه صاحبها عند رؤيتها في القيامة ، والمراد الحسنة المقبولة الأصلية المعمولة للعبد أو ما في حكمها ، كما لو تصدق عنه غيره ، لا المأخوذة في نظير ظلامتهم ، كما لو ضرب زيد عمراً ضربة ، وكان لزيد حسنات موجودة فيؤخذ منها فيعطى لعمرو ، فهذه الحسنة لا تنسب لعمرو ، لا حقيقة ولا حكماً فلا تضاعف له . وخرج بالمعمولة ما لو هم بحسنة فلم يعملها لمانع ، فإنها تكتب له واحدة ،

ويجازى عليها من غير تضعيف .

﴿فله خير منها﴾ وهو أن الله يجازيه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والتضعيف خاص بهذه الأمة ، وأما غير هذه الأمة من بقية الأمم فلا تضعيف لهم ،والصواب دخول المضاعفة في حسنات العصاة إن كانت على وجه يتناوله القبول بأن يعملها على وجه لا رياء فيه ولا سمعة ، وعدم دخولها في أعمال الكفار لأنه لا يجتمع مع الكفر طاعة مقبولة ، إن لم يسلم ، وإلا فتكون كالمقبولة في الإسلام ، ولا تضاعف الحسنات الحاصلة بالتضعيف .

﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى﴾ معناه فلا يجزون فوضع ﴿الذين عملوا السيئات﴾ موضع الضمير لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم ، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ، والسيئة هي ما يذم فاعلها شرعاً صغيرة كانت أو كبيرة ، وسميت سيئة لأن فاعلها يساء بها عند المجازاة عليها ﴿إلا﴾ مثل ﴿ما كانوا يعملون﴾ وحذف المثل ، وأقيم مقامه ما كانوا الخ مبالغة في المماثلة ، ومن فضله العظيم أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها ، ويجزي الحسنة بعشرة أمثالها وبسبعمائة ، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في سورة النمل .

﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ قال المفسرون : أي أنزل عليك ، وقال الزجاج : فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن ، وتقدير الكلام فرض عليك أحكام القرآن وفرائضه . وقيل : أوجب عليك تلاوته وتبليغه ، والعمل بما فيه ، عن علي بن حسين بن واقد قال : «أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ بالجحفة حين خرج ﷺ مهاجراً إلى المدينة » فليست مكية ولا مدنية ، كما مر في أول السورة ﴿لرادك إلى معاد﴾ قال جمهور المفسرين : أي إلى مكة وهذا أقرب التفاسير ؛ وبه قال ابن عباس كما أخرجه البخاري عنه ، وزاد كما أخرجك منها .

قال القتيبي : معاد الرجل بلده لأنه ينصرف فيعود إلى بلده ،وقال مجاهد ، وعكرمة ، والزهري ، والحسن : إن المعنى لرادك إلى يوم القيامة وهو

اختيار الزجاج ، يقال بيني وبينك المعاد : أي يوم القيامة لأن الناس يعودون فيه أحياء وقال أبو مالك ، وأبو صالح : لرادك إلى الجنة وبه قال أبو سعيد الخدري ؛ وروي عن مجاهد . وقيل إلى معاد أي إلى الموت .

﴿قل : ربي أعلم من جاء بالهدى﴾ وهو النبي ﷺ لأنه الجائي به ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾ وهم المشركون ، وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ إنك في ضلال والأولى حمل الآية على العموم ، وأن الله سبحانه يعلم حال كل طائفة من هاتين الطائفتين ، ويجازيها بما تستحقه من خير وشر .

﴿وما كنت﴾ قبل مجيء الرسالة إليك ﴿ترجو﴾ وتؤمل أن نرسلك إلى العباد ، و﴿أن يلقى إليك الكتاب﴾ فإنزاله عليك ليس عن ميعاد، ولا عن طلب سابق منك ، وهذا تذكير له ﷺ بالنعم ، والاستثناء في قوله : إلا رحمة من ربك﴾ منقطع ، أي : لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك ، أو متصل حملاً على المعنى كأنه قيل : وما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك والأول أولى ، وبه جزم الكسائي ؛ والفراء ، ثم أمره الله بخمسة أشياء فقال : ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ أي :عوناً لهم ،وفيه تعريض بغيره من الأمة ،وقيل : المراد لا تكونن ظهيراً لهم بمداراتهم .

﴿ولا يصدنك﴾ قرىء من[1] صده يصده ، ومن أصده بمعنى صده والمعنى لا يمنعنك يا محمد الكافرون ، وأقوالهم ، وكذبهم ، وأذاهم ﴿عن آيات الله﴾ أي : عن تلاوتها ، والعمل بها وتبليغها ﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي بعد إذ أنزلها الله إليك وفرضت عليك .

﴿وادع﴾ الناس ﴿إلى ربك﴾ أي : إلى الله وإلى توحيده ، والعمل بفرائضه واجتناب معاصيه ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ بإعانتهم ، وفيه تعريض بغيره ، كما تقدم لأنه ﷺ لا يكون منهم بحال من الأحوال وكذلك قوله :

---

(١) القراءة الأولى هي قراءة الجمهور أما القراءة الأخرى فهي بضم المثناة التحتية وكسر الصاد المهملة . المطيعي .

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿ولا تدع مع الله إلٰهاً آخر﴾ فإنه تعريض بغيره، ثم وحد سبحانه نفسه ووصفها بالبقاء والدوام فقال: ﴿لا إله إلا هو كل شيء﴾ من الأشياء كائناً ما كان.

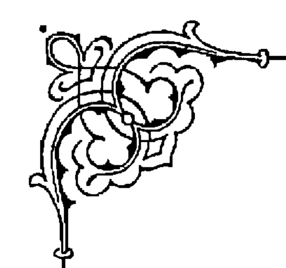
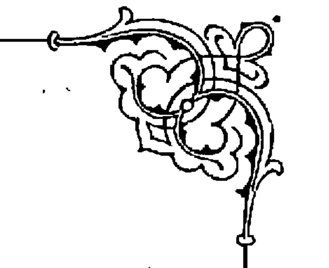
﴿هالك﴾ في حد ذاته، لأن وجوده ليس ذاتياً، بل لاستناده إلى واجب الوجود، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالاً، والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتي، لأن وجوده كلا وجود، وأما حمل هالك على المستقبل فكلام ظاهري قاله الشهاب.

﴿إلا وجهه﴾ أي: إلا ذاته. قال الزجاج: وجهه منصوب على الاستثناء ولو كان في غير القرآن كان مرفوعاً، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك، وقضية الاستثناء إطلاق الشيء على الله تعالى، وهو الصحيح، لأن المستثنى داخل في المستثنى منه، وإنما جاء على عادة العرب في التعبير بالأشرف على الجملة ومن لم يطلقه عليه جعله متصلاً أيضاً، وجعل الوجه ما عمل لأجله سبحانه، فإن ثوابه باق قاله الكرخي.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت كل من عليها فان قالت الملائكة: هلك أهل الأرض فلما نزلت كل نفس ذائقة الموت، قالت الملائكة: هلك كل نفس، فلما نزلت كل شي هالك إلا وجهه قالت الملائكة: هلك أهل السماء والأرض». وعنه قال: إلا ما أريد به وجهه، والمستثنى من الهلاك والفناء ثمانية أشياء نظمها السيوطي في قوله:

ثمانية حكم البقاء يعمها ... من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش، والكرسي ونار، وجنة ... وعجب وأرواح، كذا اللوح والقلم

﴿له الحكم﴾ أي القضاء النافذ يقضي بما شاء ويحكم بما أراد ﴿وإليه﴾ أي إلى جزائه، أو إليه وحده ﴿ترجعون﴾ في جميع أحوالكم في الدنيا وعند البعث ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء باساءته لا إلى غيره سبحانه وتعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

﴿هي تسع وتسعون آية قيل : مكية كلها﴾

قاله : ابن عباس ، وابن الزبير ، والحسن ، وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقيل : انها مدنية كلها ، وهو أحد قولي ابن عباس ، وقتادة ، وهو قول يحيى بن سلام .

وعن علي بن أبي طالب قال : نزلت بين مكة والمدينة وهذا قول ثابت .

وأخرج الدارقطني في السنن عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات وأربع سجدات يقرأ في الركعة الأولى العنكبوت أو الروم ، وفي الثانية يس



بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

﴿ألم﴾ الله أعلم بمراده به وقد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى في أول سورة البقرة .

﴿أحسب الناس﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع . أو للتقرير ، والحسبان قوة أحد النقيضين على الآخر ، كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما والعلم هو القطع على أحدهما ، ولا يصح تعليقهما بمعاني المفردات ، ولكن بمضامين الجمل ﴿أن يتركوا أن يقولوا﴾ أي لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا ﴿آمنا﴾ أي نطقوا بكلمة الشهادة .

﴿وهم لا يفتنون﴾ أي يتركون بغير اختبار ، ولا ابتلاء وليس الأمر كما حسبوا بل لا بد أن نختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب والثابت في الدين من المضارب فيه فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان واستبعاده ، وبيان أنه لا بد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها ؛ قال الزجاج : المعنى أحسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا إنا مؤمنون فقط ؟ ولا يمتحنون بما يتبين به حقيقة إيمانهم ؟ بل يمتحنون لتميز الراسخ في الدين من غيره .

قال السدي ، وقتادة ،ومجاهد :أي لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب ، وسيأتي في بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرنا قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نازلة في سبب خاص ـ فهي باقية في

آمة محمد ﷺ ، موجود حكمها بقية الدهر ، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو ، وغير ذلك . والفتنة الامتحان بشدائد التكليف ، من مفارقة الأوطان ، والمهاجرة ، ومجاهدة الأعداء ، وسائر الطاعات الشاقة ، وهجر الشهوات ، وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم، لينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات ، فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب .

أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن جرير وغيرهم: أنها أنزلت في ناس كانوا بمكة وقد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما أنزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ، ولا إسلام حتى تهاجروا ، قال : «فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا إليهم أنه قد أنزل فيكم كذا وكذا ، فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون ، فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم :﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾، وعن قتادة نحوه بأخصر منه ، وقيل : نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله ، وعن ابن مسعود قال : أول من أظهر الله إسلامه سبعة ، رسول الله ، وأبو بكر ، وسمية أم عمار ، وعمار ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد ، فأما رسول الله فمنعه الله بعمه أبي طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم في الشمس ، فما منهم من أحد إلا وقد آتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه ، فأخذوه وأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد[١]

(١) أنظر إلى قصص « ابتلاء الصحابة ومحنهم » في كتب السيرة . سيرة ابن هشام مثلاً .

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ أي هذه سنة الله في عباده قديمة ، جارية في الأمم كلها ، وأنه يختبر مؤمني هذه الأمة كما اختبر من قبلهم من الأمم كما جاء في غير موضع من قصص الأنبياء ، وما وقع لهم من قومهم من المحن ، وما اختبر الله به أتباعهم ، ومن آمن بهم ، من تلك الأمور التي نزلت بهم ، فمنهم من نشر بالمنشار ، ومنهم من قتل ، ومنهم من ألقي في النار ومنهم من مشط بأمشاط الحديد ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم العذاب ، والمقصود التنبيه على خطئهم في هذا الحسبان ، والمعنى : أحسبوا ذلك ؟ وقد علموا أنه خلاف سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

﴿فليعلمن الله الذين صدقوا﴾ في قولهم : آمنا ، علم مشاهدة ﴿وليعلمن الكاذبين﴾ منهم في ذلك ، أي ليظهر الله الصادق والكاذب في قولهم ، ويميز بينهم ، وقرىء بضم الياء وكسر اللام ، والمعنى أنه يعلم

الطائفتين في الآخرة بمنازلهم ، أو يعلم الناس بصدق من صدق ، ويفضح الكاذبين بكذبهم ، أو يضع لكل طائفة علامة تشتهر بها وتتميز عن غيرها . وقيل : إن علم صفة يظهر فيها كل ما يقع ، وما هو واقع ، إلا أن قبل التكليف يعلم أن زيداً مثلاً سيطيع وعمراً سيعصي ، ثم بعد التكليف يعلم أنه مطيع ، والآخر عاص ، ولا يتغير علمه في شيء من الأحوال ، وإنما المتغير هو المعلوم ، وأتى بصيغة الفعل في ﴿صدقوا﴾ وباسم الفاعل في ﴿الكاذبين﴾ لأن اسم الفاعل يدل على ثبوت المصدر في الفاعل ، ورسوخه فيه ، والفعل الماضي لا يدل عليه لأن وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام ، وعن قوم مستمرين على الكفر ، فعبر في حق الأولين بلفظ الفعل ، وفي حق الآخرين بالصيغة الدالة على الثبات،قاله زاده .

﴿أم حسب الذين يعملون السيئات﴾ أي الشرك والمعاصي ﴿أن يسبقونا﴾ أي أن يفوتونا فلا ننتقم منهم ، ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون ، و ﴿أم﴾ هي المنقطعة ، ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول ، لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه ، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه ، وقالوا:الأول في المؤمنين ، وهذا في الكافرين المشركين .

﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئس الذي يحكمونه حكمهم هذا . وقال الزجاج : (ما) في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون ،قال : ويجوز أن تكون (ما) في موضع رفع بمعنى ساء الشيء ، أو الحكم حكمهم . وقال ابن كيسان:ساء حكمهم .

﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ الرجاء بمعنى الطمع ، قاله سعيد بن جبير ، وقيل :الرجاء هنا بمعنى الخوف ،قال القرطبي :وأجمع أهل التفسير على أن المعنى من كان يخاف الموت ، وقيل البعث والحساب قال الزجاج :أي ثواب المصير اليه تعالى ، فالرجاء على هذا معناه الأمل و ﴿من﴾ موصولة ، أو شرطية ، والجزاء

قوله :

﴿فإن أجل الله﴾ والراجح أنه ليس بجزاء ، لأن أجله جاء لا محالة من غير تقييد بشرط ، لأنه لو كان جواب الشرط لزم أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً له ، بل الجواب محذوف ، أي فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، والمعنى من كان يرجو ويطمع لقاء الله فإن أجله المضروب للبعث والثواب والعقاب ،

﴿لآت﴾ أي لجاء لا محالة .قال مقاتل :يعني يوم القيامة . وفي الآية من الوعد والوعيد ، والترهيب والترغيب ما لا يخفى ﴿وهو السميع﴾ لأقوال عباده ﴿العليم﴾ بما يسرونه وما يعلنونه .

﴿ومن جاهد﴾ الكفار ، وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات ، أو جاهد الشيطان بدفع وساوسه ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾ أي ثواب ذلك له لا لغيره ، ولا يرجع الى الله سبحانه من نفع ذلك شيء ، وهذا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق فإن الكريم اذا وعد وفى ، فالحصر إضافي ، فلا يقال كيف يستقيم الحصر؟ مع أن جهاد الشخص قد ينتفع به غيره ، كما ينتفع الآباء بصلاح الأولاد ، وينتفع من سن سنة حسنة بفعل من استن بها ،وقيل :المعنى ومن جاهد عدوه لنفسه لا يريد بذلك وجه الله فليس لله حاجة بجهاده ، والأول أولى ، وفيه بشارة وتخويف ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾ من الإنس ، والجن والملائكة ، فلا يحتاج الى طاعاتهم ، كما لا تضره معاصيهم ، وإنما أمر ونهى رحمة لعباده .

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم﴾ أي لنبطلنها حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل ؛ والتكفير إذهاب السيئة بالحسنة ، والمراد بالسيئة الشرك والمعاصي وتكفيرها هو الايمان والتوبة والآية تستدعي وجود السيئآت

حتى تكفر والوجه فيه أنه ما من مكلف إلا وله سيئة أما غير الأنبياء فظاهر وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم ، ولهذا قال تعالى:﴿عفاالله عنك لم أذنت لهم؟﴾

﴿ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي :بأحسن جزاء أعمالهم ، وقيل: بجزاء أحسن أعمالهم والمراد بأحسن مجرد الوصف لا التفضيل ، لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتاً عنه ، وهذا ليس بشيء لأنه من باب الأولى فإنه إذا جازاهم بالأحسن جازاهم بما دونه فهو من التنبيه على الأدنى بالأعلى ، وقيل : معناه نعطيهم أكثر مما عملوا ، وأحسن منه كما في قوله : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾.

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ أي ايصاء حسناً على المبالغة قاله الكواشي ، أو ذا حسن ، وهذا مذهب البصريين ، أو أن يفعل حسناً قاله الكوفيون قال الزجاج :أن يفعل بوالديه ما يحسن وقيل :وصيناه أمراً ذا حسن ؛ وقيل : ألزمناه حسناً ، وقيل :وصيناه بحسن ، وقيل : يحسن حسناً ومعنى الآية: التوصية للإنسان بوالديه ؛ بالبر لهما والعطف عليهما والإحسان اليهما بكل ما يمكنه من وجوه الإحسان فيشمل ذلك إعطاء المال والخدمة ولين القول ، وعدم المخالفة لهما وغير ذلك،قرىء حسناً بضم الحاء وإسكان السين ، وبفتحهما ، وقرىء إحساناً وكذا في مصحف أبيّ .

﴿وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم﴾ أي : إن طلبا منك وألزماك أن تشرك بي إلهاً ليس لك علم بكونه إلهاً ،وفي سورة لقمان ﴿على أن تشرك بي﴾لأن ما هنا وافق ما قبله لفظاً وهو :﴿من جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾وما هناك محمول على المعنى لأن التقدير : وإن حملاك على أن تشرك،قاله الكرماني .

﴿فلا تطعهما﴾ في الإشراك وعبر بنفي العلم عن نفي الإله لأن ما لم يعلم صحته لا يجوز اتباعه فكيف بما علم بطلانه ، واذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له فعدم جوازها مع مجرد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى ، ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه . فلا طاعة لهما فيما هو معصية لله ، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ .

أخرج ابن المنذر ، وابن ابي حاتم ، وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : قالت أمي : لا آكل طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى تكفر بمحمد ﷺ فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا ، فنزلت هذه الآية الى قوله : فلا تطعهما ، وأخرجه أيضاً الترمذي من حديثه ، وقال نزلت في أربع آيات ، وذكر نحو هذه القصة ، وقال : حسن صحيح ، وقد أخرج هذا الحديث أحمد ومسلم ، وأبو داود والنسائي أيضاً قال القرطبي : فلم يطعها سعد وقال لها : والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما كفرت بمحمد ﷺ ، فإن شئت فكلي ، وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت قال الكرخي :هذا وما في لقمان والاحقاف نزل في سعد بن أبي وقاص .

﴿إلي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها ، فأجازي كُلًّا منكم بما يستحقه ، وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك ، وحث على الثبات والاستقامة في الإيمان .

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح ، وهذا أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى الأنبياء عليهم السلام، قال سليمان عليه السلام :﴿ وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ وقال يوسف عليه السلام :﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ وقيل : لندخلنهم في مدخل الصالحين وهو الجنة . كذا قيل والأول أولى ومعنى ادخالهم فيهم كونهم معدودين من جملتهم لا اتصافهم أي نحشرهم معهم اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين وارزقنا لسان صدق في الآخرين .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي﴾ أي أصابه بلاء من الناس أو أذى من الكفار ﴿في الله﴾ أي في دين الله وسبيله ولأجله ، كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات وأصحاب البدع مع أصحاب السنة وأهل التقليد مع أهل الاتباع بل كل مبطل مع كل محق من إيقاع أنواع الأذى عليهم لأجل الإيمان بالله والعمل بما أمر به من كتاب وسنة .

﴿جعل فتنة الناس﴾ التي هي ما يوقعونه عليه من الأذى وجزع من أذاهم فلم يصبر عليه وجعله في الشدة والعظم ﴿كعذاب الله﴾ فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عقابه ، وقيل : وهو المنافق اذا أوذي في الله رجع عن الدين فكفر وكان يمكنه أن يصبر على الأذى الى حد الإكراه ، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان ، فجعل المنافقون فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ، فعذاب الناس له دافع وعذاب الله ما له من دافع ،

وأيضاً عذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عقاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ، ولا تعدها عذاباً.

قال الزجاج : ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذية في الله .

أخرج أحمد والترمذي ، وصححه ، وابن ماجة وأبو يعلى وابن حبان ، والبيهقي وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أوذيت في الله ومايؤذى أحد ، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت علي ثالثة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال » .

﴿ولئن جاء نصر من ربك﴾ أي فتح من الله للمؤمنين وغلبة على الأعداء وغنيمة يغنمونها منهم ﴿ليقولن﴾ بضم اللام حملاً على المعنى بعد الحمل على اللفظ ، ونقل أبو معاذ النحوي أنه قرىء بالفتح جرياً على مراعاة لفظها أيضاً وقراءة العامة أحسن لقوله :

﴿إنا كنا معكم﴾ في دينكم فأشركونا في الغنيمة،فالمراد المعية في الإيمان دون الصحبة في القتال لأنها غير واقعة ، قاله الشهاب فكذبهم الله فقال :

﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟﴾ من الإيمان به أي هو سبحانه أعلم بما فيها من خير وشر فكيف يدعون هذه الدعاوى الكاذبة ،قيل : هم قوم ممن كان في إيمانهم ضعف . كانوا اذا مسهم الأذى من الكفار أو لم يجدوا من قوة الاسلام ونصر الله المؤمنين في موطن من المواطن قالوا: إنا كنا معكم يرضون بهذا وما قبله المنافقون ،قال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بالله بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله او مصيبة في أنفسهم افتتنوا . وقال الضحاك :نزلت في ناس من المنافقين كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك ،وقيل : نزلت في الذين أخرجهم المشركون معهم الى بدر،والظاهر أن هذا النظم من قوله : ومن الناس من يقول ، إلى قوله : وقال الذين كفروا ، نازلٌ في المنافقين لما يظهر من السياق ، ولقوله .

﴿وليعلمن الله الذين آمنوا﴾ بقلوبهم أي صدقوا فثبتوا على الاسلام عند البلاء ﴿وليعلمن المنافقين﴾ بترك الإيمان عند البلاء فإنه لتقرير ما قبله وتأكيده واللام في الفعلين لام قسم أي والله ليميزن الله بين الطائفتين ويظهر إخلاص المخلصين ونفاق المنافقين فيجازي الفريقين، فالمخلص الذي لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى ويصبر في الله حق الصبر، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله والمنافق الذي يميل هكذا وهكذا فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم وتابعهم، وكفر بالله عز وجل؛ وإن خفقت ريح الاسلام، وطلع نصره، ولاح فتحه رجع الى الاسلام وزعم انه من المسلمين وتغيير الأسلوب حيث عبر في الأول بالفعل، وفي الثاني باسم الفاعل تفنن لرعاية الفاصلة. قيل: هذه الآيات العشر من أول السورة الى ههنا مدنية، وباقي السورة مكي. قاله يحيى بن سلام.

﴿وقال الذين كفروا﴾ من أهل مكة كأبي سفيان وأتباعه ﴿للذين آمنوا﴾ اللام لام التبليغ أي قالوا مخاطبين لهم سبق بيانه في غير موضع، أي قالوا لهم:

﴿اتبعوا سبيلنا﴾ أي اسلكوا طريقتنا، أو ادخلوا في ديننا ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ أي إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث والنشور كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم فنؤاخذ بها دونكم، قال مقاتل: يعني قولهم نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله واللام في لنحمل لام الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك. وقال الزمخشري: الأمر بمعنى الخبر وقرىء بكسر اللام وهو لغة الحجاز، ثم رد عليهم بقوله:

﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ (من) الأولى بيانية، والثانية مزيدة للاستغراق، أي وما هم بحاملين شيئاً من خطيئاتهم التي التزموا بها، وضمنوا لهم حملها، ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب في هذا التحمل فقال:

﴿إنهم لكاذبون﴾ فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم، قال المهدوي هذا

التكذيب لهم من الله عز وجل حمل على المعنى ، لأن المعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم ، فلما كان الأمر يرجع في المعنى الى الخبر أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر .

﴿وليحملن أثقالهم﴾ أي : أوزارهم التي عملوها ، والتعبير عنها بالأثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾ أي أوزاراً مع أوزارهم وهي أوزار من أضلوهم وأخرجوهم عن الهدى الى الضلالة ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾. ومثله قوله ﷺ : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » كما في حديث أبي هريرة الثابت في صحيح مسلم وغيره .

﴿وليسألن يوم القيامة﴾ سؤال تقريع وتوبيخ ﴿عما كانوا يفترون﴾ أي : يختلقونه من الأكاذيب والأباطيل التي كانوا يأتون بها في الدنيا وأضلوهم بها ، ومن جملتها هذا الوعد .

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ وعمره أربعون سنة أو أكثر ، وبينه وبين آدم[١] ألف سنة، أجمل سبحانه قصة نوح تصديقاً لقوله في أول السورة ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ فيه تثبيت للنبي ﷺ كأنه قيل له : إن نوحاً لبث هذه المدة الكثيرة يدعو قومه ولم يؤمن منهم إلا قليل ، فصبر وما ضجر ، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك ، وكثرة عدد أمتك ، قيل: ووقع في النظم :

﴿إلا خمسين عاماً﴾ ولم يقل تسعمائة سنة وخمسين، لأن في الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثاني فقد يطلق على ما يقرب منه وذكر الألف أفخم وأوصل الى الغرض . وجيء بالمميز أولا بالسنة ، ثم بالعام لأن تكرار لفظ واحد في كلام واحد حقيق بالاجتناب في البلاغة ، ثم إنه خص لفظ العام بالخمسين إيذاناً بأن نبي الله لما استراح منهم بقي في زمن حسن ، والعرب

(١) لا دليل على هذا التحديد من كتاب ولا سنة . المطيعي .

تعبر عن الخصب بالعام ، وعن الجدب بالسنة .

وقد اختلف في مقدار عمر نوح عليه السلام ، وليس في الآية إلا انه لبث فيهم هذه المدة ، وهي لا تدل على أنها جميع عمره ، فقد تلبث في غيرهم قبل اللبث فيهم ، وقد تلبث في الأرض من بعد هلاكهم بالطوفان ، فقال ابن عباس: بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم الى الله وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس ، وفشوا .

وعن عكرمة قال : كان عمر نوح قبل أن يبعث الى قومه ، وبعد مابعث ألفا وسبعمائة سنة ، وعن عوف بن شداد قال : إن الله أرسل نوحاً الى قومه وهو ابن خمسين سنة وثلثمائة سنة فلبث فيهم ألف إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة ، وقال أبو السعود : عاش نوح بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً ومائتين سنة وأربعين وعن أنس ابن مالك قال: جاء ملك الموت الى نوح فقال : يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال كرجل دخل بيتاً له بابان فقال[1] في وسط البيت هنية ثم خرج من الباب الآخر .

﴿فأخذهم الطوفان﴾ أي الماء الكثير ، طاف بهم وعلاهم فغرقوا ، وارتفع على أعلى جبل أربعين ذراعاً ، وقيل : خمسة عشر حتى غرق كل شيء غير من في السفينة والفاء للتعقيب ، أي أخذهم عقب تمام المدة المذكورة ، والطوفان يقال لكل شيء كثير ، مطيف بجمع : محيط بهم ، من مطر أو قتل أو موت؛ قاله النحاس . وقال سعيد بن جبير ، وقتادة والسدي : هو المطر ، وقال الضحاك : الغرق ، وقيل : الموت ، قال الشهاب : ولكنه غلب في الماء كما هو المراد هنا .

﴿وهم ظالمون﴾ أي مستمرون على الظلم والشرك ولم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح وذكرهم هذه المدة بطولها .

---

(١) قال بمعنى القيلولة ، وهي النوم في الظهيرة ، تقول : قال يقيلُ قيلولةً (معجم الصحاح للجوهري ، باب اللام ، فصل القاف ، ١٨٠٨/٥ ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت .

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي أنجينا نوحاً ، وأنجينا من معه في السفينة من أولاده وأتباعه ، واختلف في عددهم على أقوال ،قيل : كانوا ثمانية وسبعين نفساً نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح ، سام ، وحام ، ويافث ونساؤهم .

﴿وجعلناها﴾ أي السفينة ﴿آية للعالمين﴾ أي عبرة عظيمة لهم ولمن بعدهم من الناس إن عصوا رسولهم ، وفي كونها آية وجوه :

أحدها : أنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة ، كذا قال قتادة .

وثانيها : أن الله سلم السفينة بأن جعلها آية وقيل :إن الضمير راجع في جعلناها الى الواقعة أو القصة أو الحادثة أو الى النجاة أو الى العقوبة بالغرق .

﴿وابراهيم﴾ انتصابه بالعطف على (نوحاً) وقال الكسائي : هو معطوف على الهاء في (جعلناها) وقيل: منصوب بمقدر ، أي واذكر ، وقرأ إبراهيم : النخعي ، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنهما (وابراهيم) بالرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم .

﴿إذ قال﴾ منصوب على الظرفية ، أي وأرسلنا إبراهيم وقت قوله أو وجعلنا ابراهيم آية وقت قوله ، أو اذكر ابراهيم وقت قوله ﴿لقومه اعبدوا الله﴾ أي اطيعوه وأفردوه بالعبادة وخصوه بها ووحدوه ، وفيه إشارة إلى إثبات الأله ﴿واتقوه﴾ أن تشركوا به شيئاً وفيه إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه فقد أتى بأعظم الجرائم ، وقيل : اعبدوا الله اشارة الى الإتيان بالواجبات ، وقوله : اتقوه إشارة الى الامتناع من المحرمات ، ثم يدخل في الأول الاعتراف بالله ، وفي الثاني الامتناع من الشرك .

﴿ذلكم﴾ أي عبادة الله وتقواه ﴿خير لكم﴾ من الشرك ولا خير في الشرك أبداً ، ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم ، وقيل: خير من كل شيء لأن حذف المفضل عليه يقتضي العموم مع عدم احتياجه الى التأويل، إذ المراد بكل شيء كل شيء فيه خيرية ، ويجوز كونه صفة لا اسم تفضيل ﴿إن كنتم تعلمون﴾ شيئاً من العلم او تعلمون علماً تميزون به بين ما هو خير وما هو شر وأن من المرسلين ابراهيم ثم ذكر ابراهيم بطلان مذهبهم بأبلغ وجه بقوله :

﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً﴾ وبيَّن لهم أنهم يعبدون مالا ينفع ولا يضر ولا يسمع ولا يبصر ، والأوثان هي الأصنام ، وقال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة، وقال الجوهري : الوثن الصنم والجمع أوثان .

﴿وتخلقون إفكاً﴾ أي وتكذبون كذباً على أن معنى تخلقون تكذبون قال الحسن : معنى تخلقون تنحتون ، أي إنما تعبدون أوثاناً وانتم تصنعونها وهذا على قراءة الجمهور بفتح الفوقية وسكون الخاء وضم اللام مضارع خلق ؛ وإفكاً بكسر الهمزة وسكون الفاء وقرأ علي بن أبي طالب وزيد بن علي والسلمي وقتادة بفتح الخاء واللام مشددة، والأصل تتخلقون، وروي عن زيد بن علي أنه

قرأ بضم التاء وتشديد اللام مكسورة،وقرأ ابن الزبير ، وفضيل بن ورقان : أَفِكاً بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو مصدر كالكذب ، أو صفة لمصدر محذوف ، أي خلقاً أفكاً .

﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ أي لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ أي اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم الى الله فهو الذي عنده الرزق كله ، فاسألوه ، واطلبوه من فضله .

﴿واعبدوه﴾ أي وحدوه دون غيره ﴿واشكروا له﴾ على نعمائه ذكرهما بعد طلب الرزق لأن الأول أي العبادة سبب لحدوث الرزق والثاني أي الشكر موجب لبقائه وسبب لمزيد عليه ، يقال شكرته وشكرت له .

﴿إليه﴾ أي الى محل جزائه تعالى ﴿ترجعون﴾ بالموت ثم بالبعث لا الى غيره ، فاستعدوا للقائه بعبادته،والشكر له على أنعمه ، ولما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد وقال :

﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ أي وإن تكذبوني فقد وقع ذلك لغيري ممن قبلكم فهو من قول ابراهيم ، وقيل : هو من قول الله سبحانه ، أي وإن تكذبوا محمد ﷺ فذلك عادة الكفار مع من سلف كقوم شيث وادريس ونوح وغيرهم ،وقيل : هذا اعتراض متصل الى قوله عذاب أليم ، وقع تذكيراً لأهل مكة ، وتحذيراً لهم .

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ لقومه الذين أرسل اليهم وليس عليه هدايتهم ، وليس ذلك في وسعه ، ولما بيَّن الله تعالى الأصل الأول،وهو التوحيد وأشار الى الثاني وهو الرسالة بقوله : ما على الرسول الخ شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر ، وهذه الأصول الثلاثة لا ينفك بعضها عن بعض في الذكر الإلهي فقال :

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

﴿أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ؟﴾ قرىء بالتحتية على الخبر قال أبو عبيدة : كأنه قال أولم يَرَ الأمم ، وقرىء بالفوقية على الخطاب من ابراهيم لقومه ، وقيل هو خطاب من الله لقريش،وقرىء يبدِي من أبدىٰ يبدي ومن بدأ يبدىء ، وقرىء (كيف بدأ) والمعنى : ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ثم ينفخ فيهم الروح ، ثم يخرجهم الى الدنيا ثم يتوفاهم بعد ذلك . ثم هو يعيدهم كما بدأهم ، وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات .

فإذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والايجاد فهو القادر على الإعادة والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم ، والواو للعطف على مقدر ، والمراد بالرؤية العلم الواضح الذي هو كالرؤية ، والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق ، وإلا لما كان الخلق الأول خلقاً أول فهو من الله .

﴿إن ذلك﴾ أي الخلق الأول والثاني ﴿على الله يسير﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون ، فكيف ينكرون الثاني ، ثم أمر سبحانه ابراهيم أن يأمر قومه بالمسير في الأرض ليتفكروا ويعتبروا ، فقال :

﴿قل﴾ لمنكري البعث ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ على كثرتهم ؛ واختلاف ألوانهم وطبائعهم ، وألسنتهم ، وانظروا الى مساكن القرون الماضية ، والأمم الخالية ، وآثارهم،لتعلموا بذلك كمال قدرة الله ، فإن من قدر على إنشائها بدءاً يقدر على إعادتهم ، وقيل : إن المعنى قل لهم يامحمد سيروا ومعنى قوله ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ إن الله الذي بدأ النشأة الأولى وخلقها على تلك الكيفية ، ينشئها نشأة ثانية عند البعث ، أي فكما لم يتعذر عليه إحداثهم مبدئاً كذلك لا يتعذر عليه إنشاؤهم معيداً بعد الموت . ثانياً وهذا دليل على أنها نشأتان وان كل واحد منهما إنشاء أي ابتداء واختراع ، واخراج من العدم الى الوجود ، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله ، والأولى ليست كذلك،والجملة عطف على جملة : سيروا في الأرض داخلة معها في حيز القول .

قال ابن عباس : النشأة الآخرة : هي الحياة بعد الموت وهو النشور ، قرىء النشأة بالقصر وسكون الشين ، وبالمد وفتح الشين وهما لغتان كالرأفة والرآفة ، وهي منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد ، والأصل الإنشاءة أو على حذف العامل أي ينشىء فينشئون النشأة ﴿إن الله على كل شيء﴾ من البداءة والإعادة ﴿قدير﴾ والجملة تعليل لما قبلها .

﴿يعذب من يشاء﴾ تعذيبه بعد النشأة الآخرة بالخذلان ، وهم الكفار والعصاة ﴿ويرحم﴾ بالهداية ﴿من يشاء﴾ رحمته وهم المؤمنون به ، المصدقون لرسله ، العاملون بأوامره ونواهيه ، أو المعنى : يعذب بالحرص ، ويرحم بالقناعة ، أو بسوء الخلق وحسنه ، أو بالإعراض عن الله ، وبالإقبال عليه ، أو بمتابعة البدع ، وبملازمة السنة ، وقدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة لأن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب أولا لسبق ذكر مستحقيه ﴿وإليه﴾ لا الى غيره ﴿تقلبون﴾ أي ترجعون وتردون .

﴿وما أنتم﴾ الخطاب لبني آدم وهم من أهل الأرض وليس في وسعهم الهرب في السماء لكن المقصود امتناع الفوات على جميع الأحوال ﴿بمعجزين﴾ ربكم عن إدراككم ﴿في الأرض﴾ الفسيحة ﴿ولا في السماء﴾ التي هي أفسح منها ، قال الفراء : ولا من في السماء بمعجزين الله فيها قال : وهو كما في قول حسان :

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

أي : ومن يمدحه وينصره سواء ، ومثله قوله تعالى ؛﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ أي إلا من له مقام معلوم ، والمعنى أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض في الأرض ، ولا أهل السماء في السماء ، إن عصوه . وقال قطرب : إن معنى الآية ولا في السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتني فلان ههنا ولا بالبصرة ، يعني ولا بالبصرة ولو صار اليها ، وقال المبرد : المعنى ولا من في السماء ، على أن من ليست موصولة بل نكرة ، وفي السماء صفة لها فأقيمت مقام الموصوف ورده الأخفش ورجح ما قاله قطرب .

والمقصود بيان امتناع الفوات على جميع التقادير ، ممكناً كان أو مستحيلاً وهذا إن حملت الأرض والسماء على المشهور من معناهما ، ويجوز أن يراد بهما جهة السفل وجهة العلو ، وقال هنا : ﴿في الأرض ولا في السماء﴾ ، واقتصر في الشورى على الأرض لأن ما هنا خطاب لقوم فيهم النمروذ الذي حاول الصعود الى السماء ، وقد حذفا معاً للاختصار في قوله في الزمر : ﴿وما هم بمعجزين﴾ ،

﴿ومالكم من دون الله﴾ أي غيره ﴿من ولي ولا نصير﴾ من مزيدة للتأكيد ، أي : ليس له ولي يواليه ، ولا نصير ينصره ، ويدفع عنه عذاب الله .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ أي التنزيلية او التكوينية ، او جميعها ﴿ولقائه﴾ أي أنكروا البعث وما بعده ، ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل الله سبحانه ، والإشارة بقوله ﴿أولئك﴾ الى الكافرين بالآيات واللقاء .

﴿يئسوا من رحمتي﴾ في الدنيا ، ولم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله ، ولا ما أخبرتهم به رسله ، وقيل : المعنى أنهم ييأسون يوم القيامة من رحمة الله وهي الجنة ، وصيغة الماضي لدلالة علمه على تحقق وقوعه ، وأضاف الرحمة الى نفسه ، ولم يضف العذاب اليها لسبق رحمته ، وإعلاماً لعباده بعمومها لهم .

﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ تكرير الإشارة للتأكيد ، ووُصف العذاب

بكونه أليماً للدلالة على أنه في غاية الشدة وهذا آخر الآيات في تذكير أهل مكة ، وقوله :

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ رجوع الى خطاب ابراهيم بعد الاعتراض بما تقدم من خطاب محمد ﷺ على قول من قال : إن قوله :**﴿قل سيروا في الأرض﴾** خطاب لمحمد ﷺ ، وأما على قول من قال : إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام ، فالكلام في سياقه سابقاً ولاحقاً : أي قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم : لا تجيبوا عن براهينه الثلاثة الدالة على الأصول وهي التوحيد والنبوة والحشر ، وافعلوا بإبراهيم أحد الأمرين .

﴿اقتلوه﴾ بالسيف او نحوه فتستريحوا منه عاجلاً ﴿أو حرقوه﴾ بالنار فإما أن يرجع الى دينكم إذا أوجعته النار ، وإما أن يموت بها إذا أصر على قوله ودينه وإنما أجابوا بذلك لعدم قدرتهم على الجواب الصحيح ، ثم اتفقوا على تحريقه فقذفوه في النار .

﴿فأنجاه الله من النار﴾ بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، قيل : إن ذلك اليوم لم ينتفع أحد بنار ، وذلك لذهاب حرها ﴿إن في ذلك﴾ أي في إنجاء الله لإبراهيم بعد إلقائه في النار ﴿لآيات﴾ أي : دلالات واضحة وعلامات ظاهرة ، على عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه ، حيث أضرموا تلك النار العظيمة ، وألقوه فيها ، ولم تحرقه ، ولا أثرت فيه أثراً ، بل صارت الى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها،من الحرارة والإحراق . قال المحلي:هي عدم تأثيرها فيه ، وإخمادها ، وإنشاء روض مكانها في زمن يسير ، انتهى . أي مقدار طرفة عين بحيث إنها لم تؤذه . ولكن أحرقت وثاقه لينحل .

﴿لقوم يؤمنون﴾ أي يصدقون بتوحيد الله وقدرته ، وإنما خص المؤمنون لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه ، وينتفعون بها ، وأما من عداهم فهم عن ذلك غافلون .

﴿وقال﴾ ابراهيم لقومه بعد الإنجاء من النار ، ولم يحصل له منهم رعب ولا مهابة ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم﴾ أي للتودد بينكم والتواصل لاجتماعكم على عبادتها ، وللخشية من ذهاب المودة فيما بينكم إن تركتم عبادتها ، قرىء برفع مودة ، وإضافتها الى بينكم ، وبالنصب منونة ، ونصب بينكم على الظرفية ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي ثم تنقطع ولا تنفع في الآخرة .

﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ أي يكفر بعض هؤلاء المتخذين للأوثان العابدين لها بالبعض الآخر منهم ، فيتبرأ القادة من الأتباع والأتباع من القادة ،وقيل : المعنى يتبرأ العابدون للأوثان من الأوثان ، والأوثان من العابدين لها ، يقولون ، لا نعرفكم .

﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي كل فريق الآخر على التفسيرين المذكورين ﴿ومأواكم النار﴾ أي مأوى الكفار جميعاً ،وقيل : يدخل في ذلك الأوثان ﴿وما لكم من ناصرين﴾ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم .

﴿فآمن له﴾ أي لإبراهيم ﴿لوط﴾ فصدقه في جميع ما جاء به ،وقيل :إنه لم يؤمن به إلا حين رأى النار لا تحرقه ، وكان لوط ابن أخي إبراهيم هاران ، وقيل :ابن أخته ،والأول أولى قال ابن عباس : آمن أي: صدق برسالته .

﴿وقال إني مهاجر الى ربي﴾ قال النخعي ،وقتادة : الذي قال إني مهاجر هو ابراهيم . قيل: هو أول من هاجر الى الله وترك بلده ، وسار الى حيث أمره الله بالمهاجرة اليه ،قيل : هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ،وقال قتادة : هاجر من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة الى حران ، ثم منها الى فلسطين ، وهي برية الشام ، ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط ، وامرأته سارة ، وقد تزوجها ومن ثم قالوا : لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان ، والمعنى إني مهاجر عن دار قومي الى حيث أعبد ربي .

عن أنس قال:أول من هاجر من المسلمين الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان ، فقال النبي ﷺ صحبهما الله ، إن عثمان لأول من هاجر الى الله بأهله بعد لوط أخرجه أبو يعلى ، وابن مردويه ،عن أسماء بنت أبي بكر قالت : هاجر عثمان الى الحبشة فقال النبي ﷺ : « إنه أول من هاجر بعد إبراهيم ولوط » أخرجه ابن منده ؛ وابن عساكر ، عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ : « ما كان بين عثمان وبين رقية وبين لوط ، مهاجر » ، أخرجه الطبراني ، والحاكم في الكنى وابن عساكر .

﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ أي : الغالب الذي أفعاله جارية على مقتضى الحكمة ، وقيل : إن القائل : إني مهاجر الى ربي هو لوط ، والأول أولى لرجوع الضمير في قوله : ﴿وهبنا له إسحق ويعقوب﴾ الى ابراهيم وكذا الضمير في قوله :

قوله : ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره في الدنيا﴾ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف ، يعني منَّ الله عليه بالأولاد فوهب له بعد إسمعيل بأربع عشرة سنة إسحق ولداً له ، ويعقوب ولداً لولده إسحق ، وقول ابن عباس : هما ولدا ابراهيم لعله يريد ولده وولد ولده ، لأن ولد الولد بمنزلة الولد ، ومثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس ، وهو حبر الأمة ، وهذه عنه من رواية العوفي .

وفي الصحيحين : «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عليه السلام بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، وجعل من ذريته النبوة فلم يبعث الله نبياً بعد ابراهيم إلا من صلبه ونسله » .

ووحد الكتاب لأن الألف واللام فيه للجنس الشامل للكتب ، والمراد التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، ومعنى إيتاء الأجر في الدنيا أنه أعطي فيها

الأولاد في غير أوانه وأخبر الله باستمرار النبوة فيهم ، وذلك مما تقر به عينه ، ويزداد به سروره . وقيل : أجره في الدنيا : أن أهل الملل كلها تدعيه ، وتقول : هو منهم ، ويثنون عليه الثناء الحسن ، ويذكره أهل الاسلام في آخر كل تشهد الى آخر الدهر ، وقيل : أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً ، وعاقبة حسنة ، وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا . وعن ابن عباس قال : إن الله وصى أهل الأديان بدينه ، فليس من أهل الأديان دين إلا وهم يقولون إبراهيم ويرضون به ، وقال : أجر الدنيا الذكر الحسن ، وقال أيضاً : الولد الصالح والثناء .

﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العلا من الرب سبحانه ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً﴾ وقال الكسائي : المعنى وانجينا لوطاً ، أو أرسلنا لوطاً ﴿إذ قال لقومه ، إنكم لتأتون الفاحشة﴾ أي الخصلة المتناهية في القبح ، وهي اللواطة قرىء بالاستفهام وبغيره .

﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ الإنس والجن ، مستأنفة مقررة لكمال قبح هذه الخصلة ، وأنهم منفردون بذلك لم يسبق الى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم قيل : لم ينز[1] ذكر على ذكر قبل قوم لوط من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع ، وتحاشت عنه النفوس ، حتى قدموا عليها لخبث طينتهم .

وهذه الآية دالة على وجوب الحد في اللواطة ، لأنها اشتركت مع الزنا في كونها فاحشة ، وقد قال تعالى : ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ هذا وإن كان قياساً إلا أن الجامع مستفاد من الآيةءقاله الرازي ، ثم بين سبحانه هذه الفاحشة فقال :

(١) نزا ينزو نزواً ونزاء أي وثب . المطيعي .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)

﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ أي :تلوطون بهم ﴿وتقطعون السبيل﴾قيل :إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر بهم من المسافرين ، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم ، فقطعوا السبيل بهذا السبب ، قال الفراء:كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث . وقيل : كانوا يقطعون الطريق على المارة : بقتلهم ونهبهم ، والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق ، من غير تقييد بسبب خاص ، وقيل : إن معنى قطع الطريق قطع النسل بالعدول عن النساء الى الرجال .

﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ النادي والندى والمنتدى مجلس القوم ومتحدثهم ، ولا يقال للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله ، واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه،فقيل : كانوا يحذفون الناس بالحصباء ويستخفون بالغريب .

وعن أم هاني بنت أبي طالب قالت:سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال : « كانوا يجلسون بالطريق ، فيخذفون أبناء السبيل ، ويسخرون منهم ». أخرجه أحمد ، والترمذي وحسنه ، وقال : لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك .

وأخرج ابن مردويه عن جابر أن النبي ﷺ : « نهى عن الخذف » ، وهو قول الله سبحانه ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ وعن ابن عمر قال : في

الآيـة هو الخذف،وعن ابن عباس مثله . وقيل:كانوا يتضارطون في مجالسهم قالته عائشة ،وقيل :كانوا يأتون الرجال في مجالسهم ، وبعضهم يـرى بعضاً ، وقيل : كانوا يلعبون بالحمام، وقيل : كانوا يناقرون بين الديكة ويناطحون بين الكباش وقيل : يبزق بعضهم على بعض ، ويلعبـون بالنـرد والشطرنـج ، ويلبسون المصبغات ، وكان من أخلاقهم مضـغ العلك وتطريف الأصـابع بالحناء ، وحل الإزار ، والصفير ، ولا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات،قال الزجاج: في هذا إعلام أنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المنكر ، وأن لا يجتمعوا على الهزء والمناهي،ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلون أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله :

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ؛ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ أي : فما أجابوا بشيء إلا بهذا القول ، رجوعاً منهم الى التكذيب واللجاج والعناد ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية ، وقد تقدم في سورة النمل ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾ وتقدم في الأعراف : ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم﴾ وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد ومكرراً للنهي لهم ، والوعيد عليهم ، فقالوا له أولاً ، إئتنـا بعذاب الله ، كما في هذه الآية .

فلما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا : أخرجوهم كما في الأعـراف والنمـل،وقيل:أنهم قـالوا أولاً أخـرجوهم من قـريتكم ؛ ثم قالوا ثانياً : إئتنا بعذاب الله،ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه .

و ﴿قال : رب انصرني على القوم المفسدين﴾ بإنزال عذابك عليهم، وتحقيق قولي : إن العذاب نازل بهم . وإفسادهم هـو ما سبق من إتيـان الرجال ، وعمل المنكر في ناديهم ، فاستجاب الله سبحانـه دعاءه ، وبعث لعذابهم ملائكة ، وأمرهـم بتبشير ابراهيم قبل عذابهم ولهذا قال :

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾

﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ أي : بالبشارة بالولد وهو إسحق وبولد الولد وهو يعقوب ﴿قالوا﴾ لإبراهيم : ﴿إنا مهلكو أهل هذه القرية﴾ وهي سدوم التي كان فيها قوم لوط قيل: كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع ابراهيم عليه السّلام ﴿إن أهلها كانوا ظالمين﴾ تعليل للإهلاك أي : إهلاكنا لهم بهذا السبب.

﴿قال﴾ لهم ابراهيم ﴿إن فيها﴾ أي : في هذه القرية ﴿لوطاً﴾ وهو غير ظالم فكيف تهلكونها؟ ﴿قالوا : نحن أعلم بمن فيها﴾ من الأخيار والأشرار ، ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط ﴿لننجينه وأهله﴾ من العذاب ، قرىء لننجينه بالتخفيف والتشديد ، وهما قراءتان سبعيتان .

﴿إلا امرأته كانت﴾ في علم الله وحكمه الأزلي ﴿من الغابرين﴾ أي الباقين في العذاب ، المنغمسين فيه ، الذين لم يخلصوا منه بسبب أن الدال على الشر له نصيب كفاعله كما أن الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على أضياف لوط فصارت واحدة منهم بسبب الدلالة وقيل :المعنى من الباقين في

القرية التي سينزل بها العذاب فتعذب من جملتهم ، ولا تنجو فيمن نجا ، والغابر لفظ مشترك بين الماضي والباقي وقد تقدم تحقيقه .

﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطاً﴾ بعد مفارقتهم ابراهيم و (أن) زائدة وهو مطرد ﴿سيء بهم﴾ أي : جاءه ما ساءه وأخافه ، لأنه ظنهم من البشر فخاف عليهم من قومه لكونهم في أحسن صورة من الصور البشرية .

﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ أي : عجز عن تدبيرهم ، وحزن وضاق صدره وضيق الذراع كناية عن العجز وفقد الطاقة ، كما يقال في الكناية عن الفقر : ضاقت يده ، ومقابله رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقاً له ، وذلك لأن طويل الذراع ينال مالا يناله قصير الذراع ، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في هود ، ولما شاهدت الملائكة ما حل به من الحزن والتضجر .

﴿قالوا لا تخف﴾ علينا من قومك ﴿ولا تحزن﴾ فإنهم لا يقدرون علينا ﴿إنا منجوك وأهلك﴾ من العذاب الذي أمرنا الله بأن ننزله بهم ، قرىء منجوك بالتخفيف والتشديد ، قال المبرد : التقدير وننجي أهلك ﴿إلا امرأتك كانت من الغابرين﴾ في العذاب .

﴿إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء﴾ مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله ، والرجز العذاب ، أي : عذاباً من السماء ، وهو الرمي بالحجارة ، وقيل : إحراقهم بنار نازلة من السماء وقيل: هو الخسف والحصب كما في غير هذا الموضع ، ومعنى كون الخسف من السماء: أن الأمر به نزل من السماء: وسمي العذاب بالرجز لأنه يقلق المعذب من قولهم : ارتجز إذا ارتجس ، أي اضطرب ، قرأ ابن عباس : منزلون بالتشديد وقرىء بالتخفيف ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم .

وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿ولقد تركنا منها آية بينة﴾ أي أبقينا من القرية علامة ودلالة بينة وهي الآثار التي بها من الحجارة التي رجموا بها ، حتى أدركها أوائل هذه الأمة وخراب الديار ، و آثار منازلهم الخربة : وقال مجاهد : هو الماء الأسود الباقي على وجه أرضهم ، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر ﴿لقوم﴾ متعلق بتركنا أو بآية أو بينة وهو أظهر ﴿يعقلون﴾ أي : يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول ، وخص من يعقل لأنه الذي يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها .

﴿وإلى مدين﴾ هو اسم رجل ، وقيل : اسم المدينة ، فعلى الأول المعنى وأرسلنا إلى مدين وأولاده ؛ وعلى الثاني : أرسلنا الى أهل مدين ﴿أخاهم شعيباً﴾ قد تقدم ذكره ، وذكر نسبه ، وذكر قومه في سورة الأعراف وسورة هود ، وأضيف شعيب هنا إليهم ،بخلافه في قصة نوح وابراهيم ولوط حيث ذكر قوم مؤخراً عنهم،معرفاً بالإضافة الى ضمير كل واحد منهم ، لأن الأصل في جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن الله لا يبعث رسولاً الى غير معين .

غير أن قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة

مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالإضافة لنبيهم ، فقيل : قوم نوح ، وقوم لوط ، وقوم ابراهيم ، وأما قوم شعيب ، وهود وصالح ، فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس ، فجرى الكلام على أصله ، فقال : والى مدين أخاهم شعيباً ، والى عاد أخاهم هوداً ذكره الرازي .

﴿فقال : يا قوم اعبدوا الله﴾ أي : أفردوه بالعبادة وخصوه بها ، ولم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن غيره ذلك لأن لوطاً كان في زمن إبراهيم،وإبراهيم سبقه بذلك حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق وانما ذكر عنه ما اختص به من النهي عن الفاحشة وأماغيره فجاءوا في زمن غير مشتهر بالتوحيد ؛ فأمروا به .

﴿ وارجوا اليوم الآخر﴾ أي : توقعوه وافعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم،قال يونس النحوي : معناه اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال وخافوه ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ حال مؤكدة لعاملها ، والعثو ، والعثي أشد الفساد ، وقد تقدم تفسيره .

﴿فكذبوه﴾ والتكذيب راجع الى الاخبارات الضمنية ، كأنه قال : الله واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد محرم فلا تقربوه فلا يقال : إنه لا يكذب الآمر ولا الناهي وإنما يكذب المخبر .

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي : الزلزلة الشديدة وكذا في الأعراف ، وقال في سورة هود : الصيحة ، والقصة واحدة ، قال ابن عباس : أي صيحة جبريل ، وهي سبب الرجفة فرجفت الأرض من صيحته ، والقلوب رجفت بها والاضافة الى السبب لا تنافي الإضافة الى سبب السبب .

﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي في بلدهم وأرضهم أو منازلهم ﴿جاثمين﴾ أي : باركين على الركب ميتين .

﴿وعاداً وثمود﴾ بالصرف وتركه ، بمعنى الحي والقبيلة ، قال الكسائي : قال بعضهم :هو راجع الى أول السورة أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً

وثمود، قال: وأحب إلي أن يكون معطوفاً على: فأخذتهم الرجفة، أي: وأخذت عاداً وثمود، وقال الزجاج التقدير: وأهلكنا عاداً وثمود. وقيل: المعنى اذكر عاداً وثمود إذا ارسلنا اليهم هوداً وصالحاً.

﴿وقد تبين﴾ أي: ظهر ﴿لكم﴾ يامعشر الكفار، ويا أهل مكة ﴿من مساكنهم﴾ أي منازلهم الكائنة بالحجر والاحقاف واليمن آيات بينات تتعظون بها وتتفكرون فيها، وكانوا يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها.

﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي يعملونها من الكفر ومعاصي الله ﴿فصدهم﴾ بهذا التنزيين ﴿عن السبيل﴾ أي: الطريق الواضح الموصل الى الحق ﴿وكانوا مستبصرين﴾ بواسطة الرسل؛ يعني لم يكن لهم في ذلك عذر لأن الرسل أوضحوا السبيل قاله الرازي. وقيل: مستبصرين في الضلالة، قاله ابن عباس، أي أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال لكنهم لم يفعلوا. وقال الفراء: كانوا عقلاء ألباء ذوي بصائر في أمور الدنيا، فلم ينفعهم بصائرهم، وقيل: المعنى كانوا مستبصرين في كفرهم وضلالتهم معجبين بها، يحسبون أنهم على هدى، ويرون أن أمرهم حق، فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم، أو متبينين أن العذاب لاحق لهم بإخبار الرسل لهم، ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

﴿وقارون وفرعون وهامان﴾ قال الكسائي: إن شئت كان معطوفاً على عاد، وكان فيه ما فيه؛ وإن شئت كان على: ﴿فصدهم عن السبيل﴾ أي وصد قارون الخ. وقيل: التقدير: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل. وقدم قارون على فرعون، لشرف نسبه بقرابته من موسى، لكونه ابن عمه، وهامان هو وزير فرعون.

﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾ أي بالحجج الظاهرات، والدلالات الواضحات الباهرات ﴿فاستكبروا في الأرض﴾ عن عبادة الله ﴿وما كانوا سابقين﴾ أي فائتين عذابنا، فارين منه، يقال: سبق طالبه إذ فاته، وقيل: سابقين في الكفر، بل قد سبقهم اليه قرون كثيرة.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

﴿فَكُلاًّ﴾ من المذكورين ﴿أخذنا بذنبه﴾ أي عاقبنا بسبب كفره وتكذيبه ،قال الكسائي : أي فأخذنا كُلًّا بذنبه وفيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب .

﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي ريحاً تأتي بالحصباء ، وهي الحصى الصغار فترجمهم بها . وهم قوم لوط ، قاله ابن عباس .

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهو ثمود وأهل مدين ، قاله ابن عباس .

﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارو ن وأصحابه•قاله ابن عباس .

﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهم قوم نوح ؛ وفرعون قاله ابن عباس .

﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ بما فعل بهم فيعذبهم بغير ذنب لأنه قد أرسل اليهم رسله وأنزل اليهم كتبه ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ باستمرارهم على الكفر ، وتكذيبهم للرسل ، وعملهم بمعاصي الله وارتكابهم الذنوب .

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء﴾ يوالونهم ، ويتكلون عليهم في حاجاتهم من دون الله سواء كانوا من الجماد أو الحيوان ، ومن الأحياء أو من الأموات ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ لنفسها ، تأوي اليه ، وإن بيتها في

غاية الضعف والوهن ، لا يغني عنها شيئاً لا في حر ، ولا قر ، ولا مطر كذلك ما اتخذوه ولياً من دون الله . فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ولا يغني عنهم شيئاً شبه حال من اتخذ الأصنام والأوثان والأحبار والرهبان أولياء وعبدها ، واعتمد عليها ، راجياً لنفعها وشفاعتها ، بحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً لا يغني عنها في مطر ولا أذى .قال الفراء :هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً . قال : ولا يحسن الوقف على العنكبوت ، لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء ، شبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به ، وقد جوز الوقف على العنكبوت الأخفش وغلطه ابن الأنباري ، قال لأن (اتخذ) صلة للعنكبوت .كأنه قال : كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول .

والعنكبوت تقع على الواحد والجمع ؛ والمذكر والمؤنث ، ونونه أصلية والواو والتاء مزيدتان ، بدليل قولهم في الجمع عناكيب وفي التصغير عنيكيب ، وهذا مطرد في أسماء الأجناس ؛ ويجمع على عكاب وعكبة وأعكاب وعناكب . وعنكبوتات أيضاً وهي الدويبة الصغيرة التي تنسج نسجاً رقيقاً ، وقد يقال لها عنكبات ، والغالب في استعماله التأنيث .

﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ لا بيت أضعف منه ، مما يتخذه الهوام بيتاً ، ولا يدانيه في الوهن ، والوهن شيء من ذلك ، فإن الريح إذا هبت عليه أو لمسه لامس فلا يبقى له عين ولا أثر فكما أن أوهن البيوت بيته كذلك أضعف الأديان دين عبدة الأوثان، ومن يعبد غير الله أو يتخذه ولياً وأرباباً من دونه كمقتدي الأحبار والرهبان ومقلديهم .

﴿لو كانوا يعلمون﴾ أن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتاً ، وأن أمر دينهم بلغ هذه الغاية من الوهن ما عبدوها ، أو لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم لعلموا بهذا . قال ابن عباس في الآية : ذاك مثل

ضربه الله لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت .

وأخرج أبو داود في مراسيله . عن يزيد بن مرثد قال : قال رسول الله ﷺ : « العنكبوت شيطان مسخه الله ، فمن وجدها فليقتلها »وعن يزيد بن ميسرة قال « العنكبوت شيطان » .

وأخرج الخطيب عن عليّ قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت أنا وأبو بكر الغار ، فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهن » .

وروى القرطبي في تفسيره عن عليّ أنه قال : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر،وعن عطاء الخراساني قال : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود عليه السلام،ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ ما استفهامية ، أو نافية أو موصولة ، ومن للتبيين ، أو مزيدة للتأكيد . وقيل:التقدير قل للكافرين إن الله يعلم أي شيء تدعون من دونه من إنس وجن وملك وحبر ، وراهب وغير ذلك ، وجزم أبو علي الفارسي بأنها استفهامية ،وعلى تقدير النفي كأنه قيل : يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شيء يعني ما تدعونه ليس بشيء وهذا تأكيد للمثل وزيادة عليه ، وعلى تقدير الموصولة : إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه ، وهذا أظهر الأوجه فيها ، كما قال الكرخي ويجوز أن تكون (ما) مصدرية و (من شيء) عبارة عن المصدر ، وقرىء يدعون بالتحتية لذكر الأمم قبل هذه الآية وقرىء بالفوقية على الخطاب .

﴿وهو العزيز﴾ الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام والإتقان ، وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جماداً وحيواناً لا علم له ، ولا قدرة ، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل كل شيء إلا بحكمة وتدبير .

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وتلك الأمثال﴾ أي هذا المثل وغيره من الأمثال التي في القرآن ﴿نضربها للناس﴾ تنبيهاً لهم وتقريباً لما بعد من أفهامهم ﴿وما يعقلها﴾ أي : ما يفهم صحتها وحسنها وفائدتها ، ويتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله ﴿إلا العالمون﴾ بالله وبأسمائه وصفاته ، الراسخون في العلم ، المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم ، وما يشاهدونه . لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق الى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام ، كما صور هذا التشبيه بين حال المشرك وحال الموحد ، ودلت الآية على فضل العلم على العقل ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالإيمان ، وأظهر الحق بالبرهان ، ولم يأت الكفار بما أمرهم ، ولم يهتدوا بذلك الى سواء السبيل ، وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله :

﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾ أي :خلقهما متلبساً بالعدل والقسط مراعياً في خلقهما مصالح عباده ، غير قاصد به باطلاً . وقيل: المراد بالحق كلامه وقدرته ، والأول أولى ، لأن المقصود بالذات من خلقهما إفاضة الخير والدلالة على ذاته وصفاته ، كما أشار له بقوله :

﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته ؛ وتفرده بالإلهية وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك بخلاف الكافرين ، أي : فإن لم يؤمنوا فلا يضر ذلك في يقينكم وإيمانكم .

﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب﴾ أي القرآن وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن ، والمحافظة على قراءته تقرباً اليه مع التدبر لآياته ، والتفكر في معانيه من الأوامر والنواهي .

﴿وأقم الصلاة﴾ أي دم على إقامتها وجملة ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ تعليل لما قبلها ، كأنه قيل : صل بهم إن الصلاة الخ والفحشاء ما قبح من العمل ، كالزنا مثلاً ؛ والمنكر ما لا يعرف في الشريعة أي تمنعه عن معاصي الله ، وتبعده منها ، ومعنى نهيها عن ذلك أن فعلها يكون سبباً للانتهاء عنها ، والمراد هنا الصلوات المفروضة المكتوبة ، المؤداة بالجماعة قال ابن عباس وابن مسعود:في الصلاة منتهى ومزدجر عن المعاصي .

أخرج ابن مردويه ، وابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله هذا فقال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » .

وأخرج الطبراني ، وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً » .

وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » . اخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، والبيهقي ، وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعاً نحوه . وأخرج عبد بن حميد ، وغيره عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه . قال السيوطي : وسنده ضعيف . قال ابن كثير في تفسيره : والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وغيرهم .

وقيل : من داوم على الصلاة جره ذلك الى ترك المعاصي والسيئآت كما روي عن أنس قال : كان فتى من الأنصار يصلي الصلوات مع رسول الله ﷺ ، ثم لم يدع من الفواحش شيئاً إلا ركبه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : إن صلاته ستنهاه يوماً ، فلم يلبث أن تاب وحسنت حاله » .

وقيل : معنى الآية أنه ما دام في صلاته فإنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، ومنه قوله : إن في الصلاة لشغلاً ، وقيل : تنهى عنهما مطلقاً في سائر الأوقات لأن الصلاة تشغل جميع بدن المصلي ، فإذا دخل في المحراب خشع ، وأخبت لربه ، وتذكر أنه واقف بين يدي مولاه ، وأنه تعالى مطلع عليه ، وأنه يراه فصلحت لذلك نفسه ، وتذللت ، و خامرها ارتقاب الله تعالى ، وظهرت على جوارحه هيئتها ، ولو بعد خروجه منها ، ولم يكد يفتر عن ذلك حتى تظله صلاة أخرى ، يرجع بها الى أفضل حاله ، فهذا معنى هذه الآية ، لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون .

لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ، فهو أبلغ في المقصود ، وأتم في المراد ، فإن الموت ليس له سن محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرد معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . روي عن بعض السلف أنه كان اذا قام الى الصلاة ارتعد واصفر لونه ، فكلم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله ، وحق لي هذا مع ملوك الدنيا ، فكيف مع ملك الملوك ، فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر ، ومن صلاته قاصرة على الإجزاء ، أي إسقاط الطلب عن المكلف ، ولا خشوع فيها ، ولا تذكر ، ولا فضائل كصلاتنا ، فتلك تنزل صاحبها من منزلته حيث كان .

فإن كان مرتكباً للمعاصي قد بعد من الله بسببها ، فتلك الصلاة تتركه يتمادى على بعده . وقيل لابن مسعود: إن فلاناً كثير الصلاة ، فقال : إنها لا تنفع إلا من أطاعها ، ذكره القرطبي . وقيل : أراد بالصلاة القرآن ، وفيه ضعف ، لتقدم ذكر القرآن ، والأول أولى ، وعلى كل حال فإن المراعي للصلاة لا بد وأن يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها .

﴿ولذكر الله﴾ بسائر أنواعه من تحميد ، وتهليل ، وتسبيح ، وغير ذلك ﴿أكبر﴾ من كل شيء أي : أفضل من العبادات كلها بغير ذكر ، وقد نقل القرطبي هذا التقييد عن ابن زيد وقتادة . قال ابن عطية : وعندي أن المعنى

ولذكر الله أكبر على الإطلاق ، أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل ما لم يكن منه في الصلاة لأن الانتهاء لا يكون إلا ممن ذكر الله مراقباً له وقيل: ذكر الله أكبر من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر ، مع المداومة عليه ، قال الفراء وابن قتيبة : المردا بالذكر هنا الصلاة ، والصلاة أكبر من سائر الطاعات وعبر عنها بالذكر كما في قوله فاسعوا الى ذكر الله للدلالة على أن ما فيها من الذكر هو العمدة في تفضيلها على سائر الطاعات ، وكونها ناهية عن السيئآت وقيل : عبر عنها بالذكر ليستقل بالتعليل كأنه قال : والصلاة أكبر لأنها ذكر الله .

وقيل: المعنى ولذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم ، واختار هذا ابن جرير ، ويؤيده حديث من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم . وقال ابن عباس : يقول ولذكر الله لعباده إذ ذكروه أكبر من ذكرهم إياه .

وعن عبد الله بن ربيعة قال: سألني ابن عباس عن قول الله ولذكر الله أكبر فقلت : ذكر الله بالتسبيح ، والتهليل ، والتكبير ، قال : ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه ، ثم قال اذكروني اذكركم .

وعن ابن مسعود قال :ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله ، وعن ابن عمر نحوه ، وعن ابن عباس أيضاً قال لها وجهان ذكر الله أكبر مما سواه ،(وفي لفظ ذكر الله عندما حرمه) ، وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

وعن معاذ بن جبل قال : ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال لا ، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع لأن الله يقول في كتابه العزيز ﴿ولذكر الله أكبر﴾.

وعن عنترة قال :قلت لابن عباس أي العمل أفضل ؟ قال ذكر الله .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ؟ وأرفعها في درجاتكم ؟ وخير لكم من إعطاء الذهب

والورق ، وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : ذكر الله» أخرجه الترمذي .

وله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً ، قالوا : يارسول الله ومن الغازي في سبيل الله ؟ فقال : لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ، ويختضب دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة » .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » . وأخرج البخاري عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال : «لا يقعد قوم يذكرون الله، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وروي أن أعرابياً قال : يارسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال : « تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله»وفي الباب أحاديث كثيرة لا نطول بذكرها . قال ابن عطاء :أكبر أي أن تبقى معه معصية ،وقيل : ذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته .وقيل : لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأماني ، ولأن ذكره لا يفنى وذكركم لا يبقى أو ذكره أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم ، والذكر النافع هو الذي يكون مع العلم ، وإقبال القلب وتفرغه مما سوى الله تعالى ، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى .

﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من الذكر ومن سائر الطاعات لا يخفى عليه من ذلك خافية فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً ، ثم شرع سبحانه في بيان إرشاد أهل الكتاب بعد بيان إرشاد أهل الشرك فقال :

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ أي : بالخصلة التي هي أحسن للثواب ، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ، وعن ابن عباس قال : بالتي هي أحسن ، بلا إله إلا الله .

﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ بأن أفرطوا في المجادلة ، ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم ، والتخشين في مجادلتهم ، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، وقيل : معنى الآية لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وسائر من آمن منهم إلا بالتي هي أحسن ، يعني بالموافقة فيما حدثوكم به، من أخبار أهل الكتاب ، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا هم الباقون على كفرهم .

قال مجاهد : هذه الآية محكمة فيجوز مجادلتهم بها ، وقيل : هي منسوخة بآية القتال ، وبذلك قال قتادة ومقاتل ، قال النحاس وغيره : من قال هي منسوخة احتج بأن الآية مكية ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا طلب جزية ولا غير ذلك . وقول مجاهد حسن ، لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة، إلا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول ، واختار هذا

القول ابن العربي .

قال سعيد بن جبير ومجاهد : المراد بالذين ظلموا منهم الذين نصبوا القتال للمسلمين ، وآذوا رسول الله ﷺ فجادلهم بالسيف حتى يسلموا او يعطوا الجزية . وقيل : إلا الذين اثبتوا الولد والشريك فيدخل فيه أهل الشرك وعبدة الأوثان ، والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين وعلى جواز تعلم علم الكفار الذي به تتحقق المجادلة الحقة بالتي هي أحسن،قال السمين : الاستثناء متصل وفيه معنيان : أحدهما : إلا الظلمة ، فلا تجادلوهم البتة بل جادلوهم بالسيف والثاني :جادلوهم بغير التي هي أحسن أي : اغلظوا لهم كما اغلظوا عليكم وقرأ ابن عباس (إلا) حرف تنبيه أي : فجادلوهم :

﴿وقولوا﴾ هذا تبيين لمجادلتهم بالتي هي أحسن : ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا﴾ من القرآن ﴿وأنزل إليكم﴾ من التوراة والإنجيل ، أي بأنهما منزلان من عند الله وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الاسلامية ، والبعثة المحمدية ، ولا يدخلُ في ذلك ما حرفوه وبدلوه .

أخرج البخاري والنسائي وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وإليكم» .

وأخرج البيهقي وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر ابن عبدالله قال : قال :رسول الله ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق ، والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني » .

وعن ابن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب ، وذكر نحو حديث جابر ،ثم قال :فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه ،

وما خالف كتاب الله فدعوه وهذه الآية من جنس المجادلة بالأحسن .

﴿وإلهنا وإلهكم واحد﴾ لا شريك له ، ولا ند ، ولا ضد ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي : ونحن معاشر أمة محمد ﷺ مطيعون له خاصة لم نقل عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ، ولا اتخذنا أحبارنا ورهباننا أرباباً من دون الله ، ويحتمل أن يراد ونحن جميعاً منقادون له ، ولا يقدح في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتم من انقياد أهل الكتاب ، وطاعتهم أبلغ من طاعتهم .

﴿وكذلك أنزلنا﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ والإشارة الى مصدر الفعل كما بيناه في مواضع كثيرة أي ومثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا ﴿إليك الكتاب﴾ وهو القرآن ، وقيل : المعنى كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن .

﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام وغيره ، وخصهم بايتائهم الكتاب لكونهم العاملين به ، وكأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه ، وجحدهم لصفات رسول الله ﷺ المذكورة فيه ، وكان إسلامهم بالمدينة والسورة مكيّة ، فهذا من قبيل الإخبار بالغيب أخبره تعالى بحالهم قبل وقوعه .

﴿ومن هؤلاء﴾ إشارة الى أهل مكة ، والمراد أن منهم وهو من قد أسلم ﴿من يؤمن به﴾ أي بالقرآن ، وقيل : إشارة الى جميع العرب ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ أي القرآن ، والجحود إنما يكون بعد المعرفة ، وعبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها ، وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت الى نون العظمة لمزيد تفخيمها ، وغاية التشنيع على من يجحد بها .

﴿إلا الكافرون﴾ المصممون على كفرهم المتوغلون فيه من المشركين ، ومن أهل الكتاب ككعب بن الأشرف وأضرابه فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم الى معرفة حقيقتها .

وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

﴿وما كنت﴾ يامحمد ﴿تتلو من قبله من كتاب﴾ أي من قبل القرآن كتاباً ، ولا تقدر على ذلك ، لأنك أميّ لا تقرأ ولا تكتب . و (من) زائدة .

﴿ولا تخطه بيمينك﴾ أي ولا تكتبه لأنك لا تقدر على الكتابة ، وخص اليمين لأن الكتابة ، غالباً تكون باليمين ، أي ولا كنت كاتباً ، قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية قال النحاس : وذلك دليل على نبوته لأنه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب ، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ،

قال ابن عباس :لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب ، وكان أمياً ، قال الحافظ بن حجر في تخريج أحاديث الرافعي : قال البغوي في التهذيب : هل كان النبي ﷺ يحسن الخط ولا يكتب ويحسن الشعر ولا يقوله أو لا ؟ والأصح أنه كان لا يحسنها ولكن كان يميز بين رديء الشعر وجيده ، ذكره الشهاب وما أحسن ما قال آزاد رحمه الله :

ما كان يعرف ألواحاً ولا قلماً   وكان يعرف ما في اللوح والقلم

وهذا شروع في الدليل على كون القرآن معجزاً ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لقالوا لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة من الكتب المدونة في أخبار الأمم ، فلما كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ، ولا محل للشك أبداً ، بل إنكار من أنكر وكفر من كفر ، مجرد عناد وجحود بلا شبهة ، وسماهم المبطلين لأن ارتيابهم

على تقدير أنه ﷺ يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته ، ووضوح معجزاته .

﴿بل هو﴾ أي القرآن الذي جئت به ﴿آيات بينات﴾ وقال قتادة ومقاتل : إن الضمير يرجع الى النبي ﷺ أي بل محمد آيات ، أي ذو آيات ،وقرأ ابن مسعود :بل هي آيات بينات ، قال الفراء معنى هذه القراءة بل آيات القرآن آيات بينات،واختار ابن جرير ما قاله قتادة ومقاتل ، وقد استدل لما قالاه بقراءة ابن السميفع بل هذا آيات بينات ، ولا دليل في هذه على ذلك ، لأن الإشارة يجوز أن تكون الى القرآن كما جاز أن تكون الى النبي ﷺ ، بل رجوعها الى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك الى التأويل ؛ وهو إضراب عن ارتيابهم أي ليس القرآن مما يرتاب فيه لكونه محفوظاً .

﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ يعني العلماء المؤمنين الـذين حفظوا القرآن على عهده ﷺ ، وحفظوه بعده عن ظهر قلب ، وهذا من خصائص القرآن بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات ، ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف ، ولذا جاء في وصف هذه الأمة صدورهم أناجيلهم،ولذلك لا يقدرون على تحريفه ولا تغييره ، والمراد أنهم يحفظونه تلقيناً منك ، وبعضهم من بعض ، وأنت تلقيته عن جبريل عن اللوح المحفوظ فلم تأخذه من كتاب بطريق تلقيه منه .

﴿وما يجحد بآياتنا﴾ أي القرآن الكريم ﴿إلا الظالمون﴾ أي المجاوزون للحد ، والمتوغلون في الظلم ، ﴿وقالوا﴾ أي المشركون ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ المعنى هَـلاّ أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء وذلك كآيات موسى ، وناقة صالح ، وإحياء المسيح للموتى ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال :

﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ ينزلها على من يشاء من عباده ، ولا قدرة لأحد على ذلك ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أنذركم بما أمرت وأبين لكم كما ينبغي ليس في قدرتي غير ذلك .

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)﴾

﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ مستأنفة للرد على اقتراحهم ، وبيان بطلانه أي أو لم يكف المشركين من الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه فعجزوا ولو أتيتهم بآيات موسى أو بآيات غيره من الأنبياء لقالوا : سحر ، ونحن لا نعرف السحر والكلام مقدور لهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضة ولما آمنوا كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كل زمان ومكان فلا تزال معهم آية ثابتة لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها ، أو تكون في مكان دون مكان ، والمعنى أن القرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الأنبياء ، مغنية عن سائر الآيات ، لأن معجزة القرآن تدوم على مر الدهور والزمان ، ثابتة لا تضمحل كغيرها من الآيات .

﴿إن في ذلك﴾ الكتاب الموجود في كل مكان وزمان الى آخر الدهور الموصوف بما ذكر ﴿لرحمة﴾ عظيمة في الدنيا والآخرة ﴿وذكرى﴾ في الدنيا يتذكرون بها وترشدهم الى الحق ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي لقوم يصدقون بما جئت به من عند الله فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك .

أخرج الدارمي وأبو داود في مراسيله وغيرهما عن يحيى بن جعدة قال : جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوها ، فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبي ﷺ : « كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم اليهم الى ما جاء به غيره الى غيرهم ، فنزلت ، أو لم يكفهم الآية » .

وعن الزهري : أن حفصة جاءت الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرؤه ، والنبي ﷺ يتلون وجهه

فقال : والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم » .

وعن عبد الله بن الحرث الأنصاري قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك : فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله قط فقال عبد الله بن الحرث لعمر :أما ترى وجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً ؛ وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فسرى عن رسول الله ﷺ وقال لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظي من الأمم .أخرجه عبدالرزاق وابن سعد وابن الضريس .

وأخرج البيهقي وضعفه ،عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول الله ﷺ عن تعلم التوراة فقال : لا تتعلمها وآمن بها ، وتعلموا ما أنزل اليكم وآمنوا به » .

﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي قل للمكذبين :كفى الله شهيداً بما وقع بيني وبينكم ،وقال ابن عباس :معناه يشهد لي إني رسوله والقرآن كتابه ويشهد عليكم بالتكذيب ، وشهادة الله إثبات المعجزّة له بانزال الكتاب عليه والقرآن وحده كاف واف لا حاجة معه الى غيره من الكتب لمن آمن به وعمل صالحاً .

﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، ومن جملته ما صدر بينكم وبين رسوله ﷺ ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾ أي بما يعبدونه من دون الله ، قال ابن عباس : بالباطل أي بغير الله ، وقيل :بعبادة الشيطان وقيل : بما سوى الله ، والمعاني متقاربة ، ثم ذكر الكفر بعد الباطل لبيان قبح الأول فقال :

﴿وكفروا بالله﴾ وآياته ، والجملة مؤكدة لما قبلها ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ استهزاء وتكذيباً منهم بذلك، كقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴿ولولا أجل مسمى﴾ قد جعله الله لعذابهم، وعينه، وهو القيامة،وقال الضحاك: الأجل مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا الى العذاب؛ وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى،وقيل: الوقت الذي قدره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل أو الأسر يوم بدر، والحاصل أن لكل عذاب أجلاً لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، كما في قوله سبحانه﴿لكل نبأ مستقر﴾.

﴿لجاءهم العذاب﴾ أي لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبهم عاجلاً ﴿وليأتينهم بغتة﴾ أي فجأة كوقعة بدر فإنها أتتهم بغتة والجملة مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي حال كونهم لا يعلمون بإتيانه على ما تشهد لهم كتب السير، ثم ذكر سبحانه أن موعد عذابهم النار فقال:

﴿يستعجلونك بالعذاب﴾ أي يطلبون منك تعجيل عذابهم في الدنيا، ذكر هذا للتعجب لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة او لكمة، قد يرى من نفسه الجلد ويقول: باسم الله هات وأما من توعد بإغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد، فلا يخطر بباله أن يقول هات ما توعدتني به فقوله ويستعجلونك بالعذاب أولا إخبار عنهم،وقوله ثانياً: يستعجلونك بالعذاب تعجب منهم وقيل: التكرير للتأكيد.

﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي: والحال أن مكان العذاب محيط

بهم أي سيحيط بهم عن قرب ، فإن ما هو آت قريب فعبر عن الاستقبال بالحال للدلالة على التحقق والمبالغة أو يراد بجهنم أسبابها الموصلة اليها فلا تأويل في قوله : محيطة ، والأول أظهر ، والمراد بالكافرين جنسهم ، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولاً أولياً ، والمعنى أن جهنم جامعة لهم لا يبقى منهم أحد إلا دخلها .

قال ابن عباس : جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه ، وتكون فيه الشمس والقمر ، ثم يستوقد فيكون هو جهنم ، وفي هذا نكارة شديدة ! فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ، ثم ذكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم فقال :

﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي من جميع جهاتهم لقوله تعالى ﴿من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل﴾ ، فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة فقد أحاطت بهم جهنم .قيل : خص الجانبين ولم يذكر اليمين ولا الشمال ، ولا الخلف ولا الأمام ، لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ، فنار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع ، فإن من دخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه ويمينه وشماله ، وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل في العادة ، وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم بل تطفأ ، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تطفأ بالدوس عليها بوضع القدم ، ذكره الرازي .

﴿ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ والقائل هو الله سبحانه وتعالى أو بعض ملائكته بأمره في ذلك اليوم ، أي ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر والمعاصي ، فلا تفوتوننا قرىء : نقول بالنون وبالتحتية لقوله :قل كفى بالله ، وقرىء : ويقال ذوقوا ، ولما ذكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب ومن المشركين وجمعهم في الإنذار ، وجعلهم من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه فقال الله سبحانه :

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ۝٥٧﴾

﴿ياعبادي الذين آمنوا﴾ أضافهم اليه بعد خطابه لهم تشريفاً وتكريماً ، والموصول صفة موضحة أو مميزة ﴿إن أرضي واسعة﴾ قيل : نزلت في ضعفاء مسلمي أهل مكة؛ يقول الله : إن كنتم في ضيق في مكة من إظهار الإيمان ، وفي مكايدة للكفار فاخرجوا منها لتتيسر لكم عبادتي وحدي ، وتتسهل عليكم .

وقيل : نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة ، وقالوا : نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة ، فأنزل الله هذه الآية ولم يعذر لهم بترك الخروج . قال الزجاج: أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا تمكنهم فيه عبادة الله ، وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر الى حيث يتهيأ أن يعبد الله حق عبادته ، وقال مطرف بن الشخير : المعنى أن رحمتي واسعة ورزقي لكم واسع ، فابتغوه في الأرض . وقيل : البلاد والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتاً كثيراً ، قال علي القارى رحمه الله : وأما اليوم فإنا بحمد الله لم نجد أعون على قهر النفس ، وأجمع للقلب ، وأحث على القناعة ، وأطرد للشيطان ، وأبعد من الفتن وأربط للأمر الديني ، وأظهر له من مكة حرسها الله تعالى[1] .

أقول: لولا ما فيها الآن من استطالة أهل البدع على أهل السنة وإيثار التنظيمات السلطانية على الأحكام الرحمانية ، وظلم أهل المكس على الحجاج ، وعدم الانتصاف من أهل الاعتساف ، والحجر على العمل بالسنة ، والتمسك بالحق ، والله يفعل ما يشاء ويحكم على ما يريد .

(١) من أول (أقول) كلام المصنف الذي ينعي على الحجاز ما كان في عهده من فراهة الشر واستفحال أهل الحرابة وقطاع الطرق . المطيعي .

قال سهل :اذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها الى أرض المطيعين،قلت وأنّى لنا هذا اليوم ؟ ولو علمنا أرضاً طائعة على وجه البسيطة على حسب ما نطق به الكتاب والسنة أو ما ذهب اليه فقهاء الأمة لخرجنا اليها إن شاء الله تعالى ؛ ولكن كم من أمنية ضاعت فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وروي مرفوعاً : من فر بدينه من أرض الى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة ، ولينظر في سنده وتخريجه،وقيل :المعنى : إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة .

﴿فإياي فاعبدون﴾ حتى أورثكموها ، وانتصاب إياي بفعل مضمر ، أي : فاعبدوا إياي ، ثم لما صعب على المؤمنين ترك الأوطان ، ومفارقة الإخوان ، خوفهم سبحانه بالموت ليهون عليهم أمر الهجرة ، وشجع المهاجرين لئلا يقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت فقال :

﴿كل نفس﴾ من النفوس ﴿ذائقة الموت﴾ أي : واجدة مرارة الموت وكربه ومشاقه لا محالة كما يجد الذائق طعم المذوق فلا يصعب عليكم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، وهجر الخلان ، بل الأولى أن يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه ، فلا تخافوا من بعد الشقة ومقاساة المشقة ﴿ثم إلينا﴾ لا الى غيرنا .

﴿ترجعون﴾ بالموت والبعث إلينا فكل حي في سفر الى دار القرار ، وإن طال لبثه في هذه الدار .

عن عليّ قال : قال رسول الله ﷺ لما نزلت :﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ قلت : يارب أيموت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء ؟ فنزلت كل نفس ذائقة الموت،الآية أخرجه ابن مردويه ،وينظر كيف صحته ؟ فإن النبي ﷺ بعد أن يسمع قول الله سبحانه :﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ يعلم أنه ميت ، وقد علم أن من قبله من الأنبياء قد ماتوا ، وأنه خاتم الأنبياء،فكيف ينشأ عن هذه الآية ما نقل عنه علي رضي الله عنه من قوله أيموت الخلائق ويبقى الأنبياء ؟ فلعل هذه الرواية لا تصح مرفوعة ولا موقوفة .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ في هذا ترغيب الى الهجرة ، وأن جزاء من هاجر أن يكون في غرف الجنة كما قال ﴿لنبوئنهم﴾ أي لننزلنهم ، وهو مأخوذ من المباءة وهي الإنزال ، وقرىء لنثوينهم بالثاء ، والمعنى لنعطينهم غرفاً يثوون فيها من الثوى ،وهو الإقامة قال الزجاج: يقال: ثوى الرجل إذا أقام وأثويته إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه . قال الأخفش: لا تعجبني هذه القراءة لأنك لا تقول: أثويته الدار ، بل تقول : في الدار ، وليس في الآية حرف جر في المفعول الثاني .

﴿من الجنة غرفاً﴾ أي: غرف الجنة وهي علاليها جمع علية ، ثم وصف سبحانه تلك الغرف فقال ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من تحت الغرف ﴿خالدين فيها﴾ أي مقدرين الخلود في الغرف ،لا يموتون أبداً ، أو في الجنة، والأول أولى .

﴿نعم أجر العاملين﴾ للأعمال الصالحة أجرهم ، بيَّن في هذه الآية: أن للمؤمنين الجنات في مقابلة أن للكافرين النيران ،وأن فيها غرفاً تحتها الأنهار: في مقابلة أن تحت الكافرين النار ، وبيَّن أن ذلك أجر عملهم بقوله: نعم أجر العاملين في مقابلة ما تقدم للكفار بقوله : ذوقوا ما كنتم تعملون ، ولم يذكر

ما فوق المؤمنين لأنهم في أعلى عليين فلم يذكر فوقهم شيئاً إشارة الى علو مرتبتهم ، وارتفاع منزلتهم ، .ولم يجعل الماء من تحت أقدامهم ، بل من تحت غرفهم لأن الماء يكون ملتذاً به في أي جهة كان ، وعلى أي بعد كان إذا كان تحت الغرفة ذكره الرازي ، ثم وصف هؤلاء العاملين بقوله :

﴿الذين صبروا﴾ على مشاق التكاليف ، وعلى أذية المشركين لهم ، والهجرة لإظهار الدين وعلى الطاعة ، وعن المعاصي ، ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي: يفوضون أمورهم اليه في كل إقدام وإحجام ، ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر والتوكل ، وهو النظر في حال الدواب فقال :

﴿وكأين﴾ قد تقدم الكلام فيها وأنها أي دخلت عليها كاف التشبيه ، وصار فيها معنى كم كما صرح به الخليل وسيبويه ، وتقديرها عندهما كشيء كثير من العدد ﴿من دابة﴾ وقيل : المعنى وكم من دابة ذات حاجة الى غذاء ﴿لا تحمل رزقها﴾ أي لا تطيق حمله لضعفها ، ولا تدخره لغد ، ولا ترفعه معها مثل البهائم والطير .

﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي إنما يرزقها الله من فضله ويرزقكم ، فكيف لا تتوكلون على الله مع قوتكم وقدرتكم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها وعجزها . قال الحسن : تأكل لوقتها لا تدخر شيئاً،وقال مجاهد : يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً .

وعن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ، والمعنى أنها تذهب أول النهار جياعاً ضامرة البطون وتروح آخر النهار الى أوكارها شباعاً ممتلئة البطون ، ولا تدخر شيئاً . قال سفيان بن عيينة : ليس شيء من خلق الله يخبىء إلا الإنسان والفأرة والنملة ، سوّى سبحانه وتعالى في هذه الآية بين الحريص والمتوكل في الرزق ، وبين الراغب والقانع ، وبين الجلد والعاجز يعني أن الجلد لا يتصور

أنه مرزوق بجلده ، ولا يتصور العاجز أنه ممنوع من الرزق بعجزه .

﴿وهو السميع﴾ الذي يسمع كل مسموع ﴿العليم﴾ بكل معلوم .

أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وابن عساكر ، قال السيوطي : بسند ضعيف عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط التمر ويأكل،فقال لي : مالك لا تأكل ؟قلت :لا أشتهيه يارسول الله،قال : لكني أشتهيه ، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ، ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين ؟ قال : فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾، فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ؛ ولا أخبىء رزقاً لغد ، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته ما كان عليه النبي ﷺ فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتبرة،وفي إسناده أبو العطوف[1] الجوزي وهو ضعيف . ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم ، وعجب السامع من كونهم يقرون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحدونه ولا يتركون عبادة غيره فقال :

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض﴾ أتى بشيئين،أحدهما يتعلق بالذوات ؛ وهو هذا ، والثاني يتعلق بالصفات ، وهو قوله ﴿وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾ ، خلقها ، لا يقدرون على إنكار ذلك ، ولا يتمكنون من جحوده .

﴿فأنى يأفكون ؟﴾ أي : فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده بالإلهية؟

---

(١) كذا بالأصل وصوابه : أبو العطوف الجزري وهو الجراح بن منهال روى عن الزهري قال أحمد : كان صاحب غفلة ، وقال ابن المديني : لا يكتب حديثه . وقال البخاري ومسلم : منكر الحديث . وقال النسائي، والدارقطني : متروك. وقال ابن حبان : كان يكذب في الحديث ويشرب الخمر . مات سنة سبع وستين ومائة ؟ المطيعي .

وأنه وحده لا شريك له ؟ والاستفهام للإنكار والاستبعاد . ذكر في السموات والأرض الخلق ، وفي الشمس والقمر التسخير ، لأن مجرد خلقهما ليس حكمة ، فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ، ولا الصيف ولا الشتاء ، فحينئذ الحكمة إنما هي في تحريكهما وتسخيرهما ، ولما قال المشركون لبعض المؤمنين : لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع الله سبحانه ذلك بقوله :

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقدر له﴾ أي التوسيع في الرزق والتقتير له هو من الله الباسط القابض ، يبسطه لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، على حسب ما تقتضيه حكمته ، وما يليق بأحوال عباده من القبض والبسط ،ولهذا قال : ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما فيه صلاح عباده وفسادهم ومنه البسط والتضييق .

﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الأرض من بعد موتها﴾ أي جدبها ، وقحط أهلها ﴿ليقولن : الله﴾ أي يعترفون بذلك لا يجدون الى إنكاره سبيلاً فكيف يشركون به بعد هذا الإقرار ؟ ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف في هذه الآيات ؛ وهو يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك وعدم افراد الله سبحانه بالعبادة أمر الله رسوله ﷺ أن يحمد الله على إقرارهم بذلك وعدم جحودهم ، مع تصلبهم في العناد ، وتشددهم في رد كل ما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد ، فقال :

﴿قل : الحمد لله﴾ أي :أحمد الله على أن جعل الحق معك ، وأظهر حجتك عليهم ، وقيل : على إنزال الماء ، وإحياء الأرض بالنبات ، والأول أولى ، ثم ذمهم فقال : ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ الأشياء التي يتعقلها العقلاء فلذلك لا يعلمون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هم عليه عند كل عاقل ، ثم أشار سبحانه الى تحقير الدنيا وتصغيرها ، وأنها من جنس اللعب واللهو ، وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأن الدار على الحقيقة هي الدار الآخرة فقال :

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ أي : من جنس ما يلهو به الصبيان ويلعبون به ، وأما القرب ، كالصلاة ، والصوم والحج والاستغفار ، والتسبيح فمن أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها . واللهو هو الاستمتاع بلذات الدنيا وقيل : هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه ، واللعب هو العبث ، وقيل : اللهو هو الإعراض عن الحق بالكلية ، واللعب : الإقبال على الباطل ، قاله الرازي . وفي هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ، ومعنى الآية أن سرعة زوال الدنيا عن أهلها ، وتقلبهم فيها ، وموتهم عنها ، كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون .

﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي الحياة الدائمة الخالدة التي لا موت فيها ، قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : إن الحيوان الحياة ، قال الواحدي وهو قول جميع المفسرين ، ذهبوا الى أن معنى الحيوان ههنا الحياة ، وأنه مصدر ، بمنزلة الحياة فيكون كالنزوان والغليان ، وواو الحيوان مقلوبة عن ياء عند سيبويه وأتباعه ، وقال أبدلت شذوذاً وكذا في حياة علما[1] وقال أبو البقاء : لئلا يلتبس بالتثنية ، وغير سيبويه حمل ذلك على ظاهره ، فالحياة عنده لامها واو ، ولا دليل لسيبويه في حي ، لأن الواو متى انكسر ما قبلها قلبت ياء نحو : عرى ورعى ورضى ، والتقدير لهي دار الحيوان أو ذات الحيوان ، أي : دار الحياة الباقية التي لا تزول ، أولا ينغصها موت ولا مرض ولا هم ولا غم ، وقدر أبو البقاء أن حياة الدار وذلك ليتطابق المبتدأ والخبر والمبالغة أحسن : قال ابن عباس هي الحيوان ؛ أي الباقية .

(١) فعل ماض مبني للمجهول والألف للإطلاق ، ويبدو أنها شطرة من رجز.المطيعي .

وعن أبي جعفر قال : قال رسول الله ﷺ : « ياعجباً كل العجب من مصدق بدار الحيوان ، وهو ليسعى لدار الغرور » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب وهو مرسل ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أن الحياة هي حياة الآخرة ، أو يعلمون شيئا من العلم لما آثروا الدار الفانية المنغصة على الآخرة الباقية ، ثم بيَّن سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرد تأثير الحياة فقال :

﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ أي : إذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق فقال:رجعوا الى الفطرة ،والركوب هو الاستعلاء وهو متعد بنفسه ،وإنما عدى بكلمة (في) للإشعار بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة ﴿دعوا الله﴾ وحده ﴿مخلصين له الدين﴾ بصدق نياتهم ، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه .

﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ وآمنوا ﴿إذا هم يشركون﴾ أي فاجأوا المعاودة الى الشرك ودعوا غير الله سبحانه ، وعادوا الى ما كانوا عليه من العناد .وقيل : كان أهل الجاهلية اذا ركبوا البحر حملوا الأصنام ، فإذا اشتد الريح ألقوها في البحر ، وقالوا يارب يارب ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الإنجاء .

﴿وليتمتعوا﴾ أي فاجأوا الشرك بالله ليكفروا ويجحدوا بنعمة الله وليتمتعوا بها ،فاللام في الفعلين لام كي ، وفيه شيء لأنه ليس الحامل لهم على الإشراك قصد الكفر ، والظاهر أنها لام العاقبة والمآل ، كما أشار له الشهاب ، وقيل:اللام للتعليل ، والمعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلا التمتع به في العاجلة ولا نصيب لهم في الآخرة .وقيل : هما لاما الأمر تهديداً ووعيداً أي:اكفروا بما أعطيناكم من النعمة ، وتمتعوا . ويدل على هذا المعنى قراءة أبيّ وتمتعوا ، وهذا الاحتمال للأمرين إنما هو على قراءة أبي عمرو،وورش بكسر اللام،وأما على قراءة الجمهور بسكونها،فلا خلاف أنها لام الأمر .

﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة ذلك الأمر وما فيه من الوبال عليهم ، وفيه تهديد لهم عظيم .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

﴿أولم يروا﴾ أي ألم ينظر كفار قريش ﴿أنا جعلنا﴾ حرمهم أي بلدهم مكة ﴿حرماً آمنا﴾ يأمن فيه ساكنه من الغارة، والقتل، والسبي، والنهب، فصاروا في سلامة وعافية مما صار فيه غيرهم من العرب، فإنهم في كل حين تطرقهم الغارات، ويجتاح أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود وتستبيح حرمهم وأموالهم شطار العرب وشياطينها.

﴿ويتخطف الناس﴾ جملة حالية، أي وهم يتخطف الناس ﴿من حولهم﴾ بالقتل والسبي والنهب والخطف: الأخذ بسرعة، وقد مضى تحقيق معناه في سورة القصص، والجملة حالية ﴿أفبالباطل يؤمنون؟﴾ وهو الشرك والأصنام والشيطان بعد ظهور حجة الله عليهم وإقرارهم بما يوجب التوحيد ﴿وبنعمة الله يكفرون﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وسلم والإسلام ويجعلون كفرها مكان شكرها وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره.

﴿ومن﴾ أي: لا أحد ﴿أظلم ممن افترى على الله كذباً؟﴾ وهو من زعم أن لله شريكاً ﴿أو كذب بالحق لما جاءه﴾ أي كذب بالرسول الذي أرسل اليه، أو الكتاب الذي أنزله على رسوله. وقال السدي: بالتوحيد والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق، ثم هدد المكذبين وتوعدهم فقال:

﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين؟﴾ أي مكان يستقرون فيه،

والاستفهام للتقرير، والمعنى أليس يستحقون الاستقرار فيها ؟ وقد فعلوا ما فعلوا لأن همزة الإنكار ، إذا دخلت على النفي صار إيجاباً فيرجع الى معنى التقرير . أو ألم يصح عندهم أن جهنم مثواهم حين اجترأوا مثل هذه الجرأة ؟ ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين التوحيد ، الكافرين بنعم الله ، أردفه بحال عباده الصالحين فقال :

﴿والذين جاهدوا﴾ أي : أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم ، على ما دل عليه بالمفاعلة ﴿فينا﴾ أي : في شأن الله لطلب مرضاته ، ورجاء ما عنده من الخير وقيل: في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا ، ومراقبتنا ، خاصة بلزوم الطاعات من جهاد الكفار ، وغيرهم من كل ما ينبغي الجهاد فيه ، بالقول والفعل ، في الشدة والرخاء ، ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن ، وشدائد المحن مستحضرين لعظمتنا .

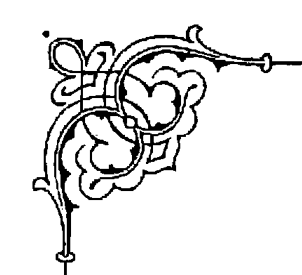
﴿لنهدينهم سبلنا﴾ أي سبل السير والطريق الموصل إلينا وقيل :لنزيدنهم هداية الى سبل الخير ، وتوفيقاً .وعن ابن عطاء :جاهدوا في رضانا لنهدينهم الى الوصول الى محل الرضوان ، وعن الجنيد : جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص او جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا ، والأنس بنا ، قال ابن عطية : هي مكيّة نزلت قبل فرض الجهاد العرفي ، وإنما هو جهاد عام في دين الله ، وطلب مرضاته .

وقيل : الآية هذه نزلت في العباد ، قال سفيان بن عيينة: اذا اختلف الناس فانظروا ماعليه أهل الثغور ، فإن الله تعالى يقول : والذين جاهدوا فينا الخ وقيل: المجاهدة الصبر على الطاعات ، والمخالفة للهوى . وقال الفضيل بن عياض: والذين جاهدوا فينا أي : في طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به . وقال سهل بن عبدالله : الذين جاهدوا بإقامة السنة وإماتة البدعة لنهدينهم سبل الجنة، وقال ابن عباس: الذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وقال أبو سليمان الداراني : الذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا أو عن بعضهم : من عمل بما علم وفق لعلم ما لم يعلم .

وقال ابراهيم بن أدهم:هي في الذين يعملون بما يعلمون،وقال الداراني أيضاً :ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين وأعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله .

قال ابن عيينة : مثل السنة في الدنيا،كمثل الجنة في العقبى من دخل الجنة في العقبى سلم ، فكذلك من لزم السنة في الدنيا سلم وظاهر الآية العموم فيدخل تحته كل ذلك ، قال النسفي: أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ، ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس ، والشيطان ، وأعداء الدين .

﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ بالنصر والعون في دنياهم والمغفرة في عقباهم ، وثوابهم الجنة في الآخرة ، ومن كان الله معه لا يخذل أبداً ودخلت لام التوكيد على (مع) بتأويل كونها اسماً أو على أنها حرف ودخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار ،كما تقول :إن زيداً لفي الدار والبحث مقرر في علم النحو ، وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر إظهاراً لشرفهم بوصف الاحسان .





سورة الروم

﴿هي ستون أو تسع وخمسون آية﴾

قال القرطبي: كلها مكيّة بلا خلاف. قال ابن عباس: نزلت بمكة. وعن ابن الزبير مثله. وقال البيضاوي: الا قوله: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾. والاول أولى.

وأخرج عبد الرزاق، واحمد - قال السيوطي بسند حسن - عن رجل من الصحابة: أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ فيها سورة الروم. وأخرج البزار عن اغر المزني مثله. وعن عبد الملك بن عمير أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وأحمد بن قانع من طريق ابن عمير مثل حديث الرجل الذي من الصحابة. وزاد فتردد فيها فلما انصرف قال: «انما يلبس علينا في صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور. من شهد الصلاة فليحسن الطهور».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾

﴿الٓمٓ﴾ قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة في فاتحة سورة البقرة ، والله أعلم بمراده بذلك .

﴿غلبت الروم﴾ قرىء مبنياً للمفعول وللفاعل . قال النحــاس : قراءة الناس بضم الغين وكسر اللام ، قال أهل التفسير : غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة ، وقالوا : الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب ، وافتخروا على المسلمين ، فقالوا : نحن أيضاً نغلبكم كما غلبت فارس الروم ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، أي : نصارى ، فهم أقرب الى الاسلام ، والفرس مجوس فهم أقرب الى كفار قريش وفارس اسم أعجمي علم على تلك القبيلة ، فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، بل والعجمة ، وعن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت الٓمٓ غلبت الروم ، وقرأها على البناء للفاعل ، ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس ، وعن أبي الدرداء قال : سيجيء أقوام يقرأون الٓمٓ غلبت يعني بالفتح وإنما هي غلبت يعني بالضم ، والروم اسم قبيلة سميت باسم جدها ، وهو روم[1] بن عيصو بن

(١) لا أصل لكلام ابن جزي من علم التاريخ ولا من علم الأجناس ولا من علوم الدين ، والروم يعدون سلالة إبراهيم وغير الروم على الإطلاق برابرة حتى بعد دخولهم المسيحية ؟ المطيعي .

إسحق ابن ابـراهيم قاله ابن جزي في تفسيره ، وسمي عيصو لأنه كان مع يعقوب في بطن ،فعند خروجهما تزاحما ، وأراد كل أن يخرج قبل صاحبه ،فقال عيصو ليعقوب : إن لم أخرج قبلك وإلا خرجـت من جنبها ، فتأخر يعقوب شفقة منه فلذا كان أبا الأنبياء ، وعيصو أبا الجبارين ،كذا قيل والله أعلم ،قيل : وكانت هذه الحروب بين أذرعـات وبصرى ، والملك بفارس يومئـذ كسرى أبرويز .

﴿في أدنى الأرض﴾ متعلق بغلبت أي أقرب أرض من أرض العرب ، أو في أقرب أرض العرب منهم . قيل : هي أرض الجزيرة ، وقيل : أذرعات وقيـل : كسكر ، وقيـل الأردن ، وقيـل فلسـطين[٢] وهـذه المـواضـع هي أقـرب الى بلاد العرب من غيرها ، وإنما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهودة في ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب ، وقيل : إن الألف واللام عوض عن المضاف إليه ، والتقدير في أدنى أرضهم فيعود الضمير الى الروم ، ويكون المعنى في أقرب أرض الروم من العرب الى فارس ، والمراد بالجزيرة ما بين دجلة والفرات ، وليس المراد بها جزيرة العرب وحدها على ما روي عن الأصمعي : أنها من أقصى عدن الى ريف العراق طولاً ، ومن جدة وما والاها الى أطراف الشام عرضاً .

وسبب تسميتها جزيرة ،إحاطة البحار والأنهار العظيمة بها ، كبحر الحبشة وبحر فارس ، ودجلة والفرات .وقال ابن جزي في تفسيره : الجزيرة بين الشام

---

(٢) الحقيقة التي أجمع المؤرخون لهذه الحرب عليها أن الفرس انتصروا على الروم ودخلوا بيت المقدس وانتزعوا منه الصليب المقدس الذي يزعم الرومان أنه الذي صلب عليه المسيح . فتأهب الروم للكر على الفرس فانتصروا عليهم بقيا دة ملكهم هرقل واستردوا الصليب وفي أثناء تجول هرقل في بلاد الشام سمع بالبعثة المحمدية فبعـث من يطلب أحداً من مكة يعلم بخبر النبي ﷺ وكان يومئذ بغزة كما في حديث البخاري واستاق له رجاله أبا سفيان بن حرب وجرى بينهما الحوار المعروف الذي استنتج منه الإمبراطور أن صاحب هذه الدعوة سيملك موضع قدميه فالمعركة محددة المعالم معروفة الأماكن ؟ . المطيعي .

والعراق . وهي أول الروم إلى فارس . قال ابن عطية : إن كانت الوقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم .

وعن ابن عباس قال : كان المشركون يحبون أن يظهر فارس على الروم لأنهم كانوا أصحاب أوثان ؛ وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «أما إنهم سَيَغلبون» فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ؛ وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل بينهم أجلاً خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : ألا جعلته أراه قال دون العشرة ، فظهرت الروم بعد ذلك. فذلك قوله : ألم غلبت الروم ، فغلبت ثم غلبت بعد . قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر .

وعن البراء بن عازب نحوه ، وزاد أنه لما مضى الأجل ولم تغلب الروم فارس ساء النبي ﷺ ما جعله أبو بكر من المدة وكرهه ، وقال: ما دعاك الى هذا ؟ قال : تصديقاً لله ولرسوله ، فقال : تعرض لهم وأعظم الخطة ، واجعله الى بضع سنين ، فأتاهم أبو بكر فقال : هل لكم في العود ، فإن العود أحمد ، قالوا : نعم ، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا رومية فقمر[1] أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا السحت تصدق به . ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد : أن العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار ، وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة والقصة حجة عليهما ، لا لهما لأنها كانت قبل تحريم القمار ، وفيه : هذه السحت تصدق به .

---

(١) قمر أبو بكر أي كسب الرهان وهو من القمار الذي حرم بعد ذلك . المطيعي .

﴿وهم من بعد غلبهم﴾ أي : والروم من بعد غلب فارس إياهم ﴿سيغلبون﴾ أهل فارس ، والغلب والغلبة لغتان ﴿في بضع سنين﴾ قد تقدم تفسير البضع واشتقاقه في سورة يوسف ، والمراد هنا : ما بين الثلاثة الى العشرة ،وقيل : إلى التسع ، وقيل :الى السبع ،وقيل : ما دون العشرة ، وإنما أبهم البضع ولم يبينه ، وإن كان معلوماً لنبيه صلى الله عليه وسلم لإدخال الرعب والخوف عليهم في كل وقت ، كما يؤخذ ذلك من تفسير الفخر الرازي .

أخرج الترمذي وصححه ، والدارقطني في الأفراد ، والطبراني ، وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل ، والبيهقي في الشعب ،عن نيار بن مكرم الأسلمي قال : لما نزلت : ألم غلبت الروم الآية ،كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل الكتاب ، وفي ذلك يقول الله : ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله الخ وكانت قريش تحب ظهور فارس ، لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة : ألٓمٓ غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين فقال ناس من قريش لأبي بكر:ذلك بيننا وبينكم ، يزعم صاحبك ان الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ فقال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر : لم تجعل البضع ثلاث سنين الى تسع سنين ؟ فسم بيننا وبينك وسطا ننتهي اليه قال فسموا بينهم ست سنين فمضت الست قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم ، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين ، لأن الله قال في بضع سنين ،فأسلم عند ذلك ناس كثير .

وأخرج الترمذي وحسنه ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأبي بكر : « ألا احتطت يا أبا بكر؟ فإن البضع ما بين ثلاث الى تسع » . وأخرج

البخاري عنه في تاريخه نحوه ، وفي الباب روايات . وما ذكرنا يغني عما سواه .

﴿لله الأمر﴾ أي هو المتفرد بالقدرة وانفاذ الأحكام ﴿من قبل ومن بعد﴾ أي من وقت المغلوبية ووقت الغالبية . فهو لف ونشر مرتب على الآية وقال أبو السعود : أي في أول الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا ، وحين يغلبون والمعنى أن كُلًّا من كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخراً ، ليس إلا بأمر الله تعالى وقضائه ، وتلك الايام نداولها بين الناس انتهى . قرىء بضم الظرفين لكونهما مقطوعين عن الإضافة أي من قبل الغلب ، ومن بعده ، أو من قبل كل أمر وبعده . قال الزجاج:معنى الآية من متقدم ومن متأخر ، وحكى الكسائي من قبل ومن بعد ، بكسر الأول منوناً وضم الثاني بلا تنوين . وحكى الفراء بكسرهما من غير تنوين ، وغلطه النحاس ،وقال :إنما يجوز مكسوراً منوناً،تلت وقد قرىء بذلك ، ووجهه أنه لم ينو إضافتهما فأعربهما وقال شهاب الدين : وقد قرىء بكسرهما منونين .

﴿ويومئذ﴾ أي ويوم أن تغلب الروم على فارس ، ويحل ما وعد الله من غلبتهم ﴿يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ للروم على فارس لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب بخلاف فارس فإنهم لا كتاب لهم ، ولهذا سر المشركون بنصرهم على الروم ، وقيل : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس ،والأول أولى،قال :الزجاج هذه الآية من الآيات التي تدل على أن القرآن من عند الله ، لأنه أنبأ بما سيكون وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه .

﴿ينصر من يشاء﴾ أن ينصره ﴿وهو العزيز﴾ الغالب القاهر ﴿الرحيم﴾ الكثير الرحمة لعباده المؤمنين،وقيل المراد بالرحمة هنا الدنيوية وهي شاملة للمسلم والكافر ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ أي وعد الله وعداً لا يخلفه وهو ظهور الروم على فارس ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ بجهلهم وعدم تفكرهم إن الله لا يخلف وعده ؛ وهم الكفار .وقيل : كفار مكة على الخصوص نفى عنهم العلم النافع للآخرة ، وقد أثبت لهم العلم بأحوال الدنيا فقال :

يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

﴿يعلمون﴾ بدل من لا يعلمون ، وهذا أحسن من قول الحوفي : إنها مستأنفة من حيث المعنى،إلا أن الصناعة لا تساعد عليه ، لأن بدل فعل مثبت من فعل منفي لا يصح ، والضمير للأكثر وكذا يقال فيما بعده ، وفيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا .

﴿ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ أي ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا وملاذها ، وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية . وقيل : هو ما تلقيه الشياطين اليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع . وقيل : الظاهر الباطل،وقيل : يعني معايشهم كيف يكسبون ، ويتجرون ، ومتى يغرسون ، ومتى يزرعون ، ومتى يحصدون .

قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه لا يخطىء وهو لا يحسن يصلي . وقيل : يعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها ، وقيل : لا يعلمون الدنيا بحقيقتها إنما يعلمون ظاهرها ، وهو ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها ، وهو مضارها ومتاعبها . وأفادت الآية الكريمة أن للدنيا ظاهراً و باطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها ، وباطنها أنها مجاز الى الآخرة يتزود منها اليها بالطاعة ، وبالأعمال الصالحة ، وتنكير الظاهر،يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها .

﴿وهم عن الآخرة﴾ التي هي النعمة الدائمة واللذة الخالصة ﴿هم غافلون﴾ لا يلتفتون اليها ولا يعدون لها ما تحتاج اليه ؛ أو غافلون عن الإيمان بها ، والتصديق بمجيئها،وفيه أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها ، وإعادة

لفظ (هم) الثانية للتأكيد .

﴿أو لم يتفكروا ؟﴾ الهمزة للإنكار عليهم ، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره ﴿في أنفسهم﴾ ظرف للتفكر وليس معفولاً للتفكر ، والمعنى أن أسباب التفكر حاصلة لهم ، وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانيته تعالى وصدق أنبيائه ، وقيل إنها مفعول التفكر .

والمعنى أولم يتفكروا في خلق الله إياهم ولم يكونوا شيئاً . والأول أولى ، لأن المعنى أولم يتفكروا في قلوبهم الفارغة من الفكر التي هي أقرب اليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الإهمال ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت يجازى فيه على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها،جار على الحكمة في التدبير ، وأنه لا بد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت .

﴿ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما﴾ متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول . وقيل : معناه فيعلموا لأن في الكلام دليلاً عليه ، (وما) في (ماخلق) نافية أي لم يخلقها ﴿إلا بالحق﴾ الثابت الذي يحق ثبوته أو هي اسم في محل نصب على إسقاط الخافض ، أي : بما خلق الله ويضعف أن تكون استفهامية ، بمعنى النفي ، والباء للسببية ، أو هي ومجرورها في محل النصب على الحال ، أي متلبسة بالحق . قال الفراء: معناه إلا للحق ، أي للثواب والعقاب ،وقيل : بالحق بالعدل ،وقيل :بالحكمة ، وقيل : إنه هو الحق ، وللحق خلقها .

﴿وأجل مسمى﴾ للسموات والأرض وما بينهما تنتهي اليه ، وهو يوم القيامة ، وفي هذا تنبيه على الفناء وأن لكل مخلوق أجلاً لا يجاوزه ، وقيل: معناه أنه خلق ما خلق في وقت سماه لخلق ذلك الشيء ﴿وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿لكافرون﴾ واللام هي المؤكدة والمراد بهؤلاء الكفار على الاطلاق أو كفار مكة .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾

﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لعدم تفكرهم في الآثار وتأملهم لمواقع الاعتبار ، والمعنى أنهم قد ساروا وشاهدوا ﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من طوائف الكفار والأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم بالله ، وجحودهم للحق ، وتكذيبهم للرسل .

﴿كانوا أشد منهم قوة﴾ كعاد وثمود ، والجملة مبينة للكيفية التي كانوا عليها وأنهم أقدر من كفار مكة ومن تابعهم على الأمور الدنيوية ؛ وقال ابن عمر : كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل،أخرجه ابن مردويه ﴿وأثاروا الأرض﴾ أي حرثوها وقلبوها للزراعة ، وزاولوا أسباب ذلك ، ولم يكن أهل مكة أهل حرث .

﴿وعمروها﴾ عمارة ﴿أكثر مما عمروها﴾ لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً وأقوى أجساماً ، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش،فعمروا الأرض بالأبنية والزراعة والغرس ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي : المعجزات والحجج الظاهرات وقيل : بالأحكام الشرعية ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ بتعذيبهم على غير ذنب، وإهلاكهم بغير جرم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بالكفر والتكذيب للرسل .

﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا﴾ أي: عملوا السيئآت من الشرك والمعاصي ﴿السوآى﴾ هي فعلى من السوء تأنيث الأسوأ ، وهو الأقبح ، أي كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات . وقيل : هي اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة ، أو مصدر كاليسرى ، والذكرى ، وصفت به العقوبة مبالغة ، وقرىء عاقبة بالرفع على أنها اسم كان ، والخبر السوآى ، أي الفعلة او الخصلة او العقوبة السوآى ، ومن القائلين بأن السوآى جهنم ، الفراء والزجاج وابن قتيبة ، وأكثر المفسرين . وسميت سوآى لأنها تسوء صاحبها .

﴿أن كذبوا﴾ أي : لأن كذبوا ﴿بآيات الله﴾ التي أنزلها على رسوله ، أو بأن كذبوا،قال الزجاج : المعنى ثم كان عاقبة الذين أشركوا تكذيبهم بآيات الله واستهزاؤهم بها ﴿وكانوا بها يستهزئون﴾ عطف على كذبوا ، داخل معه في حكم العلية أو في حكم الاسمية لكان أو الخبرية لهما .

﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي الى موقف الحساب ؛ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء باساءته ، وأفرد الضمير في (يعيده) باعتبار لفظ الخلق وجمعه في (ترجعون) باعتبار معناه وقرىء يرجعون بالتحتية والفوقية على الخطاب والالتفات المؤذن بالمبالغة .

﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ قرىء يبلس على البناء للفاعل يقال ؛ أبلس الرجل إذا سكت ، وانقطعت حجته ؛ فهو قاصر لا يتعدى،قال الفراء والزجاج : المبلس الساكت المنقطع في حجته ، الذي أيس أن يهتدي اليها ، وقرىء مبنياً للمفعول ، وفيه بعد ، لأن أبلس لا يتعدى وقال الكلبي : أي يأس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب ، وقدمنا تفسير الإبلاس عند قوله : فإذا هم مبلسون ، وقال ابن عباس : يبلس يبتئس ، وعنه يكتئب وعنه الإبلاس الفضيحة .

وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

﴿ولم يكن لهم﴾ أي لا يكون للمشركين يوم تقوم الساعة ﴿من شركائهم﴾ الذين عبدوهم من دون الله ، واشركوهم ، وهم الأصنام ليشفعوا لهم ﴿شفعاء﴾ يجيرونهم من عذاب الله ﴿وكانوا﴾ في ذلك الوقت ﴿بشركائهم﴾ أي بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿كافرين﴾ أي جاحدين لكونهم آلهة لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون ولا يضرون،وقيل : إن معنى الآية كانوا كافرين في الدنيا بسبب عبادتهم ، والأول أولى .

﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ أي يتفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله ؛ الله يبدأ الخلق والمراد بالتفرق أن كل طائفة تنفرد ، فالمؤمنون يصيرون الى الجنة ، والكافرون الى النار ، وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر ، ومثله قوله فريق في الجنة وفريق في السعير ، وذلك بعد تمام الحساب ، فلا يجتمعون أبداً ، ثم بيّن الله سبحانه كيفية تفرقهم فقال :

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال النحاس : سمعت الزجاج يقول معنى (أما) دع ما كنا فيه وخذ في غيره ، وكذا قال سيبويه إن معناها مهما يكن من شيء فخذ في غير ما كنا فيه .

﴿فهم في روضة﴾ الروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة ؛ وقيل :البستان الذي هو في غاية النضارة قال المفسرون :والمراد بها هنا الجنة ، والتنكير لإبهام أمرها وتفخيم شأنها قال أبوعبيد : الروضة ما كان في سفل ، فإذا كان مرتفعاً فهو ترعة . وقال غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في مكان مرتفع .

﴿يحبرون﴾ الحبور والحبرة السرور ، أي فهم في رياض الجنة ينعمون وقال ابن عباس : يحبرون يكرمون . وقال النحاس : حكى الكسائي حبرته أي أكرمته ونعمته ، وقيل : يحلون،والأولى تفسير يحبرون بالسرور ، كما هو المعنى العربي ، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام ، والنعيم ، وفي السرور زيادة على ذلك ،وقيل : التحبير التحسين فمعنى يحبرون يحسن اليهم ، وقيل: هو السماع الذي يسمعون في الجنة ،وقيل :غير ذلك والوجه ما ذكرناه .

وأخرج الديلمي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة قال الله : أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ميزوهم ، فيميزون في كثب المسك والعنبر ، ثم يقول للملائكة اسمعوهم من تسبيحي ، وتحميدي ، وتهليلي ، قال فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط » .

وعن مجاهد قال :ينادي مناد يوم القيامة فذكر نحوه . وعن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح :في الجنة شجر على ساق ، قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام ، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم ، فيحدثون في ظلها ، فيشتهي بعضهم ، ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا ، وعن أبي هريرة مرفوعاً نحوه ، أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر .

﴿وأما الذين كفروا﴾ بالله ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ أي القرآن ﴿ولقاء الآخرة﴾ أي البعث ، والجنة والنار ﴿فأولئك﴾ المتصفون بهذه الصفات ﴿في العذاب

محضرون﴾ أي مقيمون فيه لا يغيبون عنه ، ولا يخفف عنهم،كقوله ﴿وماهم بخارجين منها﴾ وقيل : مجموعون . وقيل نازلون . وقيل: معذبون ،والمعاني متقاربة ، والمراد دوام عذابهم ، ثم لمّا بيّن عاقبة طائفة المؤمنين ، وطائفة الكافرين ، أرشد المؤمنين الى ما فيه الأجر الوافر ، والخير العام ؛ فقال :

﴿فسبحانَ الله﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فإذا عملتم ذلك فسبحوا الله ، أي نزهوه عما لا يليق به، وصفوه بصفات الكمال ، وهذا أولى ،وقيل :صلوا كما سيأتي ﴿حين تمسون ، وحين تصبحون﴾ أي في وقت الصباح والمساء ، وفي العشي ، وفي وقت الظهيرة ، وعلى أن المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس ، فقوله«حين تمسون»صلاة المغرب والعشاء ، وقوله حين تصبحون صلاة الفجر .

﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ معترضة مسوقة للإرشاد الى الحمد والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح ، كما في قوله سبحانه : فسبح بحمد ربك وقوله : ونحن نسبح بحمدك ، وقيل :معنى وله الحمد الاختصاص له بالصلاة التي يقرأ فيها الحمد والأول أولى .

﴿وعشياً﴾ عطف على حين ، وفيه صلاة العصر ، والعشي من صلاة المغرب الى العتمة،قاله الجوهري ، وقال قوم :هو من زوال الشمس الى طلوع الفجر ، أي الحمد له يكون في السموات والأرض ﴿وحين تظهرون﴾ أي تصلون صلاة الظهر ، كذا قال الضحاك ، وسعيد بن جبير، وغيرهما قال الواحدي : قال المفسرون : إن معنى فسبحان الله فصلو الله ،قال النحاس: أهل التفسير على أن هذه الآية في الصلوات الخمس،قال :وسمعت محمد بن يزيد يقول:حقيقته عندي فسبحوا الله في الصلوات ، لأن التسبيح يكون في الصلاة وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة ،وعنه قال : جمعت هذه الآية

مواقيت الصلاة ، فسبحان الله حين تمسون المغرب والعشاء ، وحين تصبحون الفجر وعشيا العصر ، وحين تظهرون الظهر .

وقد وردت أحاديث صحاح في فضل التسبيح ، وثواب المسبح ، وأخرج أحمد ، وابن السني والطبراني ، وغيرهم ، عن معاذ بن أنس ، عن رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله الذي وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان الله حين تمسون ، وحين تصبحون ، وله الحمد الآية » وفي إسناده ابن لهيعة .

وأخرج أبو داود ، والطبراني ، وابن السني وغيرهم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : «من قال حين يصبح :سبحان الله الى قوله وكذلك تخرجون ، أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته » وإسناده ضعيف .

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كالإنسان من النطفة ، والطير من البيضة ، والمؤمن من الكافر ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ كالنطفة والبيضة من الإنسان والطير ، والكافر من المؤمن ، وقد سبق بيان هذا في سورة آل عمران قيل : ووجه تعلق هذه الآية بالتي قبلها أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود ، وهو اليقظة ، وعند العشاء يخرج من اليقظة ، الى النوم .

﴿ويحيي الأرض﴾ بالنبات ﴿بعد موتها﴾ باليباس ، وهو شبيه بإخراج الحي من الميت ﴿وكذلك﴾ الإخراج ﴿تخرجون﴾ من قبوركم قرىء على البناء للمفعول والفاعل فأسند الخروج اليهم كقوله : يخرجون من الأجداث ، والمعنى أن الإبداء والإعادة يتساويان في قدرة من هو قادر على إخراج الميت من الحي وعكسه .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ومن آياته﴾ الباهرة الدالة على البعث ، وذكر لفظ من آياته ست مرات ، تنتهي عند قوله : إذا أنتم تخرجون . ذكر فيها بدء خلق الإنسان آية آية ، الى حين بعثه من القبور ، وختم هذه الآية بقيام السموات والأرض لكونه من العوارض اللازمة ، لأن كُلًّا من السماء والأرض لا يخرج عن مكانه فيتعجب من وقوف الأرض ، وعدم نزولها ، ومن علو السماء وثباتها بغير عمد ، ثم أتبع ذلك بالنشأة الآخرة ، وهي الخروج من الأرض ، وذكر من الأنفس أمرين :خلقكم وخلق لكم من أنفسكم،وذكر من الآفاق السماء والأرض وذكر من لوازم الإنسان اختلاف الألسنة واختلاف اللون،وذكر من عوارضه المنام والابتغاء،ومن عوارض الآفاق البرق والمطر ومن لوازمهما قيام السماء وقيام الأرض كذا في النهر،فجملة ما يتعلق بالنوع الإنساني ستة أشياء : اثنان أصول ، واثنان لوازم ، واثنان عوارض ، وستة متعلقة بالآفاق : اثنان أصول ، واثنان لوازم واثنان عوارض .

﴿أن خلقكم﴾ أي خلق أباكم آدم ﴿من تراب﴾ وخلقكم في ضمن خلقه ، لأن الفرع مستمد من الأصل ، ومأخوذ منه ، وقد مضى تفسير هذا في الأنعام .

﴿ثم إذا انتم بشر﴾ الترتيب والمهلة هنا ظاهران ، فإنهم إنما يصيرون بشراً بعد أطوار كثيرة و (اذا) هي الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة الى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهي أطوار الإنسان كما حكاه الله في مواضع من كونه نطفة ، ثم علقة ، ثم

مضغة ، ثم عظماً مكسواً لحماً فاجأ البشرية والانتشار ﴿تنتشرون﴾ أي تنصرفون فيما هو قوام معايشكم ، وتنبسطون في الأرض .

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم﴾ أي من جنسكم في البشرية والإنسانية ﴿أزواجاً﴾ وقيل : المراد حواء فإنه خلقها من ضلع آدم ، والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال ونطف النساء ﴿لتسكنوا﴾ أي : تألفوا وتميلوا ﴿اليها﴾ أي الى الأزواج فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما الى الآخر ولا يميل قلبه اليه .

﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أي : وداداً وترحماً بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم من قبل ذلك معرفة فضلا عن مودة ورحمة ، وقال مجاهد: المودة الجماع، والرحمة الولد، وبه قال الحسن وابن عباس، وقال السدي: المودة المحبة ، والرحمة : الشفقة وقيل : المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها من أن يصيبها بسوء وقيل: المودة للشابة ، والرحمة: للعجوز وقيل: المودة والرحمة من الله والفرك من الشيطان ، أي بغض المرأة زوجها وبغض الزوج المرأة .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور سابقاً ﴿لآيات﴾ عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة البرهان على قدرته سبحانه على البعث والنشور ﴿لقوم يتفكرون﴾ أن قوام الدنيا بوجود التناسل ، لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادة له ، يتحصل عنه ، أو لأن الفكر يؤدي الى الوقوف على المعاني المطلوبة من التأنس والتجانس بين الأشياء كالزوجين وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلا كالأنعام .

﴿ومن آياته﴾ الدالة على أمر البعث ، وما يتلوه من الجزاء ﴿خلق السموات والأرض﴾ فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة بلا مادة مساعدة لها وجعلها باقية ما دامت هذه الدار ، وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ، ما هو عبرة للمعتبرين ، قادر على أن يخلقكم بعد موتكم وينشركم

من قبوركم . وقدم السماء على الأرض لأن السماء كالذكر ، فنزول المطر من السماء على الأرض كنزول المني من الذكر في المرأة ، لأن الأرض تنبت وتخضر بالمطر .

﴿واختلاف ألسنتكم﴾ أي : لغاتكم من عرب ، وعجم ، وترك ، وروم ، وغير ذلك، بأن علم كل صنف لغته ، أو ألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس النطق وأشكاله، فإنك لا تكاد تسمع متكلمين متساويين في الكيفية من كل وجه .

﴿وألوانكم﴾ من البياض ، والسواد، والحمرة ، والصفرة ، والشقرة ، والزرقة ، والخضرة ، مع كونكم أولاد رجل واحد ، وأم واحدة ، يجمعكم نوع واحد وهو الإنسانية ، وفصل واحد وهو الناطقية ، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم ، لا يلتبس هذا بهذا ، بل في كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد ، حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما ، والأمور الملاقية لهما في التخليق ، يختلفان في شيء من ذلك لا محالة ، وإن كانا في غاية التشابه ، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يفهمه إلا المتفكرون ولو اتفقت الأصوات ، والصور ، وتشاكلت، وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة ، ولم يعرف العدو من الصديق، ولا القريب من البعيد ؛ فسبحان من خلق الخلق على ما أراد ، وكيف أراد، وإنما نظم هذا في سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض ، مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقة بالانتظام، في سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم ؛ للإيذان باستقلاله ، والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم .

﴿إن في ذلك لآيات﴾ لدلالات على قدرته تعالى ﴿للعالمين﴾ لعموم العلم فيهم ، قرىء بكسر اللام وبفتحها وهما سبعيتان . وقال الفراء للكسرة وجه جيد لأنه قد قال : لآيات لقوم يعقلون ، لآيات لأولي الألباب ، وما يعقلها إلا العالمون .

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾ قيل: في الكلام تقديم وتأخير والتقدير: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار، وقيل: المعنى الصحيح من دون تقديم وتأخير، أي ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة، كوقت القيلولة، والنوم بالنهار مما كانت العرب تعده نعمة من الله، ولا سيما في البلاد الحارة، وابتغاؤكم من فضله فيهما. فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك، وإن كان ابتغاء الفضل في النهار أكثر، والأول هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى، والآخر هو المناسب للنظم القرآني ههنا، ووجه ذكر النوم والابتغاء ههنا وجعلهما من جملة الأدلة على البعث أن النوم شبيه بالموت، والتصرف في الحاجات والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ الآيات والمواعظ سماع متفكر متدبر بآذان واعية فيستدلون بذلك على البعث.

﴿ومن آياته يريكم البرق﴾ المعنى أن يريكم، ومنه المثل المشهور «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» وقيل: ويريكم البرق من آياته، وقيل: من آياته آية يريكم بها وفيها البرق، وقيل: التقدير: ومن آياته سحاب يريكم البرق ﴿خوفا وطمعاً﴾ من آياته قال قتادة: خوفاً للمسافر، وطمعاً

للمقيم . وقال الضحاك : خوفاً من الصواعق ، وطمعاً في الغيث . وقال يحيى ابن سلام : خوفاً أن يكون البرق برقاً خلباً لا يمطر ، وطمعاً أن يكون ممطراً ﴿وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها﴾ باليباس بأن تنبت .

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة ، كيف ؟ والعقل ملاك الأمر . وهو المؤدي الى العلم فيما ذكر وغيره ، وإنما قال هنا : يعقلون ، وفيما تقدم : يتفكرون ، لأنه لما كان حدوث الولد من الوالد أمراً عادياً مطرداً قليل الاختلاف ؛ كان يتطرق الى الأوهام القاصرة ان ذلك بالطبيعة لأن المطرد أقرب الى الطبيعة من المختلف ، والبرق والمطر ليس أمراً مطرداً غير مختلف بل يختلف إذ يقع ببلدة دون بلدة ، وفي وقت دون وقت ، وتارة يكون قوياً وتارة يكون ضعيفاً فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار . فقال : هو آية لمن له عقل وإن لم يتفكر تفكراً تاماً،قاله الكرخي .

﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض﴾ هذا شروع في بيان بقائهما وثباتهما بعد بيان إيجادهما في قوله : ومن آياته خلق السموات والأرض ، وأظهر كلمة (أن) هنا التي هي علم الاستقبال لأن القيام هنا يعني البقاء لا الإيجاد ، وهو مستقبل باعتبار أواخره وما بعد نزول هذه الآيات .

﴿بأمره﴾ أي : قيامهما واستمساكهما بإرادته سبحانه ، وقدرته بلا عمد يعمدهما ، ولا مستقر يستقران عليه . قال الفراء : يقول أن تدوما قائمتين بأمره ، وإنما ذكر قوله: إن في ذلك لآيات،في أربع مواضع ، ولم يذكره في الأول ، وهوقوله :ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ولا في الأخيرة وهي هذا لأن في الأول خلق الأنفس وخلق الأزواج من باب واحد ، وهو الإيجاد فاكتفى فيهما بذكره مرة واحدة . وأما قيام السموات والأرض الذي هو الأخير فلأن في

الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ، ولقوم يسمعون ؛ ولقوم يعقلون ، لظهورها ، فلما كان في أول الأمر ظاهراً ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر ؛ فلم يميز أحداً عن أحد وذكر ما هو مدلوله ؛ وهو قدرته على الإعادة قاله الرازي .

﴿ثم﴾ أي بعد موتكم ومصيركم في القبور ﴿إذا دعاكم دعوة﴾ واحدة ﴿من الأرض﴾ التي أنتم فيها كما يقال:دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي وقيل : أي خرجتم من الأرض ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿تخرجون﴾ لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها وهذه الدعوة هي نفخة إسرافيل الآخرة في الصور على ما تقدم بيانه ﴿إذا أنتم تخرجون﴾ أي فاجأتم الخروج منها بسرعة من غير تلبث ولا توقف كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع واذا الفجائية تقوم مقام الفاء في جواب الشرط،وقال هنا : إذا أنتم،وقال في خلق الإنسان:ثم اذا أنتم بشر تنتشرون،لأن هناك يكون خلق وتقدير وتدريج حتى يصير التراب قابلاً للحياة فتنفخ فيه الروح فاذا هو بشر وأما في الإعادة فلا يكون تدريج بل يكون بدء وخروج فلم يقل هنا (ثم) ذكره الكرخي،وقد أجمع القراء على فتح التاء في ﴿تخرجون﴾ هنا وإنما قرىء بضمها في الأعراف ﴿وله من في السموات والأرض﴾ من جميع المخلوقات ملكاً وتصرفاً وخلقاً ليس لغيره في ذلك شيء .

﴿كل له قانتون﴾ مطيعون طاعة انقياد قاله النحاس،وقيل : مقرون بالعبودية إما بالمقال وإما بالدلالة قاله عكرمة وأبو مالك والسدي وقيل :مصلون وقيل : قائمون يوم القيامة،كقوله:يوم يقوم الناس لرب العالمين أي للحساب قاله الربيع بن أنس،وقيل:بالشهادة أنهم عباده قال الحسن وقيل مطيعون لأفعاله لا يمتنع عليه شيء يريد فعله بهم،من حياة وموت ومرض وصحة فهي طاعة الإرادة،لا طاعة العبادة،وقيل :مخلصون قاله سعيد بن جبير وقال ابن عباس : مطيعون في الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة .

وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)

﴿وهو الذي يبدأ الخلق﴾ للناس ﴿ثم يعيده﴾ بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة ﴿وهو﴾ أي البعث أو الإعادة نظراً الى المعنى دون اللفظ وهو رجعة أو ردة أو تذكيره باعتبار الخبر ﴿أهون عليه﴾ أي هين لا يستصعبه أو أهون عليه بالنسبة الى قدرتكم وعلى ما يقوله بعضكم لبعض والا فلا شيء في قدرته بعضه أهون من بعض بل كل الأشياء مستوية يوجدها بقوله كن فيكون قال أبو عبيد : من جعل أهون عبارة عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ وبقوله ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيراً كما في قول الفرزدق.

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة. وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي بواحد ، وكقولهم:الله أكبر ، أي كبير ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، وقرأ ابن مسعود : وهو عليه هين . وقال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : إن الإعادة أهون على الله من البداءة أي أيسر وإن كان جميعه هيناً وقيل:المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداءة،وقيل:الضمير في عليه للخلق أي : والعود أهون على الخلق ، أي أسرع واقصر عليه وأيسر وأقل انتقالا من طور الى طور لأنه يصاح بهم صيحة واحدة ، فيقومون ويقال لهم :

كونوا فيكونون ، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، الى آخر النشأة . وقال ابن عباس : الإعادة أهون على المخلوق لأنه يقول له يوم القيامة كن فيكون ، وابتداء الخلقة من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة .

﴿وله المثل الأعلى﴾ أي : الوصف الأعلى العجيب الشأن من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال ، والجلال ، والجمال ، التي ليس لغيره ما يدانيها فضلاً عما يساويها ، وقال الخليل : المثل الصفة أي : وله الوصف الأعلى قول : لا إله إلا الله أي الوحدانية ، وبه قال قتادة وقال الزجاج : وله المثل الأعلى .

﴿في السموات والأرض﴾ مرتبط بما قبله ، وهو قوله : وهو أهون عليه ، قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل ، وقيل:مرتبط بما بعده من قوله «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم» وقيل :المثل الأعلى هو أنه ليس كمثله شيء ، قاله ابن عباس . وقيل : هو أن ما أراده كان بقول : كن،والمعنى أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى ووصف به في السموات والأرض،أي في هاتين الجهتين ؛وقيل : غير ذلك ﴿وهو العزيز﴾ في ملكه القادر الذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ في أفعاله وأقواله .

﴿ضرب لكم﴾ أيها المشركون ﴿مثلاً﴾ قد تقدم تحقيق معنى المثل ﴿من أنفسكم﴾ من لابتداء الغاية أي مثلاً منتزعاً كائناً ومأخوذاً من أنفسكم ، فإنها أقرب شيء منكم وأبين من غيرها عندكم فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحاً ثم بين المثل المذكور فقال : ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم؟﴾ من للتبعيض أي من مماليككم وفي قوله ﴿من شركاء﴾ زائدة للتأكيد ، والمعنى هل لكم شركاء ؟

﴿فيما رزقناكم﴾ من الأموال وغيرها كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم ، وهم العبيد والإماء ؟ والاستفهام للإنكار . قال ابن عباس في

الآية : كان يلبي أهل الشرك :لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، فأنزل الله هذه الآية .

﴿فأنتم﴾ وهم ﴿فيه سواء﴾ أي مستوون في التصرف فيه على عادة الشركاء ، وهذا جواب للاستفهام الذي بمعنى النفي ، ومحقق لنفي الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم في أموالهم ، والمعنى هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الأموال ؟ ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ؟

﴿تخافونهم﴾ خيفة ﴿كخيفتكم أنفسكم﴾ أي كما تخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية وملك الأموال ، وجواز التصرف . والمراد نفي الأشياء الثلاثة ، الشركة بينهم وبين المملوكين ، والاستواء معهم وخوفهم إياهم . وليس المراد ثبوت الشركة ونفي الاستواء والخوف كما قيل في قولهم : ما تأتينا فتحدثنا . والمراد إقامة الحجة على المشركين فإنهم لا بد أن يقولوا :لا نرضى بذلك ، فيقال لهم : فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم ؟ وهم أمثالكم في البشرية ، وتجعلون عبيد الله شركاء له ؟ فإذا بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه ، والخلق كلهم عبيد الله تعالى ، لم يبق إلا أنه الرب وحده لا شريك له . قرىء أنفسكم بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله ، وبالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله .

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ تفصيلاً واضحاً وبياناً جلياً لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها ﴿لقوم يعقلون﴾ لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية ،والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها والتفكر فيها ، ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وإرشادهم الى الحق بما ضرب لهم من المثل فقال :

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ بالإشراك ، وفيه الإضراب مع الالتفات وأقيم الظاهر مقام الضمير للتسجيل عليهم بوصف الظلم ﴿أهـواءهم بغـير علم﴾ أي : لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائغة ، وآراءهم الفاسدة الزائفة ، والمعنى جاهلين بأنهم على ضلالة .

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي : لا أحد يقدر على هدايته ، لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته ﴿وما لهم﴾ أي : ما لهؤلاء الذين أضلهم الله ، والجمع باعتبار معنى من ﴿من ناصرين﴾ ينصرونهم ، ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه ؛ ثم أمر رسول الله ﷺ بتوحيده وعبادته كما أمره فقال :

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾ شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهـه اليه ، وإقباله عليه ؛ أي مائلاً اليه مستقيماً عليه غير ملتفت الى غيره من الأديان الباطلة فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره ، وقوم له وجهه مقبلاً عليه .

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ الفطرة في الأصل الخلقة ، والمراد بها هنا الملة وهي الإسلام والتوحيد . قال الواحدي : هذا قول المفسرين في الفطرة وقيل : المراد بها قابلية الدين والتهيوء له ، وترسم الفطرت بالتاء المجرورة .وليس في القرآن غيرها ، والمراد بالناس هنا الذين فطرهم الله على الاسلام ، لأن المشرك لم يفطر على الإسلام ، وهذا الخطاب وإن كان خاصاً برسول الله ﷺ فأمته داخلة معه فيه . قال القرطبي : باتفاق من أهل التأويل ، والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم ، وأنهم جميعا مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم ، فيبقون بسببها على الكفر ، كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » وفي رواية : على هذه الملة ، ولكن أبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه : كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة :واقرأوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وفي رواية:حتى تكونوا أنتم تجدعونها .

أخرج أحمد والنسائي ، والحاكم ، وصححه ، وغيرهم ، عن أسود بن سريع :أن رسول الله ﷺ بعث سرية الى خيبر فقاتلوا المشركين فانتهى القتل الى الذرية . فلما جاءوا قال النبي ﷺ : « ما حملكم على قتل الذرية ؟قالوا : يارسول الله إنما كانوا أولاد المشركين ، قال : وهل خياركم إلا أولاد المشركين ؟ والذي نفسي بيده ، ما من نسمة تولد إلا على الفطرة ، حتى يُعْرِبَ عنها لسانها » .

وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه ،فإذا عبر عنه لسانه ، إما شاكراً وإمّا كفوراً»

وروى الإمام أحمد في المسند عن عياش بن حماد أن رسول الله ﷺ

خطب يوماً فقال في خطبته حاكياً عن الله سبحانه وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللت لهم الحديث . وهذا معاضد لحديث أبي هريرة المتقدم ، فكل فرد من أفراد الناس مفطور ، أي مخلوق على ملة الاسلام ، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين ، وإنما يعتبر الإيمان والاسلام الشرعيان . وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم وقول جماعة من المفسرين ، وهو الحق .

والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف ، قال آخرون : هي البداءة التي ابتدأهم عليها فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة ، والفاطر في كلام العرب :هو المبتدىء ، وهذا مصير من القائلين به الى معنى الفطرة لغة . وإهمال معناها شرعاً،والمعنى الشرعي مقدم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع ، ولا ينافي ذلك ورود الفطرة في الكتاب او السنة في بعض المواضع مراداً بها اللغوي .كقوله تعالى : (الحمد لله فاطر السموات والأرض) أي خالقهما ومبتديهما ،وكقوله :﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ إذ لا نزاع في أن المعنى اللغوي هو هذا ، ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة ، وهو ما ذكره الأولون كما بيناه . وانتصاب فطرة على أنها مصدر مؤكد للجملة التي قبلها . وقال الزجاج : منصوب بمعنى اتبع فطرة الله ، قال : لأن معنى فأقم وجهك للدين : اتبع الدين واتبع فطرة الله : وقال ابن جرير : هي مصدر من معنى فأقم وجهك،لأن معنى ذلك فطرة الله الناس على الدين . وقيل : هي منصوبة على الإغراء ، أي الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله ، ورد هذا الوجه أبو حيان ، وقال : إن كلمة الإغراء لا تضمر ، إذ هي عوض عن الفعل ، فلو حذفها لزم حذف العوض والمعوض عنه ، وهو إجحاف ، وأجيب بأن هذا رأي البصريين ، وأما الكسائي وأتباعه فيجيزون ذلك .

﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي لما جبلكم وطبعكم عليه من قبول الحق،وهذا تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة.أي هذه الفطرة التي فطر الله الناس

عليها . لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه ، أو تعليل لوجوب الامتثال له ، أي لا صحة ولا استقامة لتبديله بالإخلال بموجبه ، وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى ، وقبول وسوسة الشياطين .

وقيل :لا يقدر أحد أن يغيره،فلا بد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً ، ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق ، والتمكن من إدراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الأول مقدور ، بل واقع قطعاً ، فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة في كل أحد ، فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الإخلال به بما ذكر من اتباع الهوى ، وخطوات الشيطان ، ذكره ابو السعود .

وقيل : هو نفي ؛ معناه : النهي . أي : لا تبدلوا خلق الله ، قال مجاهد وابراهيم النخعي : معناه لا تبديل لدين الله ، قال قتادة ، وابن جبير ، والضحاك ، وابن زيد :هذا في المعتقدات ، وقال عكرمة : إن المعنى لا تغيير لخلق الله في البهائم ، بأن تخصى فحولها . وقيل :لا تبدلوا التوحيد بالشرك ، والسنة بالبدعة ، وقيل : لا تبديل لما جبل عليه الانسان من السعادة والشقاوة ، فلا يصير السعيد شقياً ، ولا الشقي سعيداً .

﴿ذلك﴾ الدين المأمور بإقامة الوجه له هو ﴿الدين القيم﴾ أو لزوم الفطرة هو الدين القيم ، أي : المستقيم .وقال ابن عباس : الدين : القضاء ﴿ولكن أكثر الناس﴾أي : كفار مكة ﴿لا يعلمون﴾ ذلك حتى يفعلوه ويعملوا به .

﴿منيبين﴾ أي : راجعين ﴿اليه﴾ بالتوبة والإخلاص ، ومطيعين له في أوامره ونواهيه . قال الجوهري : أناب اليّ أي : أقبل وتاب . قال الفراء:فأقم وجهك . ومن معك ، منيبين ، وكذا قال الزجاج . وقال تقديره : فأقم وجهك وأمتك ، فالحال من الجميع ، وقيل : كونوا منيبين اليه ، لدلالة ولا تكونوا من المشركين ، على ذلك ، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم

بالإنابة فقال ﴿واتقوه﴾ أي : خافوه باجتناب معاصيه .

﴿وأقيموا الصلاة﴾ التي أمرتم بها ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ بالله أي ممن يشرك به غيره في العبادة وقوله ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ باختلافهم فيما يعبدونه ، وهو بدل مما قبله بإعادة الجار .

﴿وكانوا شيعاً﴾ الشيع : الفرق ،أي لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقاً في الدين ، يشايع بعضهم بعضاً ، من أهل البدع والأهواء،وقيل المراد بهم اليهود والنصارى ، وقرىء فرقوا دينهم ، أي الذي يجب اتباعه وهو التوحيد ، وهي سبعية ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنعام .

﴿كل حزب﴾ أي كل فريق منهم ﴿بما لديهم﴾ من الدين المبني على غير الصواب ﴿فرحون﴾ أي مسرورون مبتهجون يظنون أنهم على الحق وليس بأيديهم منه شيء ، والجملة اعتراض مقرر لما قبله من تفريقهم دينهم ، وكونهم شيعاً .

﴿واذا مس الناس﴾ أي : كفار مكة وغيرهم ﴿ضر﴾ أي قحط وشدة ، أو هزال ، أو مرض ﴿دعوا ربهم﴾ أن يرفع ذلك عنهم واستعانوا به ﴿منيبين﴾ أي راجعين ملتجئين ﴿إليه﴾ لا يعولون على غيره ، وقيل : مقبلين عليه بكل قلوبهم .

﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمة﴾ بإجابة دعائهم ، ورفع تلك الشدائد عنهم ﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾إذا :هي الفجائية وقعت جواباً للشرط ؛ كأنها كالفاء في إفادة التعقيب ،أي : فاجأ فريق منهم بالإشراك ، وهم الذين دعوه فخلصهم مما كانوا فيه ، وهذا الكلام مسوق للتعجيب من أحوالهم ، وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله سبحانه عند نزول الشدائد والرجوع الى الشرك عند رفع ذلك عنهم ، وفيه مراعاة معنى لفظ الفريق وكذا في قوله .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي بنعمة الله عليهم ، واللام لام كي ، وقيل : لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد ، وقيل : هي لام العاقبة التي تقتضي المهلة ، سميت لام المآل ، والشرك والكفران متقارنان ، لا مهلة بينهما ، ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع فقال : ﴿فتمتعوا﴾ أريد به التهديد أيضاً ، وفيه التفات عن الغيبة الى الخطاب لأجل المبالغة في زجرهم ، وقرىء فتمتعوا على الخطاب ، وبالتحتية على البناء للمفعول ؛ وفي مصحف ابن مسعود : فليتمتعوا ﴿فسوف تعلمون﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم .

﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ أم ، هي المنقطعة ، والاستفهام للإنكار ، على مذهب الكوفيين ، ومذهب البصريين أنها بمعنى بل والهمزة . والسلطان : الحجة الظاهرة ، وفيه التفات عن الخطاب الى الغيبة للإيذان بالإعراض عنهم وبعدهم عن ساحة الخطاب ، قال الفراء : إن العرب تؤنث السلطان ؛ يقولون : قضت به عليك السلطان ، فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح ، وجاء به القرآن ، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة ، وقيل : المراد بالسلطان هنا : الملك .

﴿فهو يتكلم﴾ أي يدل ، كما في قوله : ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ وهو في حيز النفي المستفاد من أم ﴿بما كانوا يشركون﴾ أي ينطق بإشراكهم

بالله سبحانه أو المعنى بالأمر الذي كانوا بسببه يشركون .

﴿وإذا أذقنا الناس﴾ أي كفار مكة وغيرهم ﴿رحمة﴾ أي خصباً ومطراً ؛ ونعمة وسعة وصحة وعافية ﴿فرحوا بها﴾ فرح بطر وأشر،لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها إليهم ، كما دل عليه قوله : ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ ثم قال سبحانه :

﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ أي بلاء من جدب ، أو ضيق ، أو مرض أو شدة على أي صفة ﴿بما قدمت أيديهم﴾ أي بسبب شؤم ذنوبهم ﴿إذا هم يقنطون﴾ القنوط الإياس من الرحمة ، كذا قال الجمهور ؛ وقال الحسن : القنوط ترك فرائض الله سبحانه ؛ وقرىء يقنطون بفتح النون وبكسرها ؛ وهما سبعيتان ، وبابه ضرب وتعب ؛ والمعنى إذا هم ييأسون ، وهذا خلاف وصف المؤمنين ؛ فإن من شأنهم أن يشكروا عند النعمة ؛ ويرجوا ربهم عند الشدة أو يقال : الدعاء اللساني بناء على مجرد العادة لا ينافي القنوط القلبي، وقد يشاهد مثل ذلك في كثير من الناس ، فلا يخالف هذا قوله: ﴿دعوا ربهم منيبين اليه﴾ أو المراد يفعلون فعل القانطين ، كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء ، قاله الكرخي .

﴿أولم يروا﴾ أي فما بالهم لم يشكروا في السراء والضراء ، كالمؤمنين ولم يعلموا ﴿أن الله يبسط الرزق﴾ أي يوسعه ﴿لمن يشاء﴾ من عباده امتحاناً هل يشكر أم يطغى فيكفر ؟ ﴿ويقدر﴾ أي يضيق على من يشاء ابتلاء هل يصبر أم يضيق ذرعاً فيكفر ﴿إن في ذلك﴾ البسط والقبض ﴿لآيات لقوم يؤمنون﴾ فيستدلون بها على الحق لدلالتها على كمال القدرة وبديع الصنع وغريب الخلق والحكمة. ولما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار الى ما ينبغي من مواساة القرابة وأهل الحاجات. ممن بسط الله له في رزقه فقال :

﴿فآت ذا القربى حقه﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته أسوته، أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه وقدم الإحسان إلى القرابة لأن خير الصدقة ما كان على قريب فهو صدقة مضاعفة وصلة رحم مرغب فيها،

والمراد الإحسان اليهم بالصدقة والصلة والبر سواء كانوا في مخمصة أو لم يكونوا وقيل :فيه دليل على وجوب النفقة للمحارم (وبه قالت الحنفية ، وعدم ذكر بقية الأصناف المستحقين للزكاة يدل على أن ذلك في صدقة التطوع)وقاس الشافعي سائر الأقارب ما عدا الفروع والأصول على ابن العم،لأنه لا ولادة بينهم،ولا يصح حمل الصدقة على الواجبة وهي الزكاة لأن السورة مكية ، والزكاة ما فرضت إلا في السنة الثانية من الهجرة بالمدينة وللقريب الفقير في مال قريبه الغني حق واجب،وبه قال مجاهد وقتادة،قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج وقيل : المراد بالقربى : النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال القرطبي: والأول أصح،فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله ﴿فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ وقال الحسن : إن الأمر في إيتاء ذي القربى للندب .

﴿والمسكين وابن السبيل﴾ أي آتهما حقهما الذي يستحقانه،ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف،ولكون ذلك واجباً لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول،سواء كان زكوياً أو لم يكن،وسواء كان قبل الحول أو بعده،لأن المقصود هنا الشفقة العامة وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان اليهم،وإن لم يكن للإنسان مال زائد،والفقير داخل في المسكين،لأن من أوصى للمساكين بشيء يصرف الى الفقراء أيضاً واذا نظرت الى الباقين من الأصناف،رأيتهم لا يجب صرف المال اليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم،وأما المسكين فحاجته ليست مختصة بموضع فقدم على من حاجته مختصة بموضع دون موضع قال مقاتل :حق المسكين أن يتصدق عليه،وحق ابن السبيل الضيافة،وقد اختلف في هذه الآية هل هي محكمة او منسوخة فقيل : هي منسوخة بآية المواريث،وقيل محكمة .

﴿ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾ أي ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرب الى الله سبحانه،ويقصد بمعروفه إياه خالصاً ﴿واولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالاً لأمره .

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وما آتيتم﴾ بالمد بمعنى : أعطيتم ،وقرىء بالقصر بمعنى : ما فعلتم ،وهما سبعيتان،وقيل بالقصر بمعنى :ما جئتم به من إعطاء ربا،وهو يؤول من حيث المعنى الى القراءة المشهورة،لأنه يقال : آتى معروفاً،وأتى قبيحاً إذا فعلهما .

﴿من ربا﴾ وأجمعوا على الأولى في قوله :وما آتيتم من زكاة ، أصل الربا الزيادة والمعني :ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض بأن تعطوا شيئاً هبة أو هدية .

﴿ليربوا في أموال الناس﴾ أي ليزيد ويزكو في أموالهم ﴿فلا يربو عند الله﴾ قرىء بالتحتية ،على أن الفعل مسند الى ضمير الربا،وقرىء بالفوقية مضمومة خطاباً للجماعة،بمعنى لتكونوا ذوي زيادات،وقرىء لتربوها،ومعنى الآية : أنه لايزكو عند الله ولا يثيب عليه ،لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه خالصاً قال السدي: الربا في هذا الموضع: الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة،فإن ذلك لا يربو عند الله ،أي لا يؤجر عليه صاحبه،ولا إثم عليه وهكذا قال قتادة والضحاك قال الواحدي : وهذا قول جماعة المفسرين قال الزجاج : يعني دفع الرجل الشيء ليعوض أكثر منه،وذلك ليس بحرام ولكنه لا ثواب فيه لأن الذي يهبه يستدعي به ما هو أكثر منه .

وقال الشعبي :معنى الآية أن ما خدم به الإنسان أحداً لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجري به الخدمة،لا يربو عند الله وقيل : هذا كان حراماً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الخصوص،لقوله سبحانه﴿ولا تمنن تستكثر﴾ ومعناها: أن تعطي فتأخذ أكثر منه عوضاً عنه وحرم عليه تشريفاً له ، وقيل: إن هذه الآية نزلت في هبة الثواب ، وبه قال ابن عباس وابن جبير ، وطاوس ، ومجاهد ، قال ابن عطية وما يجري مجراه مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره ، وهو وإن كان لا إثم فيه ، فلا أجر ولا زيادة عند الله .

قال عكرمة : الربا ربوان ، فربا حلال ، وربا حرام ، فأما الربا الحلال فهو الذي يهدي يلتمس ما هو أفضل منه ، يعني كما في هذه الآية . وقيل :إن هذا الذي في هذه الآية هو الربا المحرم ، فمعنى لا يربو عند الله على هذا القول :لا يحكم به ،بل هو للمأخوذ منه ، قال المهلب : اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب ، فقال مالك : ينظر فيه ، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله مثل ذلك ، مثل هبة الفقير للغني ، وهبة الخادم للمخدوم ، وهبة الرجل لأميره ، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله . وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا يكون له ثواب إذا لم يشترط ، وهو قول الشافعي رحمه الله الآخر .

وعن عليّ قال : المواهب ثلاثة : موهبة يراد بها وجه الله ، وموهبة يراد بها ثناء الناس ، وموهبة يراد بها الثواب ؛ فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يثب عليها،بخلاف القسمين الآخرين ، فلا يرجع فيهما صاحبهما . قال ابن عباس :في الآية الربا ربوان،ربا لا بأس به ، وربا لا يصلح ، فأما الربا الذي لا بأس به،فهدية الرجل الى الرجل يريد فضلها وإضعافها ،وعنه قال : هذا هو الربا الحلال أن يهدي يريد أكثر منه وليس له أجر ولا وزر ، ونهى النبي ﷺ خاصة فقال : ولا تمنن تستكثر .

﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله﴾ أي : وما أعطيتم من صدقة

تطوع لا تطلبون بها المكافأة،وإنما تقصدون بها ما عند الله ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أي ذوو الأضعاف من الحسنات ، الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف . قال الفراء : هو نحو قولهم : مسمن ، ومعطش ، ومضعف اذا كانت له إبل سمان وعطاش وضعيفة ، وقرىء بفتح العين اسم مفعول وفيه التفات حسن عن الخطاب ، لأنه يفيد التعظيم ، كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم ، فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون أو للتعميم لغير المخاطبين ، كأنه قال : من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين ، وكان مقتضى ظاهر المقابلة أن يقال : فيربو عند الله فغير عبارة الربا الى الإضعاف ونظم الفعلية الى الإسمية الدال على الدوام ، المشتملة على ضمير الفصل ، المفيد للحصر ، والمعنى : المضعفون به لأنه لا بد له من ضمير يرجع الى ما الموصولة .

﴿الله الذي خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم﴾ عاد سبحانه الى الاحتجاج على المشركين ، وأنه الخالق الرازق ، المميت المحيي ، أي المختص بالخلق ، والرزق ، والإماتة ، والإحياء ؛ ثم قال على جهة الاستفهام : ﴿هل من شركائكم﴾ أي أصنامكم التي زعمتم أنهم شركاء ، وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم آلهة ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم .

﴿من يفعل من ذلكم ؟﴾ أي : الخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿من شيء﴾ أي شيئاً من هذه الأفعال ؟ومعلوم أنهم يقولون :ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك ، فتقوم عليهم الحجة ، و (من) الأولى والثانية لبيان شروع الحكم في جنس الشركاء والأفعال ، والثالثة مزيدة لتعميم النفي ، ثم نزه سبحانه نفسه فقال : ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي نزهوه تنزيهاً،وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك .

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

﴿ظهر الفساد﴾ بيَّن سبحانه أن الشرك والمعاصي سبب لظهور الفساد ﴿في البر والبحر﴾ أي العالم ، والفساد من فسد كنصر وكرم، فساداً ضد صلح فهو فاسد ، والفساد أخذ المال ظلماً والجدب والمفسدة ضد المصلحة ، واختلف في معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط وعدم النبات ونقصان الرزق، وكثرة الخوف، ونحو ذلك ، وقال مجاهد وعكرمة : فساد البر قتل ابن آدم أخاه . يعني قتل قابيل لهابيل، وفساد البحر الملك الذي يأخذ كل سفينة غصباً وليت شعري أي دليل دلهم على هذا التخصيص البعيد والتعيين الغريب؟ فإن الآية نزلت على محمد ﷺ ، والتعريف في الفساد يدل على الجنس ، فيعم كل فساد واقع في حيز البر والبحر .

وقال السدي: الفساد الشرك ، وهو أعظم الفساد ، ويمكن أن يقال : إن الشرك وإن كان الفرد الكامل في أنواع المعاصي ، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه وقيل : **الفساد** كساد الأسعار وقلة المعاش ، **وقيل** : قطع السبل والظلم وقيل: نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا ، **قال النحاس** : وهو أحسن ما قيل في الآية . وعنه أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم . قال ابن عطية: فإذا قل المطر قل الغوص فيه ، وعميت دواب البحر . وقيل غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه، والظاهر من الآية ظهور ما يصح اطلاق اسم الفساد عليه ، سواء كان راجعاً الى أفعال بني آدم من معاصيهم واقترافهم السيئآت ، وتقاطعهم وتظالمهم ، وتقاتلهم ، أو راجعاً الى ما هو من جهة الله سبحانه ،

بسبب ذنوبهم ، كالقحط وكثرة الخوف ، والموتان ونقصان الزرائع والثمار ، وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شيء ، والبر والبحر هما المعروفان المشهوران .

وقيل : البر الفيافي ، والبحر القرى التي على ماء ، قاله عكرمة ، والعرب تسمي الأمصار البحار . قال مجاهد : البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر ، وعن ابن عباس نحوه ، والأول أولى ، ويكون معنى البر مدن البر ، ومعنى البحر مدن البحر ، وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها .

﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ من المعاصي والذنوب ، والباء للسببية وأما (ما) موصولة أو مصدرية ﴿ليذيقهم بعض **الذي** عملوا﴾ اللام للعلة ، أي : ليذيقهم بعض عقوبة عملهم ، أو جزاء بعض عملهم في الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة . وقيل ؛ للصيرورة ،قرىء بالياء وبنون العظمة ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم فيه من المعاصي ، ويتوبون الى الله ، قال ابن عباس : يرجعون من الذنوب . ولما بيَّن سبحانه ظهور الفساد فيهما بما كسبت أيدي المشركين والعصاة بيَّن لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأول فقال :

﴿قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ أمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم ، ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم . فإن منازلهم خاوية وأراضيهم مقفرة موحشة ، كعاد وثمود ونحوهم من طوائف الكفار ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي كانوا عليها ، وايضاح السبب الذي صارت عاقبتهم به الى ما صارت اليه ، وهو فشو الشرك والعصيان فيما بينهم ، أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾

﴿فأقم﴾ خطاب للنبي ﷺ ، وأمته أسوته فيه ،كأن المعنى :إذاً قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم فأقم ﴿وجهك﴾ يامحمد ﴿للدين القيم﴾ قال الزجاج : اجعل جهتك اتباع الدين القيم البليغ الاستقامة ، الذي لا يتأتى فيه عوج وهو الإسلام . وقيل :المعنى :أوضح الحق وبالغ في الإعذار ، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم . قاله القرطبي .

﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ يعني يوم القيامة ﴿لا مرد له من الله﴾ المرد مصدر ، رد ، أي لا يقدر أحد على أن يرده كقوله : لا يستطيعون ردها فلا بد من وقوعه،وقيل : المعنى لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه،قاله أبو السعود ﴿يومئذ﴾ أي : يوم إذ يأتي هذا اليوم .

﴿يصدعون﴾ أصله يتصدعون ، والتصدع : التفرق ، يقال : تصدع القوم ، إذا تفرقوا ، ومنه قول الشاعر[1] :

وكنا كندماني حذيمة حقبة   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

(١) الشاعر هو متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً الذي قتل في حروب الردة والبيت الذي يليه :
فلما تفرقنا كأني ومالكاً   لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً . المطيعي

وفي المصباح : صدعته صدعاً من باب نفع ؛ شققته فانصدع . وصدعت القوم صدعاً فتصدعوا . أي : فرقتهم فتفرقوا ، وقوله : فاصدع بما تؤمر ، قيل : مأخوذ من هذا ، أي : شق جماعاتهم بالتوحيد ، وقيل : افرق بذلك بين الحق والباطل . وقيل : أظهر ذلك ، وصدعت بالحق : تكلمت به جهاراً ،وصدعت الفلاة :قطعتها ، والمراد بتفرقهم أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، ثم فصل سبحانه المتصدعين بقوله :

﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ أي :جزاء كفره ووباله وهو النار ﴿ ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ أي:يوطئون لأنفسهم منازل في الجنة بالعمل الصالح والمهاد :الفراش ، وقد تقول مهدت الفراش مهداً إذا بسطته ووطأته ، فجعل الأعمال الصالحة التي هي سبب لدخول الجنة كبناء المنازل في الجنة وفرشها ، وقيل :المعنى:فعلى أنفسهم يشفقون ، من قولهم في المشفق أم فرشت فأنامت ، وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص ،وقال مجاهد : فلأنفسهم يمهدون ، في القبر ، أي يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور .

﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ والكافرين بعدله ، متعلق بيصدعون أو يمهدون أي يتفرقون ليجزي الله المؤمنين بما يستحقونه ، على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر ، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزه ، أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة ليجزيهم . وقال ابن عطية : تقديره ذلك ليجزي ، وتكون الإشارة إلى ما تقدم من قوله :من كفر ومن عمل .قال ابن عباس :ليثيبهم الله ثواباً أكثر من أعمالهم ، وجعل أبو حيان قسيم قوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات محذوفاً لدلالة قوله :

﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ عليه ، لأنه كناية عن بغضه لهم ، الموجب لغضبه سبحانه ، وغضبه يستتبع عقوبته ؛ وقيل : تقرير بعد تقرير على الطرد

والعكس،وفيه تهديد ووعيد لهم .

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح ﴾ أي : ومن دلالات بديع قدرته تعالى إرسال الرياح ، أي[1] الشمال ، والصبا ، والجنوب ، فإنها رياح الرحمة،وأما الدبور فهي ريح العذاب،ومنه قوله ﷺ : « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» قرىء الرياح بالجمع والإفراد على قصد الجنس لأجل قوله ﴿مبشرات﴾ بالمطر لأنها تتقدمه ؛ كما في قوله سبحانه بشراً بين يدي رحمته .

﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ أي : يرسلها ليذيقكم بها الغيث والخصب ، أو نعمته من المياه العذبة ، والأشجار الرطبة ؛ وصحة الأبدان ، وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا الله . وقيل : اللام متعلقة بمحذوف ، أي وأرسلها ليذيقكم ، وقيل : الواو مزيدة على رأي من يجوز ذلك فتتعلق اللام بيرسل و ﴿ من ﴾ تبعيضية .

﴿ و ﴾ يرسل الرياح ﴿ لتجري الفلك ﴾ في البحر عند هبوبها ، ولما أسند الجري إلى الفلك عقبه بقوله:﴿ بأمره ﴾أي :بتدبيره أو بتكوينه ، كقوله : إنما أمره إذا أراد شيئاً الآية ﴿ ولتبتغوا ﴾ الرزق ﴿ من فضله ﴾ بالتجارة التي تحملها السفن ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم فتفردون الله بالعبادة ، وتستكثرون من الطاعة .

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم ﴾ كما أرسلناك إلى قومك ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ،وهو اعتراض بين الكلامين المتصلين معنى،أي : قوله : ومن آياته أن يرسل الرياح،وقوله : الله الذي يرسل الرياح،وقال أبو حيان

---

(١) الشمال ريح تخالف الجنوب والجنوب مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا ، والصبا ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش . المطيعي .

جاء تأنيساً له ﷺ ووعداً بالنصر ووعيداً لأهل الكفر،وحقية نصر المؤمنين على الله لا تختص بالدنيا بل تعم الآخرة أيضاً فما في الآخرة من متناولات الآية .

﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي : بالمعجزات الواضحات،والحجج النيرات،على صدقهم في رسالتهم إليهم،فآمن بهم قوم وكفر بهم قوم ، ويدل على هذا الإضمار قوله : ﴿ فانتقمنا ﴾ بالإهلاك في الدنيا ﴿ من الذين أجرموا ﴾ أي : فعلوا الإجرام وهي الآثام .

﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ على الكافرين بإهلاكهم وإنجاء المؤمنين هذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه ، وهو صادق الوعد ، لا يخلف الميعاد،وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين .

أخرج الطبراني ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والترمذي عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ، ثم تلا ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾، وهو من طريق شهر[1] بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء .

---

(١) روى شهر بن حوشب الأشعري عن أم سلمة وأبي هريرة وجماعة وعنه قتادة وداود بن أبي هند وعبد الحميد بن بهرام وجماعة قال أحمد بن حنبل روى عن أسماء بنت يزيد أحاديث حساناً . وروى ابن خيثمة ومعاوية ابن صالح عن ابن معين أنه ثقة وقال أبو حاتم : ليس هو بدون أبي الزبير- أحد رجال سفيان بن عيينة،ولا يحتج به،وعن ابن عون تركوه : وقال النسائي وابن عدي ليس بالقوي،قال يحيى بن بكير الكرماني : حدثني أبيّ قال كان شهر على بيت المال فأخذ منه دراهم فقال قائل : لقد باع شهر دينه بخريطة .
وقال الفلاس كان يحيى بن سعيد القطان لا يحدث عن شهر فمن يأمن القراء بعدك يا شهر والحديث من مكارم الأخلاق وتظاهره أدلة كثيرة من الكتاب والسنة . المطيعي .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

﴿ الله الذي يرسل الرياح ﴾ قرىء بالجمع والإفراد ، قال أبو عمرو : كل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع ، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد ، وهي مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح ﴿ فتثير سحاباً ﴾ أي تزعجه وتهيجه وتحركه .

﴿ فيبسطه ﴾ أي ينشره متصلاً بعضه ببعض ، أي ينشره كمال الانتشار وإلا فأصل الانتشار موجود في السحاب دائماً ﴿ في السماء ﴾ أي في سمت السماء ، وجهتها وشقها ، كقوله : وفرعها في السماء ، أي : في جهة العلو، وليس المراد حقيقة السماء المعروفة ﴿ كيف يشاء ﴾ تارة سائراً ، وتارة واقفاً ، وتارة مطبقاً ، وتارة غير مطبق ؛ وتارة إلى مسافة بعيدة وتارة إلى مسافة قريبة، وتارة من ناحية الشمال ، وتارة من ناحية الجنوب أو الدبور أو الصبا وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة وفي سورة النور .

﴿ ويجعله كسفاً ﴾ تارة أخرى ، أو يجعله بعد بسطه قطعاً متفرقة بعضها فوق بعض ،والكسف جمع كسفة بالكسر : وهي القطعة من الشيء أو السحاب وقرىء بفتح السين وسكونها ،والمسكن مخفف من المحرك بمعنى ، والقراءتان سبعيتان ، وجمع الجمع : أكساف وكسوف . وكسفه يكسفه: قطعه ﴿ فترى الودق﴾ أي المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾أي : من بينه ووسطه .

﴿ فإذا أصاب به ﴾ أي بالودق ﴿ من يشاء من عباده ﴾ أي : بلادهم

وأرضهم ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾إذا هي الفجائية أي :فاجأوا الاستبشار بمجيء المطر والخصب ، والاستبشار : الفرح .

﴿ وإن ﴾ أي : وإن الشأن ،وفسر المحلي إن بقد ،تبعاً للبغوي ، والأول أولى ، ويدل له اللام في لمبلسين ، فإنها اللام الفارقة ﴿ كانوا من قبل أن ينزل عليهم ﴾ المطر ﴿ من قبله ﴾ تكرير للتأكيد،قاله الأخفش ، وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس ،كقوله : فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها،ومعنى التوكيد فيها على ما قاله الزمخشري :الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول ، فاستحكم يأسهم ، وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك .

قال السمين :وهو كلام حسن وقال ابن عطية :وفائدة هذا التأكيد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار،وذلك أن قوله :من قبل أن ينزل عليهم ، يحتمل الفسحة في الزمان،أي : من قبل أن ينزل بكثير كالأيام ، فجاء قوله :من قبله بمعنى: أن ذلك متصل بالمطر،فهو تأكيد مفيد،وقال قطرب :إن الضمير في قبله راجع إلى المطر . أي :وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر ،قيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم :من قبل الزرع والمطر ، وقيل:من قبل أن ينزل عليهم:من قبل السحاب ، أي من قبل رؤيته ، واختار هذا النحاس . وقيل : الضمير عائد إلى الكسف،وقيل : إلى الإرسال، وقيل : إلى الاستبشار ، والراجح الوجه الأول ، وما بعده من هذه الوجوه كلها ففي غاية التكلف والتعسف .

﴿ لمبلسين ﴾ أي آيسين،يقال : أبلس الرجل إبلاساً : سكت ، وأبلس أيس ، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا .

﴿ فانظر إلى آثار رحمه الله ﴾ الناشئة عن إنزال المطر من النبات والثمار والزرائع[١] التي بها يكون الخصب ورخاء العيش ؛ أي انظر نظر اعتبار

(١) الزرائع جمع زراعة وليس جمع زرع كرسالة ورسائل وسحابة وسحائب . المطيعي .

واستبصار ، لتستدل بذلك على توحيد الله ، وتفرده بهذا الصنع العجيب ؛والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرىء : أثر بالتوحيد ، وآثار بالجمع سبعية .

﴿ كيف يحيي الأرض بعد موتها ؟ ﴾ فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه وقيل : ضمير يعود إلى الأثر ، أي : انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض بعد موتها ، والمراد بالنظر التنبيه على عظيم قدرته ،وسعةرحمته ،مع ما فيه من التمهيد لأمر البعث،وقرىء تحيي بالفوقية على أن فاعله ضمير يعود إلى الرحمة،أو إلى الآثار .

﴿ إن ذلك ﴾أي :إن الله العظيم الشأن ، المخترع لهذه الأشياء المذكورة ﴿لمحيي الموتى ﴾أي :القادر على إحيائهم في الآخرة ، وبعثهم ومجازاتهم ، كما أحيا الأرض الميتة بالمطر ، وهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي: عظيم القدرة وكثيرها ، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء .

﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ مضرة وهي الريح الدبور التي أهلكت بها عاد ﴿ فرأوه ﴾ أي :الزرع والنبات الذي كان من أثر رحمة الله ﴿ مصفراً ﴾ من البرد الناشيء عن الريح التي أرسلها الله بعد اخضراره ، وقيل: الضمير راجع إلى الريح ، وهو يجوز تذكيره وتأنيثه ، وقيل: راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار ، وقيل :راجع إلى السحاب ،لأنه إذا كان مصفراً لم يمطر ، والأول أولى واللام هي الموطئة،وجواب القسم قوله تعالى :

﴿ لظلوا من بعده ﴾ وهو يسد مسد جواب الشرط،لأنه اجتمع هنا شرط وقسم ، والشرط مؤخر فيحذف جوابه ، دلالة عليه بجواب القسم على القاعدةوالمعنى :وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفرة لظلوا من بعد ذلك .

﴿ يكفرون ﴾ بالله ويجحدون نعمهوالمعنى :أنهم يفرحون عند الخصب ، ولو أرسلت عذاباً على زرعهم لجحدوا سالف نعمتي،وفي هذا دليل على سرعة تقلبهم، وعدم صبرهم ، وضعف قلوبهم ، وليس كذا حال أهل الإيمان ، ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال :

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ أي موتى القلوب إذا دعوتهم ، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ، ومعرفتهم للصواب ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ إذا دعوتهم إلى الحق ووعظتهم بمواعظ الله ، وذكرتهم الآخرة وما فيها ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صم الآذان .

وقد تقدم تفسير هذا في سورة النمل ،فإن قلت : الأصم لا يسمع مقبلاً أو مدبراً ؛ فما فائدة هذا التخصيص ؟ قلت :هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة ، فإذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالإشارة عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في دعاء النبي ﷺ لأهل بدر،والاسناد ضعيف .

والمشهور في الصحيحين وغيرهما أن عائشة استدلت بهذه الآية على رد رواية من روى من الصحابة أن النبي ﷺ نادى أهل قليب بدر،وهو من الاستدلال بالعام على رد الخاص ، فقد قال النبي ﷺ لما قيل له إنك تنادي أجساداً بالية: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وفي مسلم من حديث أنس : أن عمر بن الخطاب لما سمع النبي ﷺ يناديهم فقال : « يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث ؟وهل يسمعون؟ يقول الله : إنك لا تسمع الموتى،فقال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم،ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا » ثم وصفهم بالعمي فقال :

﴿ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ﴾ لفقدهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغي ، أو لفقدهم للبصائر ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ لكونهم أهل التفكر والتدبر ، والاستدلال بالآثار على المؤثر ﴿ فهم مسلمون ﴾ أي منقادون للحق متبعون له،وفيه مراعاة معنى : (من) .

﴿ الله الذي خلقكم ﴾ ذكر سبحانه استدلالاً آخر على كمال قدرته،وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة ، كما قال : ﴿ من ضعف ﴾ أي : بدأكم وأنشأكم على ضعف ، وهو مصدر،ضد القوة ، قال الواحدي : قال المفسرون: من نطفة كقوله : من ماء مهين ، أي : ذي ضعف ، وقيل : المراد حال الطفولية والصغر ، فهذه أحوال غاية الضعف ، قرىء : ضعف بضم الضاد في هذه المواضع،وبفتحها ، وهما سبعيتان . قال الفراء : الضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم ؛ قال الجوهري : الضعف خلاف القوة والصحة ، وقيل : هو بالفتح في الرأي ، وبالضم في الجسم ، وأجاز الكوفيون ضعف بفتحتين .

﴿ ثم جعل من بعد ضعف قوة ﴾ وهي قوة الشباب ، وبلوغ الأشد ، فإنه إذ ذاك تستحكم القوة ، وتشتد الخلقة إلى بلوغ النهاية .

﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً ﴾ أي : عند الكبر والهرم ﴿ وشيبة ﴾ هي تمام الضعف ، ونهاية الكبر . وقيل : بياض الشعر الأسود ، ويحصل أوله في الغالب في السنة الثالثة والأربعين ، وهو أول سن[1] الاكتهال ، والأخذ في النقص بالفعل بعد الخمسين إلى أن يزيد النقص في الثالثة والستين،وهو أول

---

(١) الكهولة من الأربعين إلى الستين وبعدها الشيخوخة . المطيعي .

سن الشيخوخة ، ويقوى الضعف إلى ما شاء الله تعالى .

﴿ يخلق ما يشاء ﴾ من جميع الأشياء،ومن جملتها القوة والضعف،والشباب والشيبة،في بني آدم ﴿ وهو العليم ﴾ بتدبيره وأحوالهم ﴿ القدير ﴾ على خلق ما يريده وتغييرهم ، وهذا الترديد في الأحوال أبين دليل على الصانع القادر .

﴿ ويوم تقوم ﴾ أي : توجد وتحصل ﴿ الساعة ﴾ أي : القيامة ، وهي النفخة الثانية ، وسميت ساعة لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة ﴿ يقسم المجرمون ﴾ أي : يحلف المشركون والكافرون المنكرون للبعث بأنهم ﴿ ما لبثوا﴾ في الدنيا،قاله الخطيب ، والكشاف ، والقاضي[1] أو في قبورهم ، قاله مقاتل والكلبي .

﴿ غير ساعة ﴾ فيمكن أن يكونوا استقلوا مدة لبثهم،واستقر ذلك في أذهانهم ، فحلفوا عليه ، وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع ، وقال ابن قتيبة : إنهم كذبوا في هذا الوقت،كما كانوا يكذبون من قبل ، وهذا هو الظاهر لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا،فقد علم كل واحد منهم مقداره ، وإن أرادوا لبثهم في القبور فقد حلفوا على جهالة أن؟ كانوا لا يعرفون الأوقات في البرزخ .

﴿ كذلك ﴾ الصرف ﴿ كانوا يؤفكون ﴾ أي:يصرفون ويقولون : ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، يقال : أفك الرجل إذا صرف عن الصدق والحق . وقيل : المراد يصرفون عن الحق،وقيل : عن الخير،والأول أولى ، وهو دليل على أن حلفهم كذب .

﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان ﴾ اختلف في تعيين هؤلاء،فقيل : الملائكة ، وقيل : الأنبياء ، وقيل :علماء الأمم ، وقيل مؤمنو هذه الأمة ، ولا مانع من الحمل على الجميع . قالوا رداً على هؤلاء الكفرة وتكذيباً لهم :

---

(١) يعني بالقاضي الإمام الجهبذ أبو بكر بن العربي في كتابه «أحكام القرآن» .

﴿ لقد لبثتم في كتاب الله ﴾ أي : سابق علمه ، وسالف قضائه ﴿ إلى يوم البعث ﴾ قال الزجاج : في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ ، قال الواحدي : المفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير على تقدير : وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله ، وكان رد الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد ، أو للمقابلة لليمين باليمين ، ردوا ما قالوه ، وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث ، فنبهوهم على طريقة التبكيت بقولهم :

﴿ فهذا ﴾ الوقت الذي صاروا فيه هو ﴿ يوم البعث ﴾ الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ، وقيل : الفاء جواب شرط محذوف تقديره : إن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يومه ، أي : فقد تبين بطلان إنكاركم ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ أنه حق وقوعه في الدنيا ، بل كنتم تستعجلونه تكذيباً واستهزاء .

﴿ فيومئذ ﴾ الفاء تفصيل لما يفهم مما قبلها من أنه لا يفيدهم تقليل مدة اللبث ، ولا النسيان ، أو هو جواب شرط مقدر أيضاً .

﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ أي : لا ينفعهم الاعتذار يومئذ ، ولا يفيدهم علمهم بالقيامة ، كأنهم توهموا أن التقليل ونحوه عذر في عدم طاعتهم ، كقوله : ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ وقيل ؛ لما رد عليهم المؤمنون ، سألوا الرجوع إلى الدنيا ، واعتذروا فلم يعذروا . قرىء لا ينفع بالتحتية وبالفوقية ، وهما سبعيتان .

﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي : لا يطلب منهم العتبى ، وهو الرجوع إلى ما يرضى الله من التوبة ، والعمل الصالح ، وذلك لانقطاع التكليف في ذلك اليوم ، يقال : استعتبته فأعتبني ، أي : استرضيته فأرضاني ، وذلك إذا كنت جانياً عليه ، وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه ، والمعنى : أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة ، كما دعوا إلى ذلك في الدنيا .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

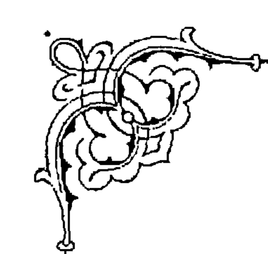
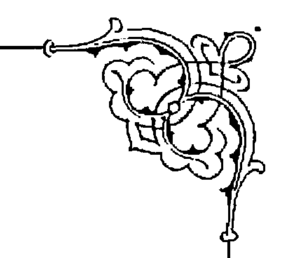
﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي : وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة ، وقصتهم وما يقولون ؛ وما يقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ، وكذا ضربنا لهم من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله ، وصدق رسله ، واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك وفيه إشارة إلى إزالة الأعذار ، والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار .

﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ من آيات القرآن الناطقة بذلك ، أو لئن جئتهم بآية كالعصا ، واليد، أو جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ﴿ ليقولن الذين كفروا ﴾ منهم ﴿ إن أنتم إلا مبطلون ﴾ أي : ما أنت يا محمد وأصحابك إلا أصحاب أباطيل ، تتبعون السحر وما هو مشاكل له في البطلان ، أو أنكم كلكم أيها الرسل مبطلون ، واللام مؤكدة واقعة في جواب القسم .

﴿ كذلك ﴾ الطبع ﴿ يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ أي : الفاقدين للعلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق والتوحيد ، وينجون به من الباطل والشرك ، والمصرين على خرافات اعتقدوها ، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب المحق ؛ ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر ، معللاً ذلك بحقية وعده سبحانه ، وعدم الخلف فيه ، فقال : ﴿ فاصبر ﴾ على ما تسمعه منهم من الأذى ، وتنظره من الأفعال الكفرية ، والفاء فصيحة .

﴿ إن وعد الله حق ﴾ وقد وعدك بالنصر عليهم ، وإعلاء حجتك ،

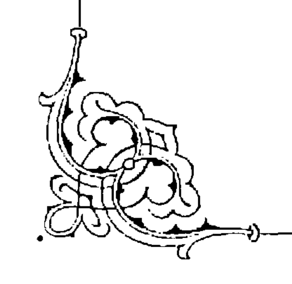
وإظهار دعوتك ، ووعده حق لا خلف فيه ﴿ ولا يستخفنك ﴾أي :لا يحملنك يا محمد ﷺ على الخفة والجهل والطيش بترك الصبر ، ولا يستفزنك عن دينك وما أنت عليه ، يقال : استخف فلان أي : استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي ، وقرىء من الاستحقاق ، والنهي في الآية من باب لا أرينك ههنا ﴿ الذين لا يوقنون ﴾ بالله ، ولا يصدقون أنبياءه ولا يؤمنون بكتبه ، ولا بالبعث والحساب .

سورة لقمان

﴿ آياتها ثلاث أو أربع وثلاثون آية ﴾

وهي مكية إلا ثلاث آيات، وهي قوله تعالى: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، إلى تمام الآيات الثلاث، قاله ابن عباس، وعنه أنها مكيّة، ولم يستثن. وعن قتادة أنها مكيّة إلا آيتين فمدنيتان. وأخرج النسائي، وابن ماجة عن البراء قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

﴿ الٓمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ، وقد تقدم الكلام على مثل فاتحة هذه السورة فلا نعيده ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ وقد تقدم أيضا بيان مرجع الإشارة مراراً في نظائرها ، والحكيم إما أن يكون بمعنى مفعل ، أو بمعنى فاعل أو بمعنى ذي الحكمة،أو الحكيم قائله ، والإضافة بمعنى من .

﴿هدى ورحمة﴾ قال الزجاج : المعنى تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة ؛ وقرىء بالرفع ، أي هو هدى ورحمة ﴿ للمحسنين ﴾ المحسن العامل للحسنات ، أو من يعبد الله كأنه يراه ؛ كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح ، لما سأله جبريل عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[١] ثم وصفهم بقوله :

﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ وخص هذه العبادات الثلاث لأنها عمدتها ﴿ أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴾ قد تقدم تفسير هذا في أوائل سورة البقرة ، والمعنى هنا : أن أولئك المتصفين بالإحسان ،وفعل تلك الطاعات ، التي هي أمهات العبادات، هم على طريقة الهدى ، هم الفائزون بمطالبهم ، الظافرون بخيري الدارين .

---

(١) تقدم ذكره .

﴿ ومن الناس من يشتري ﴾ ﴿ من ﴾ إما موصولة أو موصوفة ،ومفرد لفظاً ، جمع معنى،وروعي لفظها أولاً في ثلاثة ضمائر ، يشتري ، ويضل ، ويتخذ . وروعي معناها ثانياً في موضعين،وهما : أولئك لهم ، ثم رجع إلى مراعاة اللفظ في خمسة ضمائر ، وهي وإذا تتلى عليه إلخ .

﴿ لهو الحديث ﴾ وهو كل باطل يلهي ، ويشغل عن الخير ، من الغناء والملاهي ، والأحاديث المكذوبة ،والأضاحيك ،والسمر بالأساطير التي لا أصل لها ، والخرافات ،والقصص المختلفة ، والمعازف والمزامير ، وكل ما هو منكر والإضافة بيانية ، أي :اللهو من الحديث ، لأن اللهو يكون حديثاً وغيره ؛ فهو كثوب خز ، وهذا أبلغ من حذف المضاف . وقيل : المراد شراء القينات المغنيات ، والمغنين . فيكون التقدير من يشتري أهل لهو الحديث ، قال الحسن : لهو الحديث :المعازف والغناء .وروي عنه أنه قال :هو الكفر والشرك . وفيه بعد، والمراد بالحديث :الحديث المنكر ،والمعنى:يختارون حديث الباطل على حديث الحق .

قال القرطبي : إن أولى ما قيل في هذا الباب هو تفسير لهو الحديث بالغناء قال :وهو قول الصحابة والتابعين .قال ابن عباس : لهو الحديث باطله ، وهو في النضر بن الحرث بن علقمة : اشترى أحاديث الأعاجم ، وأخبار الأكاسرة ، وصنيعهم في دهرهم ، وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام ، ويحدث بها قريشاً ، ويكذب القرآن . وعنه قال : هو الغناء وأشباهه . أخرجه البخاري في الأدب المفرد،وعنه قال: الجواري الضاربات ، وعن ابن مسعود قال : هو والله الغناء ، وفي لفظ قال : هو الغناء ، والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . وعن ابن عباس والحسن وعكرمة ،وسعيد بن جبير :قالوا لهو الحديث هو الغناء ، والآية نزلت فيه .وقيل :هو كل لهو ولعب ؛ والمعنى:يستبدل ويختار الغناء ، والمزامير ؛ والمعازف على القرآن .

وأخرج أحمد والترمذي ، وابن ماجة ، والطبراني ، والبيهقي ، وغيرهم عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ، ولا

خير في تجارة فيهن ؛ وثمنهن حرام » . في مثل هذا أنزلت هذه الآية . وفي إسناده عبيد[1] بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن ، وفيهم ضعف .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « إن الله حرم القينة وبيعها . وثمنها . وتعليمها . والاستماع إليها ثم قرأ : ومن الناس من يشتري لهو الحديث » .

وأخرج البيهقي في السنن ، وابن أبي الدنيا ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « الغناء ينبت النفاق ، كما ينبت الماء البقل » . ورويناه عنه موقوفاً . وأخرج ابن أبي الدنيا ، وابن مردويه ، عن أبي أمامة : أن رسول الله ﷺ قال : « ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه ، يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك » . وأخرج الترمذي عنه مرفوعاً نحو ؛ وفي الباب أحاديث في كل حديث منها منال .

وقال ابن مسعود : لهو الحديث ، الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في لهو الحديث : « إنما ذلك

---

(١) عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد ، والأعمش وكأنه مات شاباً ، وروى عنه الكبار : يحيى ابن سعيد الأنصاري ، ويحيى بن أيوب المصري قال محمد بن يزيد المستعلي : سألت أبا مسهر عنه فقال : صاحب كل معضلة ، وإن ذلك على حديثه لبين . وروى عثمان بن سعيد عن يحيى قال : حديثه عندي ضعيف . وروى عباس عن يحيى : ليس بشيء . وقال ابن المديني . منكر الحديث ، وقال الدارقطني . ليس بالقوي ، وشيخه علي متروك . وقال ابن حبان يروي الموضوعات عن الأثبات ، وإذا روى عن علي بن يزيد يأتي بالطامات ، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله ، وعلي بن يزيد ، والقاسم أبو عبد الرحمن ـ لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم أ هـ .

قلت : وهذا الخبر اجتمع فيه الثلاثة ، وإن كان قد روي عن أبي زرعة الرازي أنه صدوق . المطيعي .

شراء الرجل اللعب والباطل » ، أخرجه ابن مردويه .

وعن نافع قال : كنت أسير مع عبدالله بن عمر في طريق فسمع زمارة فوضع أصبعيه في أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أتسمع ؟ قلت : لا ، فأخرج أصبعيه من أذنيه . وقال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع . وعن ابن عوف أن رسول الله ﷺ قال : « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نعمة، لهو ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة ، خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة شيطان » .

﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ اللام للتعليل ، قرىء بضم الباء ، أي : ليضل غيره عن طريق الهدى ، ومنهج الحق . وقرىء بفتح الياء ، أي : ليضل هو في نفسه ويدوم ، ويستمر ، ويثبت على الضلال ، وهما سبعيتان . قال الزجاج : من قرأ بضم الياء فمعناه ليضل غيره، فإذا أضل غيره فقد ضل هو ، ومن قرأ بالفتح فمعناه ليصير أمره إلى الضلال ، وهو إن لم يكن يشتري الضلالة، فإن أمره إلى ذلك ، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد ، ويؤيد هذا سبب النزول ، قال ابن عباس : سبيل الله :قراءة القرآن ، وذكر الله ، نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية . قال الطبري : قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء ، والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم ابن سعد ، وعبدالله العنبري . قال القاضي أبو بكر بن العربي: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته ، إذ ليس شيء منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها ؟

وقال في نيل الأوطار بعد ذكر الاختلاف فيه مع الأدلة :لا يخفى على الناظر أن محل النزاع إذا خرج عن دائرة الحرام، لم يخرج عن دائرة الاشتباه والمؤمنون وقافون عند الشبهات ، كما صرح به الحديث الصحيح ، ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ولا سيما إذا كان مشتملاً على ذكر القدود ، والخدود ، والجمال ، والدلال ،

والهجر ، والوصال ومعاقرة العقار ، وخلع العذار ، والوقار ، فإن سامع ما كان كذلك لا يخلو عن بلية ، وإن من التصلب في ذات الله على حد يقصر عنه الوصف،وكم لهذه الوسيلة الشيطانية من قتيل دمه مطلول ، وأسير بهموم غرامه وهيامه مكبول ، نسأل الله السداد والثبات .

قلت:وقد جمع الشوكاني رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم في الغناء ، وما استدل المحللون له والمحرمون له ، وحقق هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها ، وتدبر معانيها،إلى النظر في غيرها ، وسماها إبطال دعوى الإجماع على تحريم مطلق السماع . ولنا أيضاً بحمد الله عز وجل جواب بسيط في جواز الغناء ، وعدم جوازه بالفارسية،ذكرناه في كتابنا هداية السائل ، فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغي فليرجع إلى ذلك .

﴿ بغير علم ﴾ أي حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه ، أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر ، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض ، أو يفعله عن جهل،أو جهلاً منه بما عليه من الوزر ،ونحوه قوله تعالى : ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ أي:لصواب التجارة .

﴿ ويتخذها ﴾ قرأ حمزة والكسائي والأعمش بالنصب ، عطفاً على يضل ، والضمير المنصوب راجع إلى السبيل ؛ فيكون المعنى على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم ؛ والمعنى:أنه يشتري لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله ، واتخاذ السبيل ﴿هزوا﴾ أي : مهزواً به . والسبيل يذكر ويؤنث . وقرأ الجمهور بالرفع عطفاً على يشتري ، فهو من جملة الصلة ؛ وقيل : الرفع على الاستئناف ، والضمير المنصوب يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها ، والأول أولى ﴿أولئك﴾ إشارة إلى ﴿من﴾ والجمع باعتبار معناها ، كما أن الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها كما تقدم ﴿لهم عذاب مهين﴾ هو الشديد الذي يصير به من وقع عليه مهيناً .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

﴿ وإذا تتلى عليه ﴾أي :على هذا المستهزىء﴿ آياتنا ولى مستكبر﴾ أي : أعرض عنها حال كونه مبالغاً في التكبر، رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن ﴿كأن لم يسمعها﴾ أي :كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع ﴿ كأن في أذنيه وقراً ﴾ ولا وقر فيهما والوقر:الثقل وهو حال من لم يسمعها،وقد تقدم بيانه،وفيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض ﴿ فبشره بعذاب أليم﴾ أي :أخبره بأن له العذاب البليغ في الألم، وذكر البشارة تهكم به،ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات،بين حال من يقبل عليها فقال :

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بالله وبآياته،ولم يعرضوا عنها،بل قبلوها ﴿ وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ﴾ أي: نعيم الجنات ،فعكسه للمبالغة،جعل لهم جنات النعيم ، كما جعل للفريق الأول العذاب المهين ﴿ خالدين فيها ﴾ حال من الضمير في لهم أي مقدار خلودهم فيها فإذا دخلوها .

﴿ وعد الله حقاً ﴾ هما مصدران الأول مؤكد لنفسه أي: وعد الله وعداً ،

والثاني مؤكد لغيره،وهو مضمون الجملة الأولى وتقديره حق ذلك حقاً ، والمعنى : أن وعده بأن لهم جنات النعيم كائن لا محالة ولا خلف فيه ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يغلبه غالب ﴿ الحكيم ﴾ في كل أفعاله وأقواله ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقـولـه :

﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ جمع عماد كأهب جمع إهاب ، وهو ما يعمد به ، أي : يسند ؛ يقال : عمدت الحائط إذا دعمته ، والدعامة بالكسر ما يسند به الحائط إذا مال ، يمنعه السقوط ، ودعمت الحائط دعماً من باب نفع . وقد تقدم الكلام فيه في سورة الرعد ، قيل : إن السماء خلقت مبسوطة كصفحة مستوية ، وهو قول المفسرين ؛ وهي في الفضاء ، والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس ذلك إلا بقدرة قادر مختار ، وإليه الإشارة بقوله بغير عمد .

﴿ ترونها ﴾ أي ليس لها شيء يمنعها الزوال من موضعها،وهي ثابتة لا تزول ، وليس ذلك إلا بقدرة الله تعالى ، وفيه وجهان : أحدهما أنه راجع إلى السموات ، أي ليست هي بعمد ، وأنتم ترونها كذلك بغير عمد ، الوجه الثاني : أنه راجع إلى العمد ، ومعناه بغير عمد مرئية ، فيمكن أن تكون ثم عمد ولكن لا ترى ، وقيل : ولا عمد البتة،قال علي بن سليمـان : الأولى أن يكون مستأنفاً ،أي : ولا عمد ، ثم :

﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ أي :جبالاً مرتفعة ثوابت شوامخ من أوتاد الأرض ، وهي سبعة عشر جبلاً منها قاف ، وأبو قبيس[1] والجودي ولبنان ،

---

(١) أين هذه الجبال القميئة من جبال هملايا القريبة من بلاد المصنف أو من جبال الألب في أوربا أو جبال البرانس في شمال أفريقيا ؟ وأين هو جبل قاف الذي يحكيه الـوضاعـون والقصاصـون والمهرجون بأساطير ألف ليلة وليلة ؟ بصر الله أهل العلم بمناهج العلم . المطيعي .

وطورسينين ، وطور سيناء،أخرجه ابن جرير،ولكن لا وجه للتخصيص،والأولى العموم،والجبال على الأرض أكثر من ذلك ، والكل يصلح للرسو ، يقال : رسا الشيء ثبت،وبابه عدا وسما والرواسي : الرواسخ واحدتها راسية ﴿ أن تميد بكم ﴾ أي :كراهة أن تميد بكم ، وقيل : لئلا تميد،والمعنى أنه خلقها وجعلها مستقرة ثابتة،لا تتحرك بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها .

﴿ وبث ﴾ أي نشر وفرق ﴿فيها﴾ أي :في الأرض ﴿ من كل دابة﴾ أي : كل نوع من أنواع الدواب،ومن زائدة ﴿ وأنزلنا ﴾ فيه التفات عن الغيبة ﴿ من السماء ماء ﴾ مطهراً وهو من إنعام الله على عباده وفضله ﴿ فأنبتنا فيها ﴾ أي: في الأرض بسبب إنزال الماء .

﴿ من كل زوج كريم ﴾ أي من كل صنف حسن ، ووصفه بكونه كريماً لحسن لونه ، وكثرة منافعه ، وقيل : إن المراد بذلك الناس ، فالكريم منهم من يصير إلى الجنة،واللئيم من يصير إلى النار،قاله الشعبي ، وغيره ؛ والأول أولى .

﴿ هذا ﴾ أي :ما ذكر من خلق السموات والأرض وما تعلق بهما من الأمور المعدودة ﴿ خلق الله ﴾ أي : مخلوقه تعالى ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ ﴾ أي : من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله،والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : فأروني أي شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله ، أو يقاربه حتى استوجبوا عندكم العبادة ، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت،ثم أضرب عن تبكيتهم بما ذكر إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر ، والإعلام ببطلان ما هم عليه فقال : ﴿ بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ فقرر ظلمهم أولاً وضلالهم ثانياً ؛ ووصفه بالوضوح والظهور ، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة . ولا يهتدي إلى الحق .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ كلام مستأنف لبيان بطلان الشرك، واختلف في لقمان ، هل هو عربي ؟ أم أعجمي؟ مشتق من اللقم ، فمن قال: إنه أعجمي منعه للتعريف والعجمة . ومن قال: إنه عربي منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون .قال الحفناوي : والأول أظهر ، واختلفوا أيضاً هل هو نبي ؟ أم رجل صالح ؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبي . وحكى الواحدي عن عكرمة والسدي ، والشعبي ، أنه كان نبياً،والأول أرجح لما سيأتي،وقيل :لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط،مع أن الراوي لذلك عنه[1] جابر الجعفي،وهو ضعيف جداً وقيل: خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة ، وهو لقمان ، بن باعورا ، ابن ناحور ، بن تارخ وهو آزر أبو إبراهيم .

وقيل : هو لقمان بن عنقا ، بن مرون ، وكان نوبياً من أهل أيلة ذكره السهيلي .

قال وهب : هو ابن أخت أيوب وقال مقاتل : هو ابن خالته ، عاش ألف سنة وأخذ عنه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود،فلما بعث داود قطع الفتوى فقيل له ، فقال : ألا أكتفي إذ كفيت . وقيل : كان خياطاً ، وقيل نجاراً ، وقيل : راعياً،وقال الواقدي : كان قاضياً في بني إسرائيل .

(١) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي أحد علماء الشيعة وليس فيه ضعف شديد كما قال المصنف فقد قال سفيان كان جابر الجعفي ورعاً في الحديث ما رأيت أورع منه وقال شعبة : صدوق وقال يحيى ابن أبي بكير عن شعبة : كان جابر اذا قال : اخبرنا وحدثنا ، وسمعت فهو من أوثق الناس . وقال وكيع : ما شككتم في شيء فلا تشكوا أن جابراً الجعفي ثقة وقال ابن عبد الحكم سمعت الشافعي يقول ، قال سفيان الثوري لشعبة لئن تكلمت في جابر الجعفي لأتكلمن فيك . المطيعي .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أتدرون ما كان لقمان» ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ،قال : كان حبشياً »أخرجه ابن مردويه .

وعن ابن عباس قال : كان عبداً حبشياً نجاراً .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ « اتخذوا السودان ،فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم ، والنجاشي ،وبلال المؤذن » أخرجه الطبراني ، وابن حيان في الضعفاء ، قال الطبراني أراد الحبشة ، والحكمة التي آتاه الله هي الفقه ، والعقل ، والإصابة في القول وفسر الحكمة من قال بنبوته بالنبوة،قال ابن عباس : يعني العقل والفهم ، والفطنة في غير نبوة .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه .

ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء،ولا يثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله،وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع،وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في ذكره إلا شغلة للحيز ؛ وقطيعة للوقت ، ولم يكن نبياً،حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا ، ولا صح إسناد ما روي عنه من الكلمات،حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلام الحكمة التي هي ضالة المؤمن .

﴿ أن آشكر لله ﴾ أن هي المفسرة،لأن في الإيتاء معنى القول ، لأنه تعليم أو وحي ، وقيل : التقدير : قلنا له هذا القول ، وقال الزجاج : التقدير لأن أشكر ، وقيل: بأن أشكر فشكر ، فكان حكيماً بشكره ، والشكر لله الثناء عليه في مقابلة النعمة ، وطاعته فيما أمر به وقيل: الشكر أن لا تعصي الله بنعمه وقيل: أن لا ترى معه شريكاً له في نعمه . وقيل : هو الإقرار بالعجز،ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل ، ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر فقال :

﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ لأن نفع ذلك وثوابه راجع إليه

وفائدته حاصلة له ، إذ به تستبقى النعمة ، وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه،والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، موجبة لامتثال الأمر ﴿ ومن كفر ﴾ أي: من جعل كفر النعمة مكان شكرها ﴿ فإن الله غني ﴾ عن شكره غير محتاج إليه ﴿ حميد ﴾ مستحق للحمد من خلقه،لإنعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها ، ولا يحصر عددها ، وإن لم يحمده أحد ، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال ، قال يحيى بن سلام : غني عن خلقه ، حميد في فعله .

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذ قال لقمان لابنه ﴾ قال السهيلي : واسم ابنه ثاران في قول ابن جرير ، والقتيبي ، وقال الكلبي : مشكم ، وقال النقاش : أنعم وقيل : ماتان،قال القشيري : كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما ودل على هذا قوله : لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، والتقدير آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه،وحين جعلناه واعظاً لغيره .

﴿ وهو يعظه﴾ أي: والحال أنه يخاطبه بالموعظة التي ترغبه في التوحيد ، وتصده عن الشرك،وذلك لأن أعلى مراتب الإنسان أن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره ، وبدأ بالأقرب إليه وهو ابنه فقال :

﴿ يا بني ﴾ تصغير إشفاق ومحبة ﴿ لا تشرك بالله ﴾ وهذا يدل على أنه كان كافراً كما تقدم . قال الخطيب ، والخازن : فرجع إليه وأسلم .وقيل : كان مسلماً ونهاه أن يقع منه إشراك في المستقبل .

﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا وهي منه ، وبين من لا نعمة له أصلاً . وبدأ في وعظه بنهية عن الشرك،لأنه أهم من غيره وقد اختلف في هذه الجملة ، فقيل : هي من كلام لقمان،فتكون تعليلاً لما قبلها ،وقيل : هي من كلام الله ، فتكون منقطعة عما قبلها،ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح ، أنها لما نزلت: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على الصحابة وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فأنزل الله إن الشرك لظلم عظيم ، فطابت أنفسهم .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ أي: أمرناه أن يبرهما، وهذه الوصية بالوالدين وما بعدها إلى قوله: ﴿وما كنتم تعلمون﴾ اعتراض بين كلام لقمان على نهج الاستطراد، لقصد التأكيد لما قبلها من النهي عن الشرك بالله وتفسير التوصية هو قوله: أن أشكر لي ولوالديك وما بينهما اعتراض بين المفسر والمفسر، وفي جعل الشكر لهما مقترناً بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد وأكبرها وأشدها وجوباً .

﴿ حملته أمه وهناً على وهن ﴾ قرىء بسكون الهاء وبفتحها في الموضعين، وهما لغتان، أي: أنها حملته في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعف على ضعف، فإنها لا يزال يتضاعف ضعفها ، والوهن الضعف والمشقه ، وقد وهن من باب وعد ووهنه غيره توهيناً، والوهن والموهن نحو من نصف الليل . وقال ابن عباس: شدة بعد شدة ، وخلقاً بعد خلق، وقيل: المعنى أن المرأة ضعيفة الخلقة ، ثم يضعفها الحمل ، وقيل: أي: حملته بضعف على ضعف: وقال الزجاج المعنى لزمها بحملها إياه أن تضعف مرة بعد مرة: أي: وهنا كائناً على وهن ، لأن الحمل وهن ، والطلق وهن ، والوضع وهن ، والرضاعة وهن ، وانتصاب وهناً على المصدر أو الحال .

﴿ وفصاله في عامين ﴾ الفصال: الفطام عن الرضاع، وهو أن يفصل الولد عن الأم، وقرىء وفصله وهما لغتان ، يقال: انفصل عن كذا أي: تميز ، وبه

سمي الفصيل، والمعنى: فطامه لتمام سنتين عن الرضاع، قال البيضاوي: وفيه دليل على أن مدة الإرضاع حولان.

﴿أن آشكر لي ولوالديك﴾ أي: وصيناه بشكرنا وشكر والديه، قال سفيان ابن عيينه: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله؛ ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين. و (أن) مفسرة أو مصدرية، وهو قول الزجاج ﴿إلى المصير﴾ تعليل لوجوب امتثال الأمر، أي الرجوع إليّ لا إلى غيري، وقيل: الجزاء عليَّ وقت المصير إليّ.

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم﴾ أي: ما لا علم لك بشركته، وذكر هذا القيد موافقة للواقع، ولا مفهوم (مخالفته) له، إذ ليس لله شريك يعلم لأنه مستحيل ﴿فلا تطعمها﴾ في ذلك لأنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق، وجملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة، ولا ترك فريضة على الأعيان؛ وتلزم طاعتهما في المباحات، وقد قدمنا تفسير الآية، وسبب نزولها في سورة العنكبوت، قال سعد بن أبي وقاص: نزلت فيَّ هذه الآية، وعن أبي هريرة مثله، وعليه جماعة من المفسرين.

﴿وصاحبهما في الدنيا﴾ أي: في أمورها التي لا تتعلق بالدين، ما دمت حياً صحاباً ﴿معروفاً﴾ ببرهما إن كانا على دين يقران عليه وقيل: صاحبهما بمعروف وهو البر والصلة، والعشرة الجميلة، والخلق الجميل، والحلم والاحتمال، وما يقتضيه مكارم الأخلاق، ومعالي الشيم.

﴿واتبع سبيل من أناب﴾ أي: رجع ﴿إليّ﴾ والخطاب لسائر المكلفين، أي: اتبع أيها المكلف دين من أقبل إلى طاعتي من عبادي الصالحين، بالتوبة والإخلاص، وهو النبي ﷺ وأصحابه، قيل: يعني أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، قال: ابن عباس وذلك حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وقالوا له: قد صدقت هذا الرجل، وآمنت به؟ قال: نعم إنه صادق، فآمنوا به ثم حملهم إلى النبي ﷺ حتى أسلموا، فهؤلاء لهم سابقة الإسلام أسلموا بإرشاد أبي بكر.

﴿ ثم إليّ ﴾ لا إلى غيري ﴿ مرجعكم ﴾ جميعاً أي : أنت ووالداك ومن أناب إليَّ ﴿ فأنبئكم ﴾ أخبركم عند رجوعكم إليّ ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ من خير أو شر، فأجازي كل عامل بعمله ، ثم شرع سبحانه في حكاية بقية كلام لقمان في وعظه لابنه فقال :

﴿ يا بنيَّ إنها ﴾ الضمير عائد إلى الخطيئة، لما روي أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد هل يعلمها الله ؟ فقال إنها أي الخطيئة ﴿ إن تك ﴾ بالفوقية على معنى إن تك الخطيئة ، أو المسألة أو الخصلة أو القصة ﴿ مثقال ﴾ قرىء بالنصب على أنه خبر كان، واسمها هو أحد تلك المقدرات، وقرىء بالرفع على أنه اسم كان وهي تامة وأنث الفعل في هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث أي : زنة ﴿ حبة من خردل ﴾ والجملة الشرطية مفسرة للضمير، قال الزجاج: التقدير أن التي سألتني عنها إن تك مثقال حبة من جنس الخردل. وعبر بالخردلة لأنها أصغر الحبوب ، ولا يدرك ثقلها بالحس ، ولا ترجح ميزاناً، ثم زاد في بيان خفاء الحبة مع خفتها وصغرها فقال :

﴿ فتكن في صخرة﴾ فإنها عند كونها في الصخرة قد صارت في أخفى مكان وأحرزه ، قرىء فتكن بضم الكاف، ومن الكن الذي هو الشيء المغطى قال السدي :هذه الصخرة هي صخرة ليست في السموات والأرض، وقال ابن عباس: صخرة تحت الأرضين السبع ، وهي التي تكتب فيها أعمال الفجار، وهي السجين وخضرة السماء منها ، وقيل : غير ذلك .

﴿ أو في السموات أو في الأرض ﴾ أي حيث كانت من بقاع السموات أو بقاع الأرض ، أي: في أخفى مكان من ذلك، فالأخفى من الصخرة كأن تكون في صخرة تحت الأرضين السبع، والأخفى من السموات كأن تكون في أعلاها ، والأخفى من الأرض كأن تكون في أسفلها .

﴿ يأت بها الله ﴾ أي : يحضرها يوم القيامة ، ويحاسب فاعلها عليها ﴿ إن الله لطيف ﴾ باستخراجها لا تخفى عليه خافية، بل يصل علمه الى كل خفي ﴿ خبير ﴾ بمكانها ، وبكل شيء لا يغيب عنه شيء ، ومعنى الآية الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها .

يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾

﴿ يا بنيَّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾ من الأذى في ذات الله ، إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر،أو اصبر على ما أصابك من المحن فانها تورث المنح ، حكى سبحانه عن لقمان أنه أمر ابنه بهذه الأمور ، ووجه تخصيص هذه الطاعات،أنها أمهات العبادات وعماد الخير كله .

﴿ إن ذلك ﴾ الطاعات المذكورة التي وصاه بها ﴿ من عزم الأمور﴾ أي : مما جعله الله عزيمة ، وأوجبه على عباده ، وحتمه على المكلفين،ولم يرخص في تركه وقيل :المعنى من حق الأمور التي أمر الله بها ، والعزم يجوز أن يكون بمعنى المعزوم أي :من معزومات الأمور،أو بمعنى العازم كقوله فاذا عزم الأمر . قال المبرد: إن العين تبدل حاء فيقال :عزم وحزم وقال ابن جريج :ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق ، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة ، وصوب هذا القرطبي ، وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم .

﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ وقرىء تصاعر ، والمعنى متقارب ، وكل منهما في خط المصحف الإمام بلا ألف ، والصعر : الميل ، يقال:صعر خده : وصاعر خده: إذا أمال وجهه ، وأعرض تكبراً ، والمعنى،لا تعرض عن الناس

تكبراً عليهم ، وبه قال الهروي ، يقال : أصاب البعير صعر : إذا أصابه داء يلوي عنقه وقيل : المعنى.ولا تلو شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره ، وقال ابن خواز منداد : كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة ، ولعله فهم من التصعير التذلل .

وعن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله:ولا تصعر خدك،فقال لي : « الشدق » أخرجه الطبراني . وابن عدي وابن مردويه وقال ابن عباس : لا تتكبر فتحتقر عباد الله ، وتعرض عنهم إذا كلموك وعنه قال : هو الذي إذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر،والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعاً،ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المستكبرون،بل يكون الفقير والغني عندك سواء .

﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي:خيلاء وفرحاً ،والمراد : النهي عن التكبر والتجبر ، والمختال يمرح في مشيه ، وقد تقدم تحقيقه ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ تعليل للنهي المذكور،لأن الاختيال هو المرح، والفَخور هو الذي يفتخر على الناس بماله من المال والشرف،أو القوة أو يعدد مناقبه تطاولاً،أو غير ذلك ويظن أن إسباغ النعم الدنيوية عليه من محبة الله له وذلك من جهله،فان الله أسبغ نعمه على الكافر الجاحد،فينبغي للعارف أن لا يتكبر على عباده،وليس منه التحديث بنعم الله،فإن الله يقول :﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾.

﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي : توسط فيه،والقصد ما بين الإسراع والبطء ، يقال : قصد فلان في مشيته : إذا مشى مستوياً لا يدب دبيب المتمادين ، ولا يثب وثوب الشياطين . وقد ثبت «أن رسول الله ﷺ كان إذا مشى أسرع » ، فلا بد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد في السرعة ، وقال مقاتل : معناه لا تختل في مشيتك ، وقال ابن مسعود : كانوا ينهون عن خبب اليهود ، ودبيب النصارى ، ولكن مشياً بين ذلك، وقيل : انظر

موضع قدميك تواضعاً،والمعنى أعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيّين الدبيب والإسراع . وقال عطاء : امش بالسكينة والوقار ، كقوله : يمشون على الأرض هوناً .

﴿ وأغضض من صوتك ﴾ أي : أنقص منه واخفضه ، ولا تتكلف رفعه فان الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع ، و (من) تبعيضية ، وعند الأخفش مزيدة ، ويؤيده قوله :﴿إنَّ الذين يغضون أصواتهم﴾ ،والمعنى :شيئاً من صوتك وكانت الجاهلية يتمدحون برفع الصوت .

﴿ إن أنكر الأصوات ﴾ أي : أوحشها وأقبحها ﴿ لصوت الحمير ﴾ تعليل للأمر بالغض من الصوت على أبلغ وجه وآكده ، قال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير ، أي : صوت قوي وآخره شهيق ،أي : صوت ضعيف ، وهما صوتا أهل النار ، وأنكر ، قيل : مبني من الفعل المبني للمفعول ، نحو أشغل من ذات النحبيين ، وهو مختلف فيه ، قال المبرد : تأويله إن الجهر بالصوت ليس بمحمود ، وانه داخل في باب الصوت المنكر ، واللام للتأكيد ، ووحد الصوت مع كونه مضافاً إلى الجمع لأنه مصدر ، وهو يدل على الكثرة ، وهو مصدر : صات يصوت صوتاً فهو صائت .

وقيل : إنما وحده ولم يجمع لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع ، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس ؛ فوجب توحيده . وعن الثوري في الآية قال : صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار . وقيل : معنى الآية هو :العطسة القبيحة المنكرة ، والأول أولى ، وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، تنبيه على أن رفع الصوت في غاية الكراهة،ولما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع الى توبيخ المشركين وتبكيتهم ، وإقامة الحجج عليهم ، فقال :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ؟ ﴾ قال الزجاج : معنى تسخيرها للآدميين : الانتفاع بها،انتهى ، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبني آدم بأمر الله سبحانه : الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب . وغير ذلك،ومن مخلوقات الأرض المسخرة : الأحجار ، والمعادن ، والتراب ، والزرع ، والشجر ، والثمر ، والبحار ، والأنهار ، والحيوانات ، والدواب التي ينتفعون بها ، والعشب الذي يرعون فيه دوابهم ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة ، فالمراد بالتسخير : جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له ، سواء كان منقاداً له وداخلاً تحت تصرفه أم لا .

﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ أي : أتم وأكمل عليكم نعمه ، يقال : سبغت النعمة إذا تمت وكملت ، وقرىء أصبغ بابدال السين صاداً وهي لغة كلب ، يفعلون ذلك في كل سين اجتمع مع الغين ، والخاء والقاف ، كصلخ وصقر ، والنعم جمع نعمة ، وقرىء نعمة على الإفراد والتنوين ، اسم جنس يراد به الجمع ، ويدل به على الكثرة ، كقوله تعالى : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، والنعمة : كل نفع قصد به الإحسان .

والمراد بالنعم الظاهرة : ما يدرك بالعقل أو الحس ، ويعرفه من

يتعرفه . وبالباطنة : ما لا يدرك للناس ، ويخفى عليهم . وقيل : الظاهرة الصحة ، وكمال الخلق ، والبصر ، والسمع ، واللسان ، وسائر الجوارح الظاهرة . والباطنة : المعرفة ، والعقل ، والقلب ، والفهم ، وما أشبه ذلك . وقيل :الظاهرة :ما يرى بالأبصار من المال والجاه ، والجمال ، وفعل الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يدفعه الله عن العبد من الآفات ، وقد سرد الماوردي في هذا أقوالاً تسعة ، كلها ترجع الى هذا .

وقيل : الظاهرة :نعم الدنيا،والباطنة : نعم الآخرة ،وقيل: الظاهرة :الاسلام والقرآن والجمال ، والباطنة : ما ستره الله عن العبد من الأعمال السيئة ، وقيل : الظاهرة : تسوية الأعضاء ، وحسن الصورة ، والباطنة : الاعتقاد بالقلب .وقيل : الظاهرة : الرزق ، والباطنة : حسن الخلق . وقيل : الظاهرة: تخفيف الشرائع،والباطنة : الشفاعة .وقيل الظاهرة :ظهور الإسلام والنصر على الأعداء . والباطنة الإمداد بالملائكة .وقيل : الظاهرة : اتباع الرسول ﷺ . والباطنة : محبته . واللفظ أعم من ذلك .

وعن عطاء قال: سألت ابن عباس عن هذا ،فقال هذه من كنوز علمي ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: « أما الظاهرة فما سوى من خلقك ، وأما الباطنة فما ستر من عورتك ، ولو أبداها لقلاك أهلك ، فمن سواهم » . أخرجه البيهقي .

وعنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله وأسبغ عليكم نعمه الخ ، فقال : أما الظاهرة فالاسلام ، وما سوى من خَلقِك وما أسبغ عليك من رزقه ، وأما الباطنة فما ستر من مساوي عملك » أخرجه ابن النجار والديلمي والبيهقي وعنه قال : النعمة الظاهرة :الإسلام . والنعمة الباطنة : كل ما ستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود ، أخرجه ابن مردويه وعنه أنه قال في تفسير الآية : هي لا إله إلا الله .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله ﴾ أي : في شأن الله سبحانه في توحيده وصفاته مكابرة ، وعناداً بعد ظهور الحق له، وقيام الحجة عليه، ولهذا قال ﴿ بغير علم ﴾ مستفاد من عقل ونقل ﴿ ولا هدى ﴾ من جهة رسول يهتدى به إلى طريق الصواب .

﴿ ولا كتاب منير ﴾ نير واضح أنزله الله ؛ بل مجرد تعنت ومحض عناد وتقليد ، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة . قيل : نزلت في النضر بن الحرث ، وأبي بن خلف ، وأمية بن خلف، وأشباههم ، كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله ، وفي صفاته بغير علم .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي : لهؤلاء المجادلين ، والجمع باعتبار معنى ﴿ من ﴾ ﴿ اتبعوا ما أنزل الله ﴾ على رسوله من الكتاب، تمسكوا بمجرد التقليد البحت ، و ﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، ونمشي في الطريق التي كانوا يمشون فيها في دينهم ؛ ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء .

قال ابن القيم: قد احتج العلماء بهذه الآية وأمثالها في إبطال التقليد ، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر ، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد ، كما لو قلد رجلاً فكفر ، وقلد آخر فأذنب ، وقلد آخر في مسألة فأخطأ ، وجهها كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة ، لأن كل تقليد يشبه بعضه بعضاً ، وان اختلفت الآثام فيه ، والتقليد أنواع :

أحدها : الإعراض عما أنزل الله ، وعدم الالتفات إليه، اكتفاء بتقليد الآباء .

الثاني : تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله .

الثالث : التقليد بعد قيام الحجة ، وظهور الدليل على خلاف قول المقلد ، والفرق بين هذا وبين النوع الأول أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة ، وهذا قلد بعد ظهور الحجة له فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله ﷺ ، وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد في غير موضع من كتابه ، والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم ، ولا يكون العبد مهتدياً حتى يتبع ما أنزل الله على رسوله،فهذا المقلد إن كان يعرف ما أنزل الله على رسوله فهو مهتد وليس بمقلد ، وإن كان لم يعرف ما أنزل الله فهو جاهل ضال بإقراره على نفسه ، فمن أين يعرف أنه على هدى في تقليده ؟ وهذا جواب كل سؤال يوردونه في هذا الباب .

وكان طريقة الأئمة اتباع الحجة ، والنهي عن تقليدهم فمن ترك الحجة وارتكب ما نهوا عنه ، ونهى الله ورسوله عنه قبلهم فليس على طريقهم ، بل هو من المخالفين لهم ، وإنما يكون على طريقتهم من اتبع الحجة ، وانقاد للدليل ، ولم يتخذ رجلاً بعينه سوى الرسول ﷺ يجعله مختاراً على الكتاب والسنة ، يعرضهما على قوله ، وبهذا يظهر بطلان فهم من جعل التقليد اتباعاً ، وقد فرق الله ورسوله وأهل العلم بينهما ، كما فرقت الحقائق بينهما،فان الاتباع سلوك المتبع ، والإتيان بمثل ما أتى به ، والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله،وبيان زلة العالم،ليبينوا بذلك فساد التقليد،وأن العالم قد يزل ولا بد إذ ليس بمعصوم،فلا يجوز قبول كل ما يقوله،وينزل قوله منزلة المعصوم،فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض،وحرموه وذموا أهله وهو أصلاً بلاء المقلدين وفتنتهم،فانهم يقلدون العالم فيما يزل فيه وفيما لم يزل،وليس لهم تمييز بين ذلك،فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد،فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله،ويشرعون ما لم يشرع ولا بد لهم من ذلك،إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه فالخطأ واقع منه ولا بد . انتهى ، بتصرف في العبارة ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت :

﴿ أو لـو كان الشيـطان يدعـوهم ؟ ﴾ أي :آباءهم الـذين اقتـدوا بهم في دينهم أي : يتبعونهم في الشرك،ولـو كان الشيـطان يدعـوهم فيمـا هم عليـه من الشرك ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع .

﴿ إلى عـذاب السعير ﴾ لأنـه زين لهم اتبـاع آبـائهم،والتـدين بـدينهم ، والأول أولى . لأن مدار إنكار الأتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون أنفسهم كذلك ، ويجوز أن يـراد أنه يـدعو جميـع التابعين والمتبـوعين الى العذاب ، فدعاؤه المتبوعين بتزيينه لهم الشـرك ، ودعاؤه للتـابعين بتزيينـه لهم دين آبـائهم ، وجواب ﴿ لـو ﴾ محذوف ، أي : يـدعوهم فيتبعـونه ، ومـا أقبح التقليد وأكثر ضرره على صاحبه ، وأوخم عـاقبته وأشـأم عائـدته على من وقـع فيه ، فـإن الداعي لـه الى ما أنـزل الله على رسولـه كمن يريـد أن يـذود الفـراش عن لهب النار لئـلا تحرق ، فتـأبى ذلك وتتهـافت في نـار الحـريق ، وعذاب السعير .

﴿ ومن يسلم وجهـه إلى الله ﴾ أي : يفـوض أمـره إليـه.ويخلص لـه عبـادته ، ويقبـل عليه بكليتـه ، وقرىء من يسلم بـالتشديـد . قال النحـاس : التخفيف في هذا أعرف،كما قال عز وجل: ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾.

﴿ وهو محسن ﴾ في أعماله،لأن العبادة من غيـر إحسان فيهـا ولا معرفـة بما يحتاج إليه فيها لا تقع بالموقع الـذي تقع بـه عبادة المحسنين ، وقـد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال لـه : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي: اعتصم بالعهد الأوثق ،وتعلق به وهو تمثيل لحـال من أسلم وجهه الى الله بحـال من أراد أن يرتقي الى شـاهق جبل فيمسك بأوثق عرى حبل متدل منه ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾أي :مصيرها له لا الى غيره فيجازي عليها .

وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴾ أي : لا تحزن لذلك،فان كفره لا يضرك. قرىء بفتح الياء وضم الزاي ، وبضم الياء وكسر الزاي سبعيتان،بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين ، ثم توعدهم بقوله ﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴾ أي : نخبرهم بقبائح أعمالهم ، ونجازيهم عليها ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي :بما تسره صدورهم،لا تخفى عليه من ذلك خافية فالسر عنده كالعلانية .

﴿ نمتعهم﴾ تمتيعاً أو زماناً ﴿ قليلاً ﴾ أي : نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها الى انقضاء آجالهم،فإن النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة الى النعيم الدائم ﴿ ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ أي نلجئهم ونردهم الى عذاب النار في الآخرة،لا يجدون عنها محيصاً : والمراد :الشدة والثقل على المعذب فانه لا أثقل منه على من وقع فيه ، وأصيب به ، فلهذا استعير له الغلظ .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ أي : يعترفون بأن الله خالق ذلك لوضوح الأمر فيه عندهم ، وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد ، وبطلان الشرك،وإلزام لهم على إقرارهم . ولهذا قال :

﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ الحمد لله ﴾ على اعترافكم ، فكيف تعبدون غيره

وتجعلونه شريكاً له ، أو المعنى :فقل : الحمد على ما هدانا له من دينه ، ولا حمد لغيره ، أو على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون ويجحدها الجاحدون،ثم أضرب عن ذلك فقال ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ذلك يلزمهم ، وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا ، وقيل : لا ينظرون ، ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة دون غيره .

﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً،فلا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿ إن الله هو الغني ﴾ عن غيره ﴿ الحميد ﴾أي : المستحق للحمد ، وإن لم يحمدوه،أو المحمود من عاده بلسان المقال ، أو بلسان الحال ، ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السموات والأرض،أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عد ، ولا يحصر بحد ، فقال :

﴿ ولو أن ﴾ جميع ﴿ ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ وحد الشجرة لما تقرر في علم المعاني أن استغراق المفرد أشمل ، قيل : وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الشجر ، واستقصاؤه ، فكأنه قال : كل شجرة شجرة حتى لا تبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بريت أقلاماً ، ولو لم يفرد لم يفد هذا المعنى إذ الجمع يتحقق بما فوق الثلاثة،إلا أن تدخل عليه لام الاستغراق هكذا قرروه،قال الشهاب : وفيه بحث فان إفادة المفرد التفصيل بدون تكرار أو الاستغراق بدون نفي محل نظر ، لأنه إنما عهد ذلك في نحو جاءوني رجلاً رجلاً وما عندي تمرة . قال أبو حيان :وهو من وقوع المفرد موقع الجمع ، والنكرة موقع المعرفة ،كقوله : ما ننسخ من آية، وجمع الأقلام لقصد التكثير ، أي : ولو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاماً ، ثم قال سبحانه :

﴿ والبحر ﴾ أي المحيط لأنه المتبادر من التعريف ، إذ هو الفرد الكامل قرىء البحر بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره يمده ، وبالنصب عطفاً على اسم أن ، أو بفعل مضمر يفسره ﴿ يمده من بعده ﴾ أي : بعد نفاده ﴿ سبعة أبحر ﴾ أي : والحال أن البحر المحيط مع سعته يمده السبعة الأبحر مداً لا ينقطع ، كذا قال سيبويه . وقال المبرد : إن البحر مرتفع بفعل مقدر ،

تقديره : ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر ، وقرىء . يمده من أمد،وقرىء : والبحر مداده ، وجواب لو :

﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ التي هي عبارة عن معلوماته ، لأنها لا نهاية لها ، قال أبو علي الفارسي : المراد بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور والإمكان ، دون ما خرج منه الى الوجود والزمان ، ووافقه القفال ، فقال : المعنى : أن الأشجار لو كانت أقلاما ، والبحار مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله تعالى ، الدالة على قدرته ووحدانيته ، لم تنفد تلك العجائب . قال القشيري : رد القفال معنى الكلمات الى المقدورات ، وحمل الآية على الكلام القديم أولى ، والمخلوق لا بد له من نهاية ، واذا نفيت النهاية فهي نفي للنهاية عما يقدر في المستقبل على إيجاده ، فأما ما حصره الوجود وعده فلا بد من تناهيه ، والقديم لا نهاية له على التحقيق .

قال النحاس : قد تبين أن الكلمات ههنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء، لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر ، وعلم الأجناس كلها ، وما فيها من شعرة وعضو ، وما في الشجرة من ورق ، وما فيها من ضروب الخلق . وقيل : إن قريشاً قالت : ما أكثر كلام محمد ؟ فنزلت قاله السدي .

وعن ابن مسعود قال : إن أحبار اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة : « يا محمد أرأيت قولك : وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، إيانا تريد ؟ أم قومك ؟ » فقال : كلا،فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شيء ؟ فقال : « إنها في علم الله قليل،وأنزل الله ولو أن ما في الأرض. . . الآية» أخرجه ابن اسحق، وابن جرير، وابن أبي حاتم .
قال أبو عبيدة : المراد بالبحر هنا :الماء العذب الذي ينبت الأقلام ، وأما المالح فلا ينبتها ، قال الشوكاني :ما أسقط هذا الكلام وأقل جدواه ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي : غالب لا يعجزه شيء ولا يخرج عن حكمته وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته .

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾

و ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس﴾ أي : كخلق نفس ﴿واحدة﴾ وبعثها لأنه بكلمة : كن فيكون ، قال النحاس : هكذا قدره النحويون ، يعني إلا كخلق نفس ، كقوله : واسأل القرية : قال الزجاج : أي قدرة الله على بعث الخلق كلهم ، وعلى خلقهم ، كقدرته على خلق نفس واحدة ، وبعث نفس واحدة ، أي : سواء في قدرته القليل والكثير ، فلا يشغله شأن عن شأن ﴿إن الله سميع﴾ لكل ما يسمع ﴿بصير﴾ لكل ما يبصر .

﴿ألم تر﴾ الخطاب لكل أحد يصلح لذلك ، أو للرسول ﷺ ﴿أن الله يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل﴾ أي : يدخل كل واحد منهما في الآخر،فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر ، وقد تقدم تفسيره في سورة الحج والأنعام ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي : دللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديراً للآجال ، وتتميماً للمنافع ، والاختلاف بينهما في الصيغة ، لما أن إيلاج أحد المولجين في الآخر متجدد في كل حين ، وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه ، وإنما التعدد والتجدد في آثاره .

﴿ كل ﴾ منهما ﴿ يجري الى أجل مسمى ﴾ قيل : هو يوم القيامة ، وقيل : وقت الطلوع ووقت الأفول ، وقيل : الشمس الى آخر السنة ، والقمر إلى آخر الشهر ، والأول أولى ، وقال هنا بلفظ : ﴿ إلى ﴾وفي فاطر ، والزمر ، بلفظ اللام ، لأن ما هنا،وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهي إليه الخلق ، وهما قوله ما خلقكم الآية وقوله : اتقوا ربكم واخشوا يوماً الآية فناسب ذكر ﴿ إلى ﴾ الدالة على الانتهاء ، وما في فاطر والزمر خال عن ذلك ، إذ ما في فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه ، وما في الزمر ذكر مع ابتدائه ، فناسب ذكر اللام ، والمعنى : يجري كل كما ذكر لبلوغ أجل . قاله الكرخي .

﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ لا تخفى عليه خافية،لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة فقدرته على العلم بما يعملونه بالأولى،وهو عطف على أن الله يولج الخ،داخل معه في حيز الرؤية ﴿ ذلك ﴾ أي : ما تقدم ذكره من الآيات الكريمة المشتملة على سعة العلم ، وشمول القدرة ، وعجائب الصنع واختصاص الباري بها ﴿ بأن الله ﴾ أي : بسبب أنه سبحانه ﴿ هو الحق ﴾ الثابت ألوهيته ، أو فعل ذلك ليعلموا أنه الحق،وهو المستحق للعبادة ﴿ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ لا يستحق العبادة ، قال مجاهد : الذي يدعون من دونه هو الشيطان ،وقيل : ما أشركوا به من صنم أو غيره ، وهذا أولى .

﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾أي :أن ذلك الصنع البديع الذي وصفه في الآيات المتقدمة،للاستدلال به على حقية الله ، وبطلان ما سواه ، وعلوه وكبريائه على الخلق ، له الصفات العليا ، والأسماء الحسنى ، وهو علي الذات ، سمي الصفات ، كبير الشأن ، جليل القدر ، رفيع الذكر ، مطاع الأمر جلي البرهان ، ثم ذكر من عجيب صنعه ، وبديع قدرته ، وغاية حكمته ، وشمول إنعامه نوعاً آخر فقال :

﴿ ألم تـر أن الفلك ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿ تجـري في البحر بنعمـة الله ﴾ أي بلطفـه بكم ، ورحمته لكم ، أو بـالريـح لأنها من نعم الله تعـالى ، وذلـك من أعظم نعمـه عليكم ، لأنها تخلصكم من الغـرق عنـد أسفـاركم في البحر لطلب الرزق،وقرىء بنعمات الله جمع نعمـة ، والباء للصلة ، أو للحـال ﴿ ليريكم من آياتـه ﴾ من للتبعيض ، أي بعض آياتـه ، قال يحيى بن سـلام ، وهو جري السفن في البحر بالريح ، وقال ابن شجرة :المراد بقوله ؛من آياته ما يشاهدونه من قدرة الله تعالى . قال النقاش : ما يرزقهم الله من البحر .

﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكـور ﴾ هذه الجملة تعليـل لما قبلهـا أي : فيما ذكر لآيات عظيمة ،وعبراً فخيمـة لكل من لـه صبر بليـغ ، وشكر كثير ، يصبر عن معاصي الله ، ويشكر نعمه ، وهما صفتـا المؤمن . فالإيمـان نصفان نصفه شكر ، ونصفه صبـر ،فكأنـه قال:إن في ذلـك لآيات لكـل مؤمن حيث يبعث في نفسه التفكر في عدم غرقه ، وفي سيره الى البـلاد الشاسعـة ، والأقطار البعيدة ، وفي كون سيره ذهاباً وإياباً بـريحين . وتارة بـريح واحـدة ، وفي إنجـاء أبيه نـوح عليه السـلام ، ومن أراد الله تعالى من خلقـه ، وإغـراق غيرهم من جميع أهل الأرض،وفي غير ذلك من شؤونه ، وأموره ، وصنائعـه ، وأفعاله .

﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ أي : كالجبال التي تظل من تحتها ، شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل ، أو سحاب ، أو غيرهمـا ، وإنما شبـه الموج وهو واحد،بالظلل وهي جمع ، لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء،ويركب بعضه بعضاً .وقيل :إن الموج في معنى الجمع ، لأنه مصـدر ، وأصل المـوج الحركة والازدحام ، ومنه يقـال ماج البحر،ومـاج الناس وقـرىء كالـظلال جمع ظل .

﴿ دعـوا الله ﴾ وحده ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي : لا يعولون على غيـره في خلاصهم ، لأنهم يعلمون أنـه لا يضر ولا ينفـع سواه ، ولكنـه يغلب على

طبائعهم العادات ، وتقليد الأموات ، فإذا وقعوا في مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله تعالى ، وأخلصوا دينهم له طلباً للخلاص والسلامة مما وقعوا فيه ، لزوال ما ينازع الفطرة الإيمانية من الهوى والتقليد بما دهاهم من الشدائد .

﴿ فلما نجاهم الى البر ﴾ صاروا قسمين ﴿ فمنهم مقتصد ﴾ أي:فقسم مقتصد ، أي : عدل موف في البر،بما عاهد عليه الله في البحر،من إخلاص الدين له ، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر ، وأخرجه الى البر سالماً . قال الحسن : معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : مقتصد في القول مضمر للكفر . وقال الرازي:المقتصد المتوسط بين السابق بالخيرات،والظالم لنفسه،وهو الذي تساوت سيئآته وحسناته،وقيل:متوسط بين الكفر والإيمان،لأنه انزجر بعض الانزجار ، ومنهم باق على كفره لأن بعضهم كان أشد قولاً ، وأعلى افتراء من بعض ، والأولى ما ذكرناه .

قيل : نزلت في عكرمة بن أبي جهل ، وذلك أنه هرب عام الفتح الى البحر ، فجاءهم ريح عاصف ، فقال عكرمة:لئن نجانا الله من هذا لأرجعن إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأضعن يده في يدي ، فسكنت الريح ، ورجع عكرمة إلى مكة ، وحسن إسلامه ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فمنهم مقتصد ، ومنهم كافر لم يوف بما عاهد ، ويدل على هذا المحذوف قوله :

﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ لأنه نقض العهد الفطري ، ورفض ما كان عليه في البحر ، وهذا في مقابلة صبار ، كما أن ﴿ كفور ﴾ في مقابلة ﴿ شكور ﴾والختر :أسوأ الغدر وأقبحه . قال الجوهري :الختر : الغدر ، يقال : ختره فهو ختار ، أي : غدار ؛ قال الماوردي : وهذا قول الجمهور ، وقال ابن عطية : إنه الجاحد ، وجحد الآيات إنكارها ،والكفور عظيم الكفر بنعم الله سبحانه . قال ابن عباس : ختار : جحاد .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي ﴾ أي : لا يغني ولا يقضي ﴿ والد عن ولده ﴾ شيئاً ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع ، لاشتغاله بنفسه،وقد تقدم بيان معناه في البقرة ﴿ ولا مولود هو ﴾ مبتدأ ثان خبره: ﴿ جاز عن والده شيئاً ﴾ والجملة خبر مولود ، وجاز الابتداء به، وهو نكرة لأنه في سياق النفي ، ثم الخبر مع المبتدأ كلام وارد على طريق من التوكيد ، لم يرد عليه ما هو معطوف عليه ، لأن الجملة الاسمية،آكد من الجملة الفعلية؛وقد انضم الى ذلك قوله ﴿ هو ﴾ وقوله ﴿ مولود ﴾ والسبب في ذلك أن الخطاب للمؤمنين ، فأريد حسم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم بالشفاعة في الآخرة ، ومعنى التأكيد في لفظ المولود:أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته ، فضلاً أن يشفع لأجداده؛إذ الولد يقع على الولد ، وولد الولد ، بخلاف المولود فانه لمن ولد منك ، كذا في الكشاف .

وبالجملة فقد ذكر سبحانه هنا فردين من القرابات ، وهما الوالد والولد ، وهما الغاية في الحنو والمحبة والشفقة على بعضهم البعض ، فما عداهما من القرابات لا يجزي بالأولى ، فكيف بالأجانب ، ونبه أيضا بالأعلى على الأدنى ، وبالأدنى على الأعلى ، فالوالد يجزي عن ولده في الدنيا لكمال شفقته عليه ، والولد يجزي عن والده لما له عليه من حق التربية وغيرها ، فاذا كان يوم القيامة فكل إنسان يقول : نفسي نفسي ، ولا يهتم بقريب ولا بعيد .

وقال ابن عباس : كل امرىء تهمه نفسه ، اللهم اجعلنا ممن لا يرجو سواك ، ولا يعول على غيرك .

﴿ إن وعد الله ﴾ بالبعث ﴿ حق ﴾ لا يتخلف ، فما وعد به من الخير ، وأوعد به من الشر ، فهو كائن لا محالة ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ وزخارفها عن الإسلام فإنها زائلة ذاهبة فانية .

﴿ ولا يغرنكم بالله ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿ الغرور ﴾ بفتح الغين أي : الدنيا، أو الأمل بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصي ، وقال ابن عباس : الغرور: هو الشيطان ، وكذا قال مجاهد ، وعكرمة وقتادة لأن من شأنه أن يغر الخلق ، ويمنيهم بالأماني الباطلة ، ويلهيهم عن الآخرة ، ويصدهم عن طريق الحق . وقال سعيد بن جبير : يعمل بالمعاصي ، ويتمنى المغفرة . وقرىء بضم الغين، مصدر غر يغر غروراً ، ويجوز أن يكون مصدراً واقعاً وصفاً للشيطان على المبالغة .

﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ أي : علم وقتها الذي تقوم فيه ، قال الفراء: إن معنى هذا الكلام النفي، أي : ما يعلمه إلا الله عز وجل ، قال النحاس : وإنما صار فيه معنى النفي، لما ورد عن النبي ﷺ أنه قال في قوله : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو : إنها هذه .

أخرج البخاري ، ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : مفاتيح الغيب خمس ، لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا ما في الأرحام إلا الله . وفي الصحيحين ، وغيرهما، من حديث أبي هريرة ـ في حديث سؤاله عن الساعة ، وجوابه بأشراطها ـ ثم قال : في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا هذه الآية ، أي : لا يدري أحد متى تقوم الساعة في أي سنة ، وأي شهر وأي يوم ، وأي ساعة ليلاً أو نهاراً .

وفي الباب أحاديث ، وعن مجاهد قال : جاء رجل من **أهل البادية فقال** : إن امرأتي حبلى فأخبرني ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة ، فأخبرني متى ينـزل الغيث، وقد علمت متى ولدت ، وأخبرني متى أموت؟ ، فأنزل الله : إن الله عنـده علم الساعة الآيـة ، وعن عكرمـة نحوه ، وزاد وقـد علمت ما كسبت اليـوم ، فماذا أكسب غـداً ؟ وزاد أيضـاً أنـه سـأل عن قيـام السـاعـة ! وقيـل : نـزلت في الحرث بن عمرو بن حارثة،من أهل البادية .

﴿ وينزل الغيث ﴾ في الأوقات والأمكنة التي جعلها معينـة لإنزالـه ، ولا يعلم ذلـك غيره.قـرىء من التنـزيـل والإنـزال ﴿ ويعلم مـا في الأرحـام ﴾ من الذكور والإناث،والصلاح والفسـاد ﴿ وما تـدري نفس ﴾ من النفوس كـائنة مـا كـانت،من غير فـرق بين المـلائكـة والأنبيـاء ، والجن والإنس ﴿ مـاذا تكسب غداً ﴾ من كسب دين،أو كسب دنيا ، خير أو شر .

﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ وقـرىء بأيـة أرض ، وجوز ذلـك الفراء ، وهي لغة ضعيفـة ، قال الأخفش : يجـوز أن يقال مـررت بجاريـة أي جـارية ، والمعنى : ولا تعلم نفس بـأي مكـان يقضي الله عليهـا بـالمـوت من الأرض في بر أو بحر ، في سهل ، أو جبل ، وربمـا أقامت بـأرض ، وضربت أوتادها،وقالت : لا أبرحها فترمي بها مرامي القـدر حتى تموت مكـان لم يخطر ببالها .

روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر الى رجل من جلسـائه فقال الرجل :من هذا؟ قال ملك الموت ، قال : كأنه يريدني ، وسأل سليمـان عليه السلام أن يحمله على الـريح،ويلقيـه ببلاد الهنـد . ففعل ، ثم قـال ملك الموت لسليمان : كان دوام نظري إليه تعجباً منه ، لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك،ذكـره النسفي في المدارك ، ورأى المنصـور في منامـه صورة ملك الموت،وسألـه عن مدة عمـره فأشـار بأصـابعه الخمس،فعبـرها المعبـرون بخمس سنوات ، وبخمسة أشهر ، وبخمسة أيام ، فقال أبو حنيفة : هـو إشارة الى هذه الآية .

فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله . قال الكرخي : أضاف في الآية العلم الى نفسه في الثلاثة من الخمسة المذكورة،ونفى العلم عن العباد في الأخيرتين منها ، مع أن الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها ، وانتفاء علم العباد بها،لأن الثلاثة الأولى أمرها أعظم وأفخم،فخصت بالإضافة إليه تعالى،والأخيرتان من صفات العباد ، فخصتا بالإضافة إليهم مع أنه إذا انتفى عنهم علمهما كان انتفاء علم ما عداهما من الخمس أولى :

﴿ إن الله عليم ﴾ بهذه الأشياء ، وبغيرها من الغيوب ﴿ خبير ﴾ بما كان وبما يكون وببواطن الأشياء كلها ، ليس علمه محيطاً بالظاهر فقط . قال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه فإنه كفر بالقرآن . وعن الزهري : أكثروا قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب ، والله أعلم ، وفيه رد على المنجم والكاهن،اللذين يخبران بوقت الغيث والموت وغيرهما .




خاتمة الجزء العاشر
تم بعون الله الجزء العاشر من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء الحادي عشر وأوله سورة السجدة.



فهرس الجزء العاشر